

قراءات في تاريخ مصر الإسلامية

من الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي



دكتور
سند أحمد عبد الفتاح

دكتور
محمد نصر عبد الرحمن

الناشر
دار النهضة العربية

القاهرة ٢٠٠٨

قراءات في تاريخ مصر

الإسلامية

من الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي

دكتور

سند أحمد عبد الفتاح

دكتور

محمد نصر عبد الرحمن

الناشر

دار النهضة العربية

القاهرة 2008

© د. محمد نصر عبد الرحمن د. سند أحمد عبد الفتاح

حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف ، ولا يجوز الاقتباس أو التصوير
بالآلات الحديثة أو النسخ أو الطبع إلا بإذن كتابي من المؤلف
الطبعة الأولى 2008م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٧٧٩٦ / ٢٠٠٨

دار الفردوس للطباعة
ت : ٠١٠٥٤٢٠٨٠١

لم يكن دخول العرب إلى مصر حدثاً عادياً في تاريخها ، بل كان نقلة كبرى تركت تأثيرها على كافة المستويات السياسية والاجتماعية والأيدلوجية ؛ فمن ولاية رومانية إلى ولاية إسلامية تطورت لتصبح مركزاً لعدد من الدول الإسلامية المستقلة نهايةً باحتضانها الخلافة الفاطمية. ومن عقيدة مسيحية غالبية إلى انتشار واسع للدين الإسلامي ولغته العربية .. تطورات متلاحقة ، شكلت واحدة من أكثر الفترات زخماً في تاريخ مصر عبر العصور .. تاريخ مصر الإسلامية ...

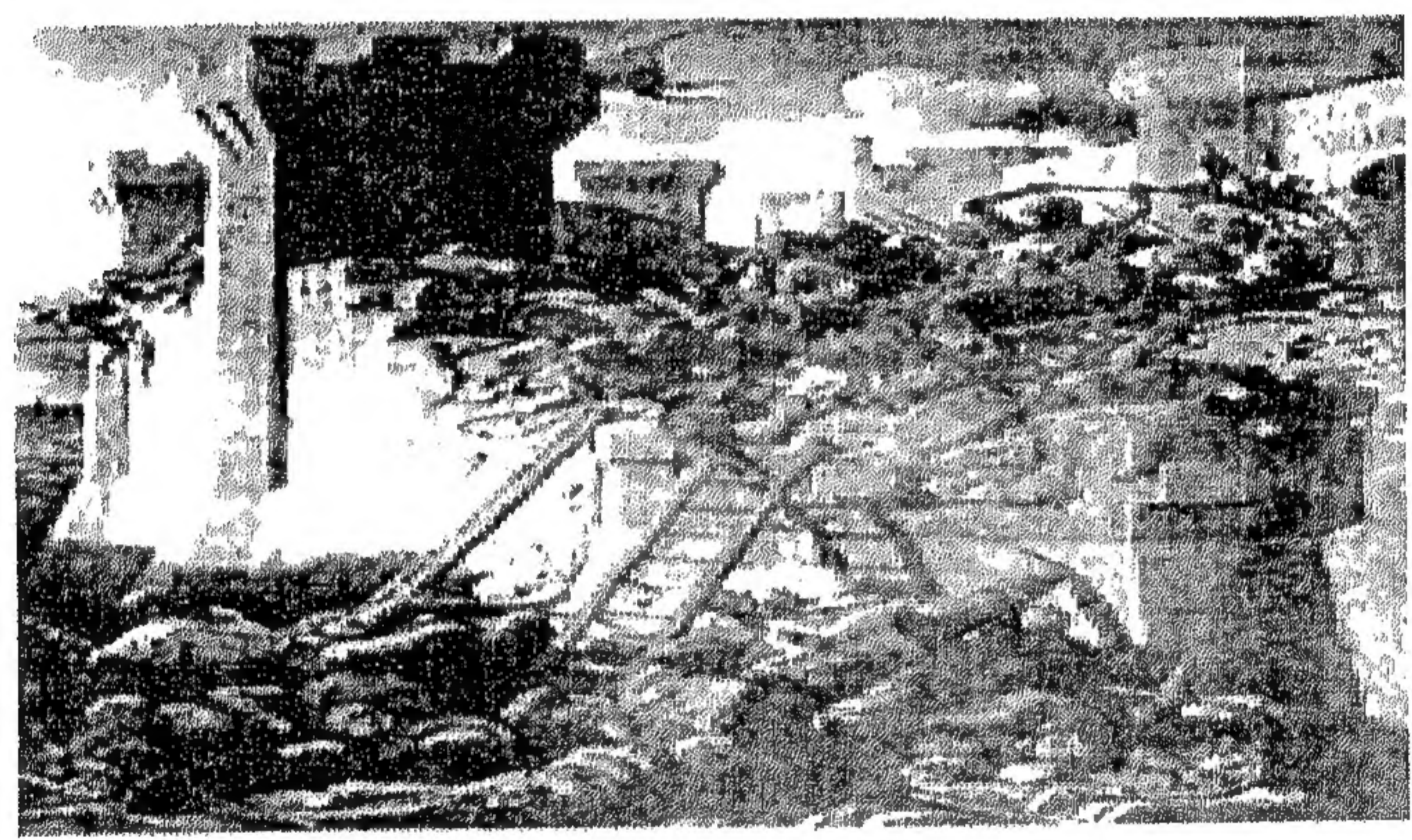
وما بين فتح إسلامي غير كثيراً من أحوال مصر ، ومثل مرحلة جديدة تماماً من تاريخها ، مروراً بالدول المستقلة التي اتخذت من مصر مقراً لها كالدولتين الطولونية والإخشيدية وما صاحب ذلك من تطور مركز مصر في العالم الإسلامي من مجرد ولاية تابعة للخلافة إلى دولة صاحبة كيان في العالم الإسلامي ، ثم تطور الوضع كلية بمقدم الفاطميين وما صاحبه من تقلب مذهبي وتنافس سياسي بين العباسيين والفاطميين ، هذا الوضع الذي جعل من مصر مركزاً هاماً من مراكز صنع القرار في العالم الإسلامي.

ولا شك أن حقبة بهذا الزخم تجذبنا حثيثاً نحو دراستها ، والتبحر في ربوعها ، في محاولة لرسم فضاء جلي لأهم أحداث هذه الحقبة على الجانبين السياسي والحضاري ، وتنقسم دراستنا إلى عدة فصول ؛ يتناول الأول منها الفتح العربي وأسبابه ، وخصص الفصل الثاني الحديث عن الدولة الطولونية التي جعلت من مصر دولة مستقلة استقلالاً ذاتياً ؛ وتناول الفصل الثالث الدولة الإخشيدية ، وتحدث الفصل الرابع عن الدولة الفاطمية ، أما الفصل الخامس والأخير فقد خصص للحديث عن بعض مظاهر النظم والحضارة إبان تلك الفترة .

وفي الختام نرجو أن يكون هذا العمل العلمي المتواضع لبنة ذات قيمة في صرح الدراسات التي تتعلق بتاريخ مصر الإسلامية في مكتبتنا العربية. وبعد، هذا مبلغنا من العمل فإن أصبنا فمن الله وإن أخطأنا فمن أنفسنا، والله ولي التوفيق.

المؤلفان

الفصل الأول



الفنح العريضة لمصر وأسبابه

الفتح العربي لمصر:

كان الفتح العربي لمصر علامة بارزة في تاريخها على كافة المستويات السياسية والأيدولوجية والاقتصادية والاجتماعية. ومرجع ذلك أن هذا الفتح قد أدى لتحولات كبيرة في الأوضاع بمصر سواء في تغيير النمط السياسي والأيدولوجي، أو فيما تركه من نتائج على المصريين بشكل عام.

وبلا شك فإن هذا التحول لم يكن هادئاً أو مر مرور الكرام نظراً لنتائجه البالغة الأهمية، وكان من الطبيعي ألا تقف وجهات النظر سواء في المصادر العربية الإسلامية أو المصادر الأخرى فيما يخص هذا الفتح وأسبابه ووقائعه ونتائجه وموقف سكان المنطقة من هذا الفتح.

أولاً: أحوال مصر عند الفتح:

كانت مصر تخضع سياسياً للإمبراطورية البيزنطية ، فمنذ انتصار الإمبراطور البيزنطي هرقل على الفرس عام 622م ، أصبح الإشراف البيزنطي كاملاً على مصر ، وقام البيزنطيون بتقسيمها أقساماً عرفت باسم الثيمات Thomas ووضعوا فيها الحاميات وهذا النظام دى ما سيطبقه العرب بعد ذلك ويعرف باسم الأجناد¹.

كانت أحوال مصر سيئة للغاية بوجه عام فى ظل حكم هذه الإمبراطورية ؛ فقد كانت الحالة الاقتصادية سيئة بسبب قسوة عبء الضرائب من ناحية والتمادى فى نظام الوظائف الإلزامية غير المسأجورة من ناحية أخرى. وأدى ذلك إلى فرار كثير من الفلاحين من أراضيهم حتى كادت تختفى فى القرن السادس للميلاد طبقة صغار المزارعين. وأدى تناقص هذه الطبقة إلى استيلاء كبار الملاك على أراضيهم الأمر الذى أدى

(1) أرماني ، الإمبراطورية البيزنطية ، ت. طه بدر ، القاهرة 1953 ، ص 131 -

إلى خلل كبير فى ميزان القوى الاجتماعية ، فضلا عن عجز الحكومة عن مواجهة نفوذ كبار الملاك الزراعيين.

وزاد من متاعب المصريين أن الرومان اعتبروهم دائما الطبقة السفلى فى المجتمع التى تأتى بعد الرومان واليونان وحتى اليهود ، ففرضوا عليهم أشد الالتزامات قسوة ، وفى الوقت نفسه حرميوهم من أبسط الحقوق الاجتماعية. ومع ذلك ظل المصريون متمسكين بقدر كبير من عاداتهم ونظمهم وثقافتهم القديمة¹.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل تعداه للجانب العقائدى فى حياة كل المصريين ؛ فرغم أن أهل الشام ومصر اعتنقوا المسيحية منذ وقت مبكر ، وأصبحت هذه الديانة هى الديانة الرسمية للإمبراطورية البيزنطية منذ عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الأول (379 - 395م) ، إلا أن المصريين جاثوا طويلا من اضطهاد الأباطرة البيزنطيين لهم ، ومرجع ذلك التنزاع الدينى الذى نشب بين كنيسة الإسكندرية المصرية وكنيسة القسطنطينية حول طبيعة المسيح. فعلى حين ذهبت الكنيسة المصرية إلى الإيمان بوجود طبيعة واحدة للمسيح (المذهب المونوفيزيتى) وهى الطبيعة الإلهية ، أقرت كنيسة القسطنطينية بوجود طبيعتين للمسيح ، واحدة إلهية وأخرى بشرية. وقد رفض المصريون قرارات مجمع خلقدونية عام 451م التى أقرت مذهب الطبيعتين وأطلقوا على أنفسهم اسم " الأرثوذكسيين " أى أتباع الديانة الصحيحة².

وقد حاول الإمبراطور البيزنطى هرقل فرض هذا المذهب بالقوة على المصريين ، فقام باضطهاد وتعذيب كل من حاول مخالفة هذا

(1) عبد الرحمن الرافعى ، سعيد عبد الفتاح عاشور ، مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى ، القاهرة 2000 ، ص 20.

(2) سيدة إسماعيل كاشف ، مصر فى فجر الإسلام من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية ، القاهرة 1970 ، ص 6.

المذهب¹. وفى مصر أسند الرئاسة الدينية والسياسية لأحد أتباعه ويدعى قيرس ، والذي يعرف عند العرب باسم المقوقس وكانت مهمة الأخير إجبار المصريين على التخلي عن المذهب المونوفيزيتى ، لذلك قام المقوقس باضطهاد المصريين مما اضطر بطريرك الأقباط بنيامين للفرار من الإسكندرية إلى الصعيد بعد أن طلب من القساوسة والشعب بالصمود والتمسك بمذهبهم².

صفوة القول أن أوضاع مصر عشية الفتح الإسلامى لها كانت متردية ، فناهيك عن الاحتلال العسكرى للبيزنطيين ، تم تهيش المصريين سياسياً وعانوا من مساوئ النظام الاقتصادى ، وقبعوا فى ذيل الهرم الطبقي اجتماعياً ، وقاسوا مرارة الاضطهاد عقائدياً وبالجمله كانت الساحة مهياة لوفد جديد ربما يتم الخلاص على يديه.



(1) إبراهيم العدوى ، الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية ، القاهرة 1951 ، ص34.

(2) ساويرس بن المقفع ، سير آباء البطارقة ، ج 1 ، باريس 1907 ، ص226.

ثانياً: أسباب فتح مصر:

تنوعت الأسباب التي حدثت بالمسلمين للتفكير في فتح مصر ، ومن نافلة القول أن عمليات الفتح الإسلامي بوجه عام بدأت منذ فترة مبكرة وتحديدًا منذ عهد النبي (ص) ، فبعد مقتل الرسول السذي بعثه النبي للفسانة للتبليغ بالدعوة لم يكن النبي ليقف ساكناً أمام ما حدث ، وإنما عول على إتباع دعوته السلمية إلى الإسلام في الجهات التي لم ترع حرمة مبعوثه بالقيام بمشروعات حربية كانت بطبيعتها محدودة في البداية لقلّة عدد المسلمين وقتها¹.

واستمر الأمر في عهد أبو بكر الذي سار على نهج النبي (ص) في مواصلة الفتح ونشر رسالة الإسلام في العالم ، ولم يكن الهدف الاقتصادي هو المحرك الفاعل في هذا الأمر بل كان هدفاً مكملاً له ، بمعنى أن السلطة الإسلامية في تلك الفترة ومع قلة عدد المسلمين كانت بحاجة لتكاتف كل القوى من أجل تحقيق الهدف الأسمى في فتح البلاد غير المسلمة ونشر الإسلام بها ، لذلك لم تجد غضاضة في التلويح بالمغانم الاقتصادية لأولئك الذين تجذبهم هذه الناحية ، وظهر ذلك في رواية البلاذري² التي تصف ما فعله أبو بكر حين أراد تجميع جيش للسير لفتح دمشق فيقول " كتب إلى أهل مكة والطائف واليمن والحجاز يستنفرهم للجهاد ويرغبهم فيه وغنائم الروم ، فسارع الناس إليه بين محتسب وطامع ".

ولا تنكر المصادر الإسلامية وجود الدافع الاقتصادي لدى بعض من خرجوا للقتال مع الجيوش الإسلامية ، ومثال ذلك ما ذكره الواقدي³ في وصف رد بعض أهل الحجاز حين طلب منهم العودة بعد أن استعصت عليهم بعض المناطق في الشام فكان ردهم " وكيف ندع هذه الأعين

(1) إبراهيم العدوي ، الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية ، ص36.

(2) فتوح البلدان ، ص 70.

(3) فتوح الشام ، ج 2 ، ص118.

المتفجرة ، والأنهار والزرع والأغاب ، والذهب والفضة والحريير ،
ونرجع إلى قحط الحجاز وجنوبة الأرض ، وأكل الشعير ولباس الصوف .
أما عن فتح مصر فقد اختلفت المصادر الإسلامية في حديثها عن
أسباب تفكير المسلمين في هذا الفتح ، فبعضها¹ يذكر أن فكرة الفتح كانت
آتية من عمرو بن العاص وحده دون أمر من الخليفة عمر بن الخطاب ،
وأن الأخير كتب إليه بأمره بالرجوع إلا إذا كان قد دخل أرض مصر ، لكن
عمرو لم يلق بالاً إلى أوامر الخليفة واجتاز الحدود المصرية ليضع الخليفة
أمام الأمر الواقع. لكن هناك مصادر أخرى² رأت ما يخالف ذلك ، حيث
أوردت نصاً يأمر فيه الخليفة عمر بن الخطاب قائده عمرو بن العاص
بالتوجه بعسكره إلى مصر بمجرد قراءة كتابه. أي أن فتح مصر كان
بتخطيط من الخلافة.

في حين أن هناك رواية ثالثة تجمع بين الأمرين ، حيث تذكر أن
عمرو كان صاحب الفكرة وأنه عرض الأمر على عمر وأوضح له أنها
أكثر الأرض أموالاً .. وأنها أن فتحت كانت قوة للمسلمين وعوناً لهم.
فإن له بالمسير " إني مرسل إليك كتاباً ، فإن أدرتك وأمرتك فيه
بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها فتصرف ، وأن
دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فاقصد لوجهك واستعن بالله واستنصره"³.

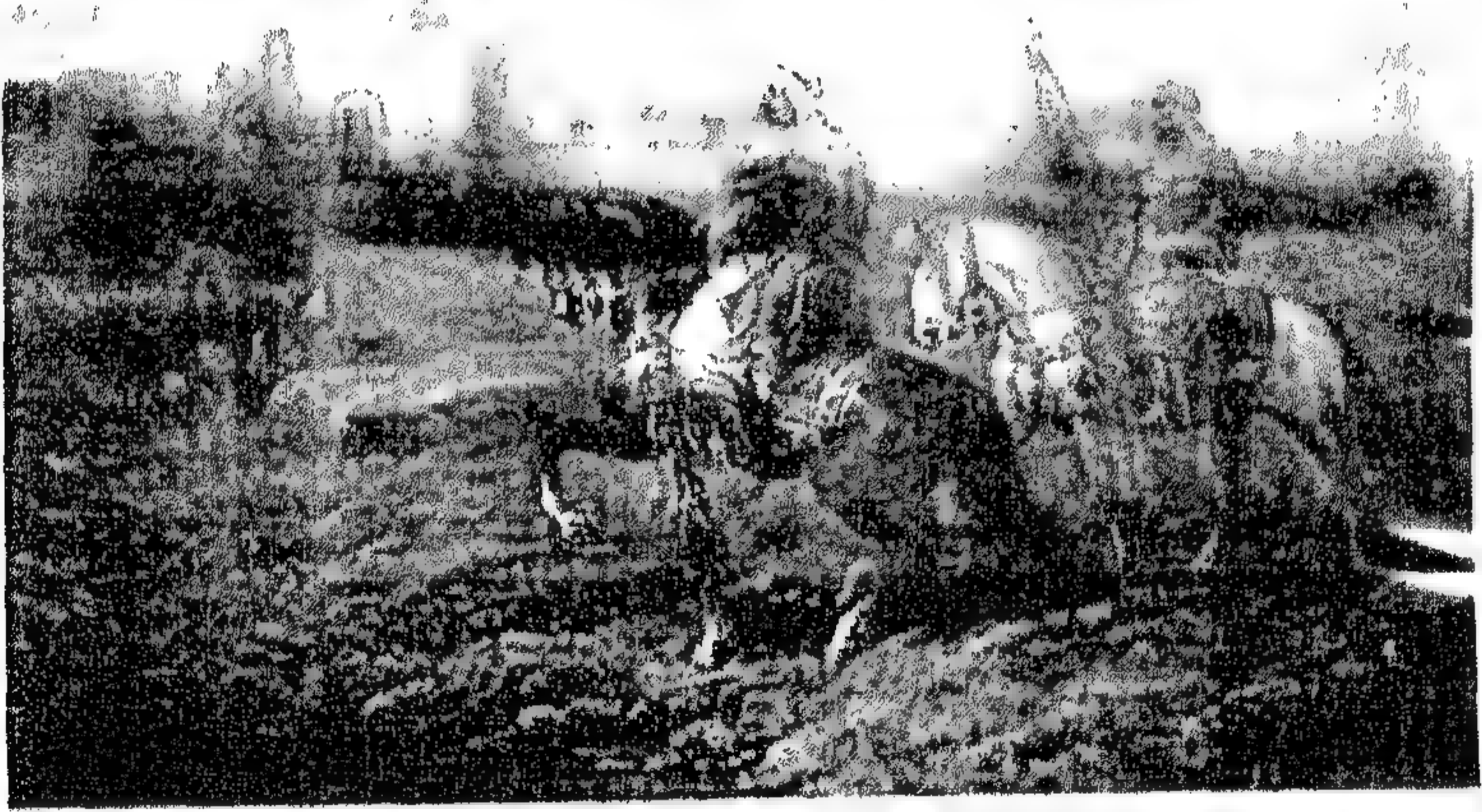
ويبدو من تلك الرواية أن الخليفة عمر كان متردداً في فتح مصر ،
ربما خوفاً من فتح جبهة جديدة للمسلمين الذين كانوا يقاتلون في جبهتين
أخريين هما العراق والشام وما يترتب على ذلك من توزيع قوى الجيش

(1) البلاغري ، فتوح البلدان ، ص 135 ، ابن عبد الحكم ، فتوح مصر وأخبارها ،
القاهرة 1914 ، ص 66.

(2) ابن اسحق ، فتوح مصر وأعمالها ، القاهرة 1275هـ ، ص 4 ، الواقدي ، فتوح
الشام ، ص 331.

(3) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج 1 ، ص 5 - 6.

الإسلامي ، لكنه مع ذلك أبدى موافقته عندما أدرك مدى الخطر الذي يتعرض له المسلمون في الشام إذا ظلت مصر بأيدي البيزنطيين¹.
وخلاصة هذه الروايات أن أسباب فتح مصر كانت متعددة ويمكنها أن تتوافق مع بعضها ، فهناك الطموح الشخصي لعمر بن العاص في استمرار فتوحاته. وضرورة الفتح للقضاء على كل محاولة بيزنطية لاستعادة بلاد الشام ، حيث كان على العرب أن يعملوا ألف حساب لرد فعل يأتي من الجيوش البيزنطية في مصر ، خصوصا وأن بعض قوات فلسطين كانت قد انسحبت إليها². بجانب استغلال موارد مصر البشرية والاقتصادية في استكمال عمليات الفتوح الإسلامية في العالم.



- (1) سعيد عاشور ، مصر في العصور الوسطى ، ص 19.
- (2) شكري فيصل ، حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول ، القاهرة 1952 ، ص 84.
- (3) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسي للدولة العربية ، ج 1 ، عصور الجاهلية والنبوة والخلفاء الراشدين ، القاهرة 1960 ، ص 216.

ثالثاً: وقائع فتح مصر:

ينبغي هنا أن نفرق بين المقاومة الرسمية للفتح والمقاومة الشعبية لأن ذلك يحدد بشكل كبير مدى الترحيب بالفتح الإسلامي ، فالمقاومة الرسمية من الدولة البيزنطية وجنودها وحاميتها لن ترحب بالطبع بهذا الفتح بل ستتصدى له بحكم الصراع السياسى والعسكرى ، بينما المقاومة الشعبية من الأهالى تحدد هنا مدى الترحيب بالفتح من عدمه.

ويهمنا هنا كما ذكرنا أن نفرق بين المقاومة الرسمية والشعبية لمحاولات فتح مصر من جانب المسلمين وسنبداً بالمقاومة الرسمية والتي بدأت منذ وطأت أقدام المسلمين بقيادة عمرو بن العاص مصر عام 18هـ/639م . حيث تقدم الجيش الإسلامى من ناحية الشام فاستولى على رفح ومنها إلى العريش حتى وصل إلى الفرما وسط مقاومة من القوات البيزنطية لكنها لم تتمكن من إيقاف المد الإسلامى بقوة حتى وصل إلى حصن بابلون حيث يوجد المقوقس حاكم مصر ففرض عليه حصاراً طويلاً وعرض على المقوقس الشروط الإسلامية المعتادة فى عمليات الفتح : الدخول فى الإسلام أو دفع الجزية أو القتال¹.

ويبدو أن المقوقس حين رأى إصرار المسلمين وقوتهم أثر المهادنة ووافق على دفع الجزية لكنه اشترط أن تكون حرية الاختيار للبيزنطيين فى مصر فى قبول شروط الصلح أو الخروج من مصر ، وأن تكون الكلمة الأخيرة فى الصلح للإمبراطور البيزنطى هرقل. ويفهم من ذلك أن الصلح يسرى على المصريين بوصف المقوقس ممثلاً لهم ، أما الجالية البيزنطية فى مصر فما زال أمرها مطلقاً².

(1) المقرئى ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقرئية،

ج 1 ، تحقيق محمد زينهم ، القاهرة 1998 ، ص 290.

(2) سيدة إسماعيل ، مصر فى فجر الإسلام ، ص 12.

وهناك رواية أخرى خاصة بفتح حصن بابلين تذكر أنه تم فتحه بالقوة وليس صلحاً فتروى أنه أثناء الحصار تمكن أحد القادة المسلمين وهو عبد الله بن الزبير من تسلق أحد أسوار الحصن ومعه بعض المقاتلين المسلمين وفتحوا باب الحصن فدخله المسلمون واستباحوا الحصن على أساس أنه فتح عنوة¹. وهذه الرواية تؤكد رواية حنا النقيوسي John of Nikiu وأن أفرطت في وصف ما قام به المسلمون من قتل في الحصن وما حوله من الرجال والنساء وحتى اللاتين بالكنائس². وقد أورد لنا الطبري³ نص كتاب الأمان الذي منحه عمرو بن العاص للمصريين بعد فتح حصن بابلين عام 20هـ/641م ومما جاء فيه:

" بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم ، وكنائسهم وبرهم وبحرهم لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص ولا يساكنهم النوب. وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف وعليهم ما جنى لصوصهم. فإن أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزاء بقدرهم ، وذمتنا ممن أبى بريئة ، وأن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك ، ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب فله مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم ، ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا.....".

(1) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص136.

(2) انظر :

The Chronicle of John, Bishop of Nikiu, tr. Charles, H., (Oxford, 1916), p.201.

(3) تاريخ الأمم والملوك ، ج4 ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة 1970 ، ص229.

وقد رأى بترل¹ أن هذا الصلح كان خاصاً بأهل مصر المقيمين فى منطقة حصن بابلون وليس مصر كلها ، ويؤيد وجهة نظره هذه بأنه كان من عادة العرب عند فتحهم لمدينة مهمة مثل دمشق أو غيرها أن يطردوا صلحاً مع أهلها ، كما أنه فى الوقت الذى عقد فيه هذا الصلح لم يكن قد تم استيلاء العرب على الصعيد أو الوجه البحرى ، وأن مبلغ الجزية الضخم الذى ورد فى الصلح (50 مليون دينار) يجب استبعاده.

لكن البعض² رفض هذا رأى مستنداً على أن المصادر التاريخية ذكرت أن أهل مصر قبلوا الصلح وبخلوا فيه ، وأن مبلغ الجزية الكبير يرجح أن الصلح كان خاصاً بمصر كلها ، وأنه برغم أن الإسكندرية كانت العاصمة الحقيقية لمصر إلا أن حصن بابلون كان قلب مصر ، وحوادث التاريخ تدلنا أنه إذا سقط قلب الدولة كان ذلك معناه سقوط الدولة كلها.

بعد ذلك اتجه عمرو لفتح الإسكندرية بوصفها المعقل الرئيسى للبيزنطيين فى مصر ، والمركز الأول للنشاط السياسى والاقتصادى والثقافى فى مصر طوال عصرى البطالمة والرومان. وفى تلك الأثناء أرسل هرقل إلى المقوقس يؤنبه على موقفه من المسلمين وأبولسه دفع الجزية ويقول له "إك رضىت أن تكون أنت ومن معك من الروم فى حال القبط أذلاء فقاتلهم أنت ومن معك من الروم حتى تموت أو تظهر عليهم"³. لكن المقوقس لم يعبا برد هرقل وأخبر عمرو بن العاص أنه على عهده معه. وعندئذ طلب عمرو من المقوقس أن يضمن له الجسور

(1) انظر:

Butler, A., The treaty of Misr in Tabari, (Oxford, 1913), pp.25-26.

(2) سيدة الكاشف ، مصر فى فجر الإسلام ، ص 19.

(3) المفريزى ، الخطط ، ج 1، ص 292.

ويقيم له الأنزال والضيافة في طريقه إلى الإسكندرية ، فتعهد له المقوقس بذلك¹.

على أن الموقف اختلف بالنسبة للإسكندرية عنه بالنسبة لحصن بابلون. ذلك أن الإسكندرية مدينة بحرية قبل كل شيء ، يحتاج حصارها إلى أسطول يخطط بها من ناحية البحر ، في الوقت الذي لم يكن للعرب فيه أسطول قادر على القيام بذلك في البحر المتوسط. بجانب أن وضع الإسكندرية كمدينة بحرية كان يجعلها سهلى الاتصال بالقسطنطينية مما كان يسهل عملية تقديم الإمدادات بالرجال والعتاد حتى تستطيع الصمود في وجه العرب. وقد أدرك البيزنطيون أن الإسكندرية - وليس حصن بابلون - هي مفتاح مصر الحقيقي فحشدوا فيها قواهم ، بل لقد استعد الإمبراطور هرقل نفسه للخروج للدفاع عنها لكن الموت كان سباقا إليه². وهكذا طال حصار المسلمين لها لكن الأمور سارت في النهاية في صالح عمرو ورفاقه لاضطراب الأمور في الإمبراطورية بعد موت هرقل وانقسام الجيش البيزنطي في مصر على نفسه ورغبة المقوقس³.

ويذكر حنا النقيوسي⁴ أن المقوقس لم يكن هو الذي يرغب في السلام وحده وإنما يرغب فيه أيضاً السكان والحكام ، ولذا اجتمعوا واتفقوا معه على إنهاء الحرب وعقد صلح مع المسلمين. وقد عد أحد المؤرخين المحدثين سعى المقوقس للصلح مع عمرو بن العاص خيانة لقومه ودينه ، وبرر هذا السعى من قبل المقوقس بأنه ربما ظن أن المسلمين سيساعدونه

(1) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص 68.

(2) سعيد عاشور ، مصر في العصور الوسطى ، ص 28.

(3) سيدة الكاشف ، مصر في فجر الإسلام ، ص 13.

(4) انظر:

John of Nikiu, Chronicle, p.201.

في بسط سيادته على الكنيسة القبطية بعيداً عن سطوة الكنيسة الأم في القسطنطينية¹.

وقد حدثت مفاوضات بين عمرو بن العاص والمقوقس لعدة أيام انتهت بعقد صلح كانت معظم شروطه تتعلق بالإسكندرية ، وكان أهم هذه الشروط التي أوردها يوحنا النقيوسي²:

- 1- أن يدفع الجزية كل من دخل في العقد.
 - 2- أن العقد هدنة بين الطرفين لمدة أحد عشر شهراً.
 - 3- أن يبقى العرب في مواضعهم وقت الهدنة ولا يسعوا لقتل الروم ، وبالمقابل يكف الروم عن القتال.
 - 4- ألا يعود الروم إلى مصر أو يسعوا لردّها.
 - 5- ألا يستولى المسلمون على كنائس المسيحيين وألا يتدخلوا في شئونهم.
 - 6- أن يبعث الروم مائة وخمسين من جنودهم وخمسين من غير الجند ضماناً لإنفاذ العقد.
 - 7- جلاء حامية الروم عن الإسكندرية حاملين أمتعتهم وأموالهم.
- وبعد هذه الخطوة واصل عمرو بسط سيطرته على باقى أجزاء مصر ، بحيث لم تنته سنة 25هـ/645 م حتى كانت مصر بأكملها في أيدي المسلمين. وبوجه عام تبدو لنا خطوات فتح مصر وموقف المقاومة الرسمية متغيراً بين القتال والصلح ، ولم يكن أمراً سهلاً يدل على ذلك أن عمليات الفتح استغرقت قرابة السبع سنوات حتى تمت السيطرة الإسلامية على مصر بأكملها.

(1) بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص334.

(2) انظر:

John of Nikiu, Chronicle, p.202.

من ناحية أخرى لم يغفل عمرو بن العاص أمر المناطق الداخلية بمصر أثناء انشغاله بحصار بابليون والإسكندرية ، فأتى حصار حصن بابليون وقبل وصول الإمدادات التي طلبها عمرو من الخليفة فكر عمرو في غزو إقليم الفيوم في صيف عام 19هـ/640م وتقدم بجنده حتى وصل إلى مدينة البهنسا (وهي غير مدينة البهنسا التي تقع اليوم في محافظة المنيا) وناوش القوات البيزنطية المرابطة عند مدينة اللاهون الواقعة على بحر يوسف لكنه لم يحقق انتصاراً حاسماً¹.

وقد أشار وحنا النقيوسي² إلى أن المسلمين ارتكبوا مذبة في مدينة البهنسا ، وأيده في ذلك بعض المؤرخين المحدثين³، وبعدين عن تعصب يوحنا ضد المسلمين وهو الأمر الذي وضح في رصده لأحداث فتح مصر ، فإن هذه المذبحة أمر مستبعد من الجيوش الإسلامية التي لم يعرف عنها هذا الأمر خاصة في بداية عصر الفتوحات الإسلامية ، وكذلك تحت راية الخليفة عمر بن الخطاب الذي اشتهر بحزمه وعدله.

أما عن المقاومة الشعبية فتذكر المصادر الإسلامية أن أقباط مصر ساعدوا عمرو بن العاص وصحبوه في زحفه على الإسكندرية " فخرج معه جماعة من رؤساء القبط وقد أصلحوا لهم الطرق وأقاموا لهم الجسور والأسواق . وصارت لهم القبط أعواناً على ما أرادوا من قتال السروم"⁴. وربما كان ذلك راجعاً لسياسة عمرو بن العاص المتسامحة مع المسيحيين فعندما سمع عمرو بقصة البطريق بنيامين الذي فر من وجه المقوقس واختفى سنوات طويلة في الصعيد ، ولما كان الموضع الذي اختفى فيه

(1) سعيد عاشور ، مصر في العصور الوسطى ، ص28.

(2) انظر:

John of Nikiu , Chronicle , p.203.

(3) انظر: بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص336.

(4) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص66.

بنيامين غير معروف تحديداً فقد كتب عمرو إلى جميع أقاليم مصر كتاباً يؤمنه فيه ، فعاد بنيامين بعد غيبة طويلة إلى كرسيه بالإسكندرية ومعه عدد كبير ممن كانوا معه فراراً من اضطهاد البيزنطيين¹.

وقد فرح أهل مصر لعودة الأب بنيامين ، وأمر عمرو بإحضاره إليه معزراً مكرماً ، فلما مثل بين يديه بالغ في حفاوته وأعطاه الحرية ليشرف على الكنائس ويرعى حال الأقباط. وكان من نتائج عودة بنيامين أن عاد معه كثير من المصريين الذين فروا من اضطهاد هرقل². وذكر المقرئ³ أنه كان بوادي النطرون مائة دير للنصارى وأنه خرج منه سبعون ألف راهب والتقوا بعمرو بن العاص بالقرب من الإسكندرية وسألوه الأمان لهم فكتب لهم بذلك أماناً بقى عندهم.

وحتى إذا لم يقدم كل المصريين المساعدة للفاحين المسلمين ، فإنهم على الأقل لم يكونوا متعاطفين مع الجيش البيزنطي في قتاله مع المسلمين ، بل وأعتبر بعضهم أن انتصار العرب عليهم واستيلائهم على الممتلكات البيزنطية عقاب إلهي ضدهم ، ففي الحوليات التي كتبها الأسقف المصري حنا النقيوسي يذكر أن ما حل بالبيزنطيين على يد المسلمين كان عقاباً إلهياً ، وأن نجاحهم في فتح مصر والاستيلاء على حصن بابلون هو عقاب لقيرس والبيزنطيين على محاولاتهم نشر هرطقة مجمع خلقدونية الخاص بوجود طبيعتين للمسيح ومحاولة إجبار المصريين على اعتناق هذا المذهب⁴.

(1) ساويرس بن المقفع ، سير الآباء البطارقة ، ج 1 ، ص 233.

(2) سيده الكاشف ، مصر في فجر الإسلام ، ص 168.

(3) الخطط ، ج 1 ، ص 186.

(4) انظر :

John of Nikiu , *Chronicle* , p.186 ; Kaegi , W., " Initial Byzantine reactions to the Arab conquest " , *Church History* , 38 (1969), p.148.

لكن ذلك لم يكن يعني أن الأمور كانت مواتية للمسلمين وأنه لم تكن توجد أية مقاومة شعبية من المصريين لعمليات الفتح ، فقد كانت هناك بعض المقاومة الشعبية ، حيث قاومت بعض القرى المصرية جيش المسلمين ، مثل طوخ ودمياط وأشمون وتيس وغيرها. فسباهم عمرو وأرسلهم للمدينة ، لكن عمر أعادهم وأعتبرهم أهل ذمة¹. ولكن يظهر أن أغلب مؤرخي المسلمين لم يرضوا أن يذكروا هذه المقاومة إلا تلميحاً ، حتى لا يظهر المصريون بمظهر المقاوم للمسلمين ؛ وذلك لأن مصر فيما بعد ستتحول إلى الإسلام ، وتحتل مركز الزعامة فيه².

ورأى عمرو بن العاص بعد فتح الإسكندرية أن تأمين هذا الفتح والوجود الإسلامي في مصر لن يتم دون حماية حدود مصر الغربية ، فقرر التوجه غرباً وفتح إقليم برقة (انطابولس) عام 22هـ/653م. وقد أدرك عمرو بفطنته أن الروم سوف يعودون يوماً لاسترداد مصر من الناحية الغربية ، وبعد أن وصلت الإمدادات لعمرو تحرك غرباً وقام بفتحها بسهولة³. ثم قام بعدها بالتحرك صوب مدينة طرابلس ، وكانت حصونها قوية وبها حامية بيزنطية كبيرة فأقفلت أبوابها في وجه عمرو الذي اضطر لحصار المدينة حتى اضطرت حاميتها للفرار عبر البحر وسقطت المدينة في أيدي المسلمين⁴.

(1) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص 138.

(2) ماجد ، التاريخ السياسي ، ص 220.

(3) سيدة الكاشف ، مصر في فجر الإسلام ، ص 14.

(4) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص 71 ؛ حسن إبراهيم حسن ، تاريخ عمرو بن

العاص ، ص 185.

وقد فكر عمرو بعد فتح طرابلس في غزو بلاد المغرب كلها ، إلا أن الخليفة عمر بن الخطاب نهاه عن ذلك ، ربما لتخوفه من تفرق المسلمين في بلاد كثيرة ولم تثبت أقدامهم فيما بعد¹.

ولم يكتف عمرو بن العاص بتأمين حدود مصر الغربية فقط ، بل دفعه الحرص أيضاً على حماية حدود مصر الجنوبية ، فقد كانت النوبة مثار قلق لأي حاكم يحكم مصر فأرسل عبد الله بن سعد بن أبي سرح على رأس حملة في النوبة عام 20هـ/640م ، وقد فوجئ عبد الله بإستراتيجية النوبيين في مقاومته عن طريق استخدام الهجوم بالنبال ، فواجه المسلمون حرباً لم يشهدوها من قبل مما جعل عمرو بن العاص يطلب منه الرجوع بعد هذا الإخفاق².

وقد عاد عبد الله بن سعد إلى النوبة مرة ثانية عام 31هـ/651م أثناء ولايته على مصر من قبل الخليفة عثمان بن عفان ، ووصلت حملته حتى دنقلة وبعد صراع عنيف انتهى الأمر بعقد هدنة بين الطرفين عرفت بهدنة البقط ، كانت أشبه بمعاهدة سياسية وتجارية بين مصر ومملكة النوبة المسيحية ونصت على ألا يعتدى أحد الطرفين على الآخر ، وأن تؤدي النوبة إلى مصر عدداً معيناً من الرقيق كل عام مقابل أن تؤدي مصر لها قدرأ معيناً من القمح والعسل وغيره من منتجات مصر كل سنة أيضاً³.

وينبغي ملاحظة أن فتح مصر النهائي واستخلاصها من أيدي البيزنطيين لم يتم إلي في عام 25هـ/645م ، إذ عاود الروم الهجوم على الإسكندرية في الإمبراطور قنسطانز الثاني الذي أرسل أسطولاً كبيراً لطرد العرب من مصر. وقد تم استيلاء الجيش البيزنطي على الإسكندرية وزحف

(1) سيدة الكاشف ، مصر في فجر الإسلام ، ص14.

(2) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص88.

(3) سيدة الكاشف ، المرجع السابق ، ص15.

من بعدها جنوباً ، وتخرج موقف العرب في مصر وكان الوالى فى هذا الوقت هو عبد الله بن سعد فطلب المصريون النجدة من الخليفة عثمان بن عفان وتحديدأ رجلهم عمرو بن العاص صاحب الخبرة فى قتال البيزنطيين ونجح الأخير بالفعل فى الاستيلاء على الإسكندرية وقتل قائد البيزنطيين¹.

هريق مكتبة الإسكندرية:

وقد اتهم البعض العرب باطلاً أثناء فتحهم للإسكندرية بأنهم أحرقوا مكتبتها الضخمة التى أنشأها ملوك البطالمة. واستدلوا على ذلك بما ورد فى بعض المصادر التاريخية مثل ابن العبري² وهو أمر غير صحيح ولو حدث لذكره يوحنا النقيوسى المعاصر للأحداث والمعروف بتعامله على الفتح الإسلامى. ويظهر أن هذه القصة لم تظهر إلا أخيراً ؛ ولعل البيزنطيين هم الذين بدأوا بتبديد ما فى المكتبة ، خصوصاً وأن من شروط الصلح أن يخرج الروم بكل ما يستطيعون من مال ومتاع³. ومن المعروف أن المكتبة لم تكن موجودة عند فتح المسلمين لمصر ، حيث احترقت حينما جاء يوليوس قيصر Cesar إلى مصر لمطاردة غريمه بومبى Pompeius عام 48 ق.م⁴. فأثناء حصار المصريين لقيصر أحرقت بعض السفن فى ميناء الإسكندرية لقطع خط الرجعة على قيصر فامتدت النيران إلى المكتبة فأنت عليها⁵.

(1) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج 3 ، ص 62.

(2) مختصر تاريخ الدول ، تحقيق انطون صالحانى ، بيروت 1890 ، ص 176.

(3) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص 222.

(4) جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ت. عادل زعيتر ، ص 208.

(5) بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص 303-307.

بناء مدينة الفسطاط:

في سنة 21 هـ أسس عمرو بن العاص مدينة الفسطاط كعاصمة أولى لمصر الإسلامية بعد أن رفض الخليفة عمر بن الخطاب أن تكون الإسكندرية عاصمة للبلاد ، وذلك راجع لأسباب من بينها أن مدينة الإسكندرية مدينة قديمة ، كانت مركزاً للحضارة الوثنية (اليونانية - الرومانية) ، وهذه في حد ذاته يمثل كراهية شديدة للمصريين لما لاقوه من ظلم واضطهاد من قبل هاتين الدولتين¹.

كما أن مدينة الإسكندرية تبعد كثيراً عن الجزيرة العربية مقر الخلافة الإسلامية . وفي موقع بعيد حتى للإقليم المصري نفسه، هذا بالإضافة إلى وجود موانع تمثلت في فرعي النيل ومواجهة مدينة الإسكندرية للبحر الأبيض مما يجعلها عرضة سهلة للغزو².

واستحسن موقع مدينة الفسطاط كعاصمة للإقليم المصري لعدة أسباب ، من بينها سهولة الاتصال بالجزيرة العربية ، وتوسطها للإقليم المصري شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً ، كما أن موقعها يتوفر فيه حمايات طبيعية ، من بينها وجود جبل المقطم إلى الشرق منها ، ووجود نهر النيل إلى الغرب منها ، والصحراء إلى الشمال منها ، مما يساعد على التوسع كلما نمت المدينة³.

(¹) أيمن فؤاد سيد التطور العمراني لمدينة القاهرة منذ نشأتها وحتى الآن، الجزء الأول، الدار المصرية اللبنانية للقاهرة ، 157.

(²) مجموعة من علماء الحملة الفرنسية: موسوعة وصف مصر، طبعة مكتبة الأسرة، القاهرة 2002م، الطبعة الأولى، الجزء الثاني عشر، ص 73.

(³) المقرئزي ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، الجزء الثالث ، ص 404.

وقد حاول الكثيرون البحث عن أصل كلمة الفسطاط التي سميت بها عاصمة مصر الأولى ، فقليل أنها كلمة يونانية مأخوذة عن فسطاطوم ، وتعني المدينة المحصنة ، باعتبار أنها كانت مجاورة لحصون بابلين ، وقيل أن الفسطاط تعني الخيمة التي ضربها عمرو بن العاص بالقرب من حصن بابلين وورد بالمعاجم العربية أن كلمة الفسطاط كلمة عربية تعني البيت المقام من الشعر وكان عمرو بن العاص قد ضرب خيمة في هذا الموقع وتركها كمؤخرة للجيش الإسلامي عند ذهابه لفتح الإسكندرية ¹ .

هذا وتناول الكتابة عن مدينة الفسطاط مؤرخون قدماء ومحدثون أمثال: ابن عبد الحكم، وابن دقماق ، والقلقشندي، وابن إياس، ومن المحدثين علي باشا مبارك ، وعلي بهجت جبرائيل ، فريد شافعي ، وعبد الرحمن زكي ، وسعاد ماهر ، وعلي الخربوطي.

مظاهر التحضر في الفسطاط

كانت الفسطاط عاصمة مكتفيه دائما تسد حاجيات سكانها في كل شيء، فكان بها مصانع للخزف والتسيج والزجاج ودور سك العملة كما كان بها قمارن لحرق اللبن لصناعة الطوب وأسواق للطعام والأشربة وكافة ما يحتاجه الإنسان ² .

ودلت الحفائر الأثرية التي قام بها علي بهجت وجبرائيل في الفترة ما بين سنة 1911-1913 علي الخروج بمادة أثرية لها أهميتها في التعرف علي تنوحي الغفران في هذه المدينة، فقد اكتشفت فيها العديد من الدور السكنية وغير السكنية وتبين من

(¹) حسني محمد تويصر ، الآثار الإسلامية، مكتبة زهراء الشرق ، القاهرة ،

1998م، ص 103

(²) سعاد حسن ، العمارة الإسلامية المبكرة ص 49 .

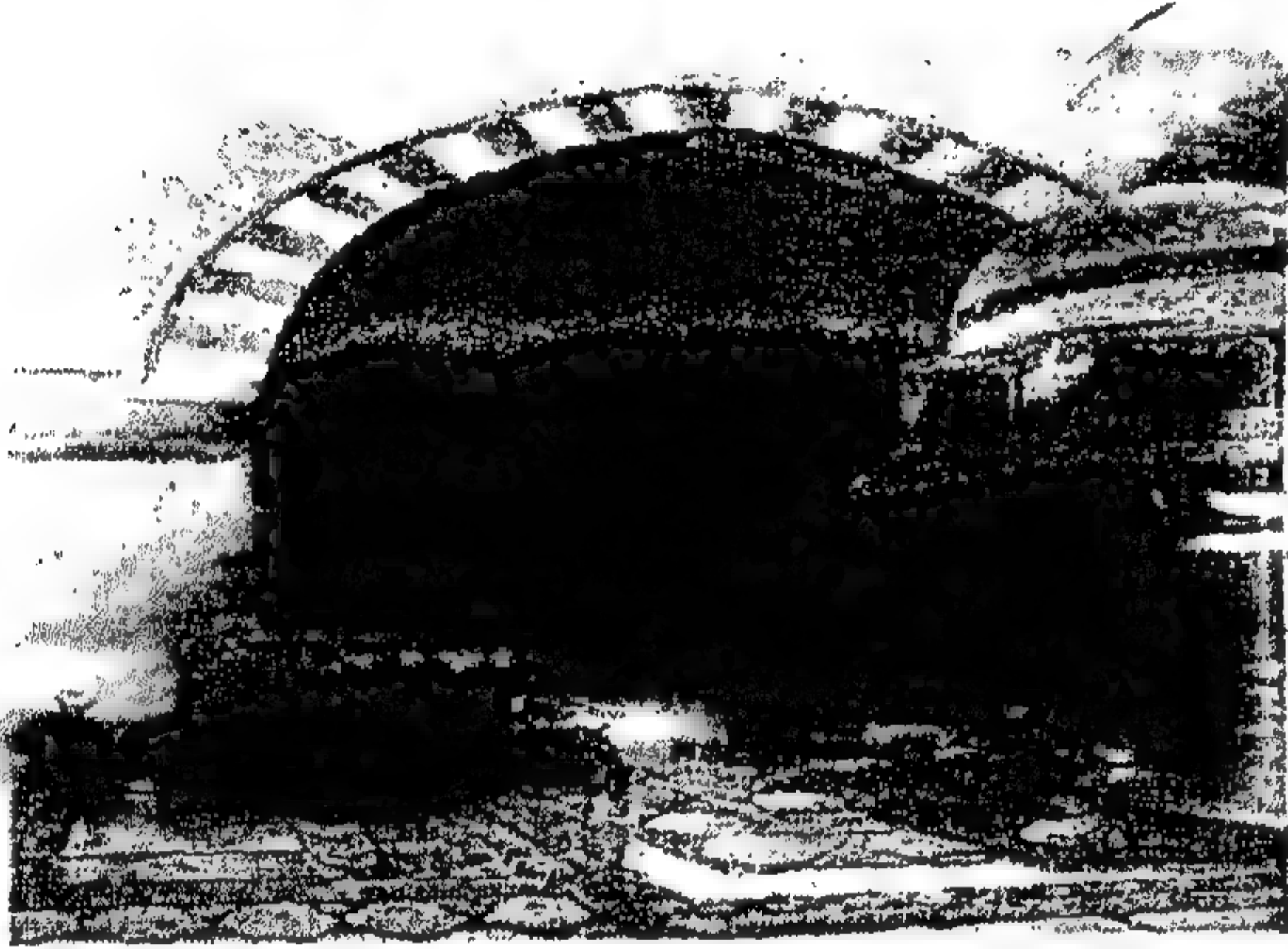
تخطيطها أنها كانت ملائمة لطبيعة المسلمين في سكنائهم؛ فالدار تتكون من وحدة للاستقبال عبارة عن فناء مربع أو مستطيل مسقوف أو مكشوف سماوي يفتح عليه عدد من الإيوانات أثنان أو ثلاثة أو أربعة بحسب إمكانية المنشيء والمساحة المتاحة، وكانت الطوابق العليا مخصصة للنوم أو للحريم بينما كانت الإيوانات الأرضية وغيرها معده للمعيشة وزودت هذه الدور بدورات مياه بها مياه جارية تجري في أقصاب من الفخار مغمية في الجدران، كما زينت البيوت بمجارير لتخزين المخلفات الأمية لمدد طويلة ثم نزعها عند الامتلاء، واشتملت بعض البيوت على نافورات للتلطيف درجة حرارة الجو صيفاً، كما كانت بعض الدور تشتمل على مقاعد لاستقبال الضيوف من الرجال وتميزت هذه البيوت بأن مداخلها من النوع المنكسر؛ لا يستطيع من بالخارج مشاهدة من بالداخل وكان على واجهات البيوت مشربيات من الخشب تحجب من بالداخل وتساعد على تهوية المنزل وبنيت أساسيات بيوت القسطنطين من مادة الحجر بينما بنيت جدرانها من الأجر، ولما كانت هذه المبادة لا تعطي منظراً جميلاً كسيت هذه الجدران بأكثر من طريقة من بينها استخدام الجص القالبى أو الألوان المائية، كما اشتملت الواجهات على أشربة من الكتابات القرآنية وكان بالمدينة أسواق متخصصة تتعامل في كل المنتجات المتنوعة أو للمتاجرة في كافة أنواع السلع.

تدهير القسطنطين:

هذا وتعرضت القسطنطين للخراب والتدمير أكثر من مرة كالت أولها في آخر العصر الأموي على يد مروان بن محمد المعروف بالحمير، ثم من العباسيين الذين تعقبوا قتل الأمويين وكان من نتيجة هذا

التخريب المتعمد أن خلا الجزء الشمالي من المعمار¹ ، ثم كان الخراب الأكبر علي يد شاور الذي أضرم عشرين ألف قارورة نبط فيها جعلتها أثراً بعد عين .

وكان من الطبيعي أن أول ما فكر فيه عمرو بن العاص في بناء مدينته الجديدة هو إقامة مسجد جامع ، فوضع أساس الجامع الذي ظل يحمل اسمه إلي الآن ، وهو أول جامع شهدته أرض مصر في عصرها الجديد².



(¹) المقرئزي ، الخطط والآثار ، ص 403.

(2) سعيد عاشور ، مصر في العصور الوسطى ، ص 40.

الفصل الثاني



المقالة الأولى السلطنة

الدولة الطولونية:-

قبل الخوض في إصلاحات ومشروعات أحمد بن طولون في مصر، يجب أن نلقى نظرة سريعة على أحوال الخلافة العباسية في القرن الثالث الهجري ، والتي كانت سبباً رئيسياً في محاولة أحمد بن طولون الاستقلال بمصر ، حيث كانت تجرى الأمور بما تُملّحها روح السلب وروح الاغتنام ، من ظفر غلب ، ومن احتال كسب ، ليس ثمة نظام وليس ثمة حكم يُرعى .

الخلافة العباسية بين ضعف الخلفاء وتسلب الأتراك :

حدث تطور كبير في السياسة العامة للخلافة العباسية في بداية القرن الثالث الهجري ، حيث أن النزاعات الدائمة بين العرب والفرس أدت إلى تخلي الخلفاء عنهما جميعاً في الوظائف الإدارية والجيش ، وعهدت بها إلى عنصر جديد بدأ يظهر على ساحة الأحداث في تلك الفترة ، ألا وهو العنصر التركي .

وإذا أردنا أن نعرف أصل هؤلاء الأتراك ، نجد أن الرواه والإخباريين استعملوا اصطلاح (ترك) ليشمل سكان الأقاليم الشرقية خارج حدود الدولة الساسانية التي قضى عليها العرب ، وشمل هذا الاصطلاح الترك وغيرهم من الشعوب الأخرى ، ثم جاء المؤرخون الأوائل في العصر العباسي فاختلفوا في موقفهم من هؤلاء الترك ، فذهب نفر منهم إلى اعتبارهم برابرة وأعاجم ، بينما أطلق البعض الآخر على كل الذين استقدمتهم الخلافة العباسية من الشرق بالخراسانية (1) .

(1) فاروق عمر فوزي ، التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين ، بيروت 1980 ، ص

ويعد أول من أدخل الأتراك في الحياة السياسية بشكل تام هو الخليفة المعتصم ⁽¹⁾ لكنه لم يكن الأول في ذلك حيث سبقه الخليفة المأمون ⁽²⁾ ، وقام المعتصم بجلب جموع من الأتراك من بلاد ما وراء النهر ، لكي يعملوا في الجيش وإدارة الولايات التابعة له ، ومن أشهر هؤلاء الأتراك أشناس الذي ولاه المعتصم مصر سنة 219 هـ ⁽³⁾ ، بيد أنه لم يكن للأتراك ما كان للفرس من حضارة عريقة أصيلة ، حيث كانت حضارتهم في الأصل حضارة بدوية بدائية ⁽⁴⁾ .

وربما الذي دفع المعتصم إلى أن يخطوا مثل هذه الخطوة كون أمه ماردة تركية ، مما أدى إلى تعرفه عليهم بشكل كبير ، إلا أن المرجح هو أن الذي دفعه إلى هذه السياسة ، هو اختلال التوازن بين عناصر الدولة العباسية من الخراسانيين والعرب ، فبعد انتقال الخليفة المأمون من مرو ، وبعد نكبة بنى سهل ، ظهرت استحالة التوفيق بين آمال

(1) المعتصم : هو محمد بن هارون الرشيد ويكنى أبا إسحاق وأمه ماردة ، يقال له الثماني ؛ حيث ولد في الشهر الثامن من سنة 178 هـ ، وهو ثامن الخلفاء ، وفتح ثمانية فتوح ، وكان له ثمانية بنين وثمان بنات ، مات وعمره ثمانية وأربعين سنة ، وخلفه ثمانى سنين وثمانية أشهر ويومين ، للمزيد أنظر : البغدادي ، تاريخ مدينة السلام ، تحقيق : بشار عواد معروف ، بيروت 2001 ، ص 548.

(2) المأمون : هو عبد الله بن هارون الرشيد ، بويح عام 198 هـ ، وكان شهياً ، بعيد الهمة ، أبي النفس ، وكان نجم ولد العباس في الحكمة والعلم ، وكانت أمه خراسانية تسمى مراجل ، للمزيد أنظر : الدينوري ، الأخبار الطوال ، تحقيق : عبد المنعم عامر ، بغداد 1959 ، ص 400.

(3) الأزدي ، أخبار الدول المنقطعة ، تحقيق : علي حبيبة ، القاهرة 1967 ، ص 416.

(4) نادية حسن صقر ، مطلع العصر العباسي الثاني ، جدة 1983 ، ص 12.

الخراسانيين وبين مصالح العباسيين ، فالتجأ المعتصم إلى هذا الغنصر الذي يثق به ليجعل منه الركن العسكري للدولة (1) .

وقد ساعدت تلك السياسة على تقوية حركة نشر الإسلام في المناطق المتاخمة لإقليم ما وراء النهر ، حيث كان الخليفة المعتصم ومن قبله المأمون يرسلان إلى تلك النواحي رسلهم تعرض للإسلام على قادة الترك وعلى أبناء ملوكهم كما كانت تعرض عليهم الدخول في الجندية والنزوح إلى أرض الإسلام ، فدخل في الإسلام وقتئذ خلق كثير ، ولكن يجب أن نشير إلى أن الدافع لتلك السياسة لم يكن بأي حال من الأحوال لنشر الإسلام ، وإنما كان الدافع الحقيقي أكتساب الترك ، حيث كان أكتساب قلوبهم أجدي من اتخاذ الحصون وشحنها بالحاميات العسكرية (2) .

لذا تزايدت أعداد الأتراك في عهد المعتصم حتى قيل أنه كان يجمع الغلمان الأتراك قبل أن يصبح خليفة ، وعندما اعتلى كرسى الخلافة تزايدت أعدادهم إلى درجة أن وصلوا إلى سبعين ألف تركي ، ونستشف ذلك من قول أحد الشعراء قائلاً :

أمامي من له سبعون ألفاً . . . من الأتراك مسرعة السهام (3)

وبذلك أستغنى المعتصم عن جيوش العرب ، حتى أنه أسقطهم من الدواوين ، وتعاضم دور الأتراك الفراغنة والأشروسية ، ولكنهم أثاروا له العديد من المشاكل في العاصمة بغداد ، لذلك قرر أن يتخلى عن هذه المدينة العريقة ، ويبني لجنوده مدينة جديدة تستوعب السياسة الجديدة ،

(1) عبد العزيز الدوري ، العصر العباسي الأول ، بيروت 1997 ، ص 177 ؛ محمد

عبده ، الإسلام والنصرانية مع العلم والمعرفة ، القاهرة 1966 ، ص 112 .

(2) السيد عبد العزيز سالم ، العصر العباسي الأول ، الجزء الثالث ، الإسكندرية

1993 ، ص 210 .

(3) الأربلي ، خلاصة الذهب المسبوك ، القدس 1885 ، ص 162 .

ألا وهي مدينة سامراء (سر من رأى) التي أسسها سنة 221 هـ على الجانب الشرقي من نهر دجلة (1) .

ولكن هذه العناصر التركية أخذت تتحكم في زمام الأمور بعد الخليفة المعتصم ، حيث أن الخليفة الواثق (2) لم يكن بنفس حزم سلفه من الخلفاء ، مما أدى إلى استغلال الأتراك الفرصة واستولوا على أكبر المناصب وصار منهم أكثر الولاة والعمال (3) ، وأصبح أشناس هو المدير الأول والأخير للدولة ، وتلقب بلقب سلطان ، وبدأنا نسمع عن الخلفاء النواذب التي تثير الحزن من ربضته ، وتبعث الوجد من رقده ، بصوت كترجيع الطير ، وتقطع أنفاس المآتم ، وتترك صدعاً في القلوب الجلامد (4) .

وعندما جاء الخليفة المتوكل (5) ، حاول أن يتخلص من هؤلاء الأتراك ، فرأى أن يحدث انقلاباً سياسياً فيتحول من سياسة الاعتماد على

(1) محمد نصر مهنا ، الفتوحات الإسلامية والعلاقات السياسية في آسيا ، الإسكندرية 1990 ، ص 170 ؛ قصي حسين من معالم الحضارة العربية الإسلامية ، بيروت 1993 ، ص 19.

(2) الواثق : هو أبو جعفر هارون الواثق بالله ابن المعتصم ، ولد في شهر شعبان سنة 196 هـ ، تولى الخلافة صبيحة اليوم الذي توفي فيه أبوه سنة 228 هـ ، وكان أبيض إلى الصفرة ، حسن الوجه جسيماً ، توفي بسامراء سنة 232 هـ بسبب مرض الاستسقاء ، للمزيد أنظر : أين عبد ربه ، العقد الفريد ، الجزء الخامس ، تحقيق : مفيد محمد ، بيروت 1983 ، ص 378.

(3) عصام الدين عبد الرؤوف ، دراسات في تاريخ الدولة العباسية ، القاهرة 2001 ، ص 194 ؛ عبد الرحمن زكي ، القاهرة ، القاهرة 1966 ، ص 6 ؛ محمود شاكر ، التاريخ الإسلامي ، الجزء الخامس ، بيروت 1991 ، ص 49.

(4) صقر ، العصر العباسي الثاني ، ص 59.

(5) المتوكل : هو أبو الفضل جعفر بن المعتصم ، تولى الخلافة سنة 232 هـ ، وقتله ابنه المنتصر سنة 247 هـ لانه بايع اخاه المعتز من دونه ، وكان أسير نحيفاً ، مليح

الأتراك إلى الاعتماد على العنصر العربي ، فأنشأ فرقة عسكرية عربية وضم إليها المرتزقة والمتطوعة ، ثم رحل إلى دمشق العاصمة الأموية القديمة لتكون مقراً لخلافته ، ولكنه فشل في محاولة الانقلاب لعدة أسباب منها أن الأتراك دبّروا مؤامرة لاغتياله ، أضف إلى ذلك أن العنصر العربي أصبح ضعيفاً بحيث لا يمكن الاعتماد عليه ⁽¹⁾ ، كما أن الأتراك ثاروا عليه لنقل عاصمته ، وأجبروه على العودة إلى سامراء ، فرجع متحججاً بحجة أن هواء دمشق لم يعجبه ⁽²⁾ .

ومن هؤلاء القواد الأتراك الذين برزوا في عهد المتوكل إيتاخ ، ولكن المتوكل لم يكن يطيق خضوعه له ، ورأى التخلص منه ، فأمره بالتوجه إلى بغداد ، وهناك قبض عليه وسجنه ، وكان طعامه رغيفاً واحداً من الخبز وقدحاً من الماء ، فلم يتحمل إيتاخ ذلك فمات وأنطلق بعيداً بغير زاد ، إلى ملك عدل بغير حجة ، ودخل قبراً موحشاً بغير مؤنس ⁽³⁾ .

وبسبب محبة المتوكل لزوجته قبيحة ⁽⁴⁾ رأى أن يقدم ابنه المعتز منها على أخويه المؤيد والمنتصر ، فلم يرضى بذلك المنتصر ، ودبر مؤامرة مع الأتراك لاغتيال أبيه . ونجحت المؤامرة لأن الأتراك أوجسوا

العينين ، وهو الذي أحيا السنة وأما التهجيم ، وكانت به عيوب فادحة ، منها الأنهماك على الملذات والتبذير ، للمزيد أنظر : الذهبي ، العبر في خبر من غير ، الجزء الأول ، تحقيق : أبو هاجر محمد السعيد ، بيروت 1987 ، ص 353 .

(1) صقر ، العصر العباسي الثاني ، ص 13 .

(2) إبراهيم أيوب ، التاريخ العباسي السياسي والحضاري ، بيروت 1989 ، ص 105 .

(3) صقر ، العصر العباسي الثاني ، ص 65 .

(4) قبيحة : هي جارية الخليفة المتوكل ، وأم ولده المعتز ، وكان المتوكل سماها قبيحة لفرط حسننها وجمالها وقدها واعتدالها ، ويشير البعض أنها سميت بهذا الاسم لأنها رفضت أن تعطى أبناً الأموال عندما عجز عن دفع المرتبات للجند الترك ، مما أدى إلى أن قتلوه ، فسميت بقبيحة ، للمزيد أنظر : خليل بدوي ، موسوعة شهيرات النساء ، الأردن 1998 ، ص 202 .

خيفة من نوايا المتوكل تجاههم ، والتفوا حول بغا الصغير وباغر التركي ، ونفذوا جميعاً ما اتفقوا عليه مع المنتصر فقتلوا المتوكل في سنة 247 هـ (1) ، ويذكر ابن طباطبا : " واستولى الأتراك منذ مقتل المتوكل على الخلافة ، فكان الخليفة في أيديهم كالأسير أن شاءوا أبقوه ، وأن شاءوا خلعوه ، وأن شاءوا قتلوه " (2) .

وما أن نجحت مؤامرة قتل المتوكل التي لبرها الأتراك بالإشتراك مع ابنه محمد المنتصر حتى بويع بالخلافة في سنة 247 هـ ، ويبدو أنه ندم على تعاطفه مع الأتراك ضد أبيه ، وتكفيراً لفعله تلك أخذ يسبهم ، ويردد قائلًا : " هؤلاء قتلة الخلفاء " ، وثاراً لأبيه أقدم على قتل الفتح بن خاقان بحجة أنه قتل المتوكل (3) ، ولكن لم تطل حياة المنتصر لينعم أو ليشقى حيث قتل سنة 248 هـ .

وقال أحد الشعراء يصف تلك الحالة :

خليفة مات ، لم يحزن له أحد . . . وآخر قام ، لم يفرح به أحد
فمر ذاك ومر الشؤم يتبعه . . . وقام ذا فقام النحس والنكد (4)
وفي ظل هذه الظروف السيئة التي كانت تمر بها الدولة العباسية ظهر أحمد بن طولون على سطح الأحداث الدولية آنذاك ، والذي قدر له أن يلعب دوراً هاماً وخطيراً في مجريات الحياة السياسية في الخلافة العباسية .

(1) أيوب ، التاريخ العباسي ، ص 107 ، أحمد شلبي ، موسوعة التاريخ الإسلامي ، الجزء الثالث ، القاهرة 1984 ، ص 195 .

(2) الفخري في الآداب السلطانية ، تحقيق : محمد عوض إبراهيم ، بيروت 1966 ، ص 220 .

(3) أيوب ، التاريخ العباسي ، ص 107 .

(4) أحمد علي ، ثورة الزنج وفاندها علي بن محمد ، بيروت 2001 ، ص 60 .

ابتداء حال أحمد بن طولون :

أجمع الباحثون على أن أحمد بن طولون تركي مستعرب ولد سنة 220 هـ في بغداد ⁽¹⁾ ، ولكن ابن خلكان يذكر أنه ولد في سامراء ، وهذا يشير إلى خلط في المواقيت والأماكن عند ابن خلكان ، حيث أن مدينة سامراء بُنيت سنة 221 هـ ، أي بعد ميلاده بعام ⁽²⁾ .

وكان أبوه طولون تركياً من قبيلة تسمى الطغزغز ، حملة نوح بن أسد الساماني ⁽³⁾ حاكم سمرقند ⁽⁴⁾ إلى الخليفة المأمون سنة 200 هـ — ضمن جملة الرقيق والجزية التي كان يرسلها سنوياً للخلافة ، ولما كان طولون مستوفياً لكل ما يلزم رجل الإدارة من عقل وذكاء وكياسة ، فإنه شغل مناصب رفيعة في بغداد وسامراء ⁽⁵⁾ ، ثم تزوج من هاشم — أو قاسم

(1) خير الدين الزركلي ، الأعلام ، بيروت ، 1980 ، ص 140 ؛ بسام عبد الوهاب الجابى ، معجم الأعلام ، دمشق 1986 ، ص 44 ؛

Bernard Lewis, The Arabs in history, New York 1950, p. 96.

(2) ابن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، الجزء الأول ، تحقيق : إحسان عباس ، بيروت 1968 ، ص 174 .

(3) نوح بن أسد الساماني : ينتسب إلى أسرة فارسية عريقة في المجد يرجع أصلها إلى بهرام جوبين ، وأسلم جده سامان على يد أسد بن عبد الله القسرى وإلى خراسان ، فسمى ابنه أسد تبركاً به ، ثم ظهر أولاد أسد بن سامان في عهد الخليفة المأمون ، فولى نوح سمرقند سنة 204 هـ وبقي حاكمها إلى أن توفي سنة 228 هـ ، للمزيد أنظر : بدر عبد الرحمن محمد ، الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في العراق والمشرق الإسلامي ، القاهرة 1989 ، ص 115 .

(4) سمرقند : تقع على بعد مائة وخمسين ميلاً شرقي بخارى ، للمزيد أنظر : لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة : بشير فرنسيس ، بغداد 1954 ، ص 506 .

(5) أحمد السعيد سليمان ، تاريخ الدول الإسلامية ، القاهرة 1969 ، ص 128 ؛ بكر محمد إبراهيم ، الدولة العباسية ، القاهرة 2002 ، ص 222 .

- التي أنجب منها أحمد ، ويذهب البعض إلى أنه تبناه (1) ، وأنه كان ابن يلبخ التركي - أو مليح التركي - ولكن هذا الرأي خاطئ ، حيث أن الموفق لما لعنه نسبه إلى طولون ولم ينسبه إلى يلبخ ، كما أن يلبخ كان شاعراً يتغنى بالشعر التركي ، وكان مضحاك يسخر منه ، وطولون معروف بالستر (2) .

نشأ أحمد بن طولون نشوئاً جميلاً غير نشوء بقية الأتراك ، حيث كان بعيد الهمة ، وحسن الدين ، يتميز بالذهاب بالنفس عما كانت تسف إليه طبقته ، وطلب الحديث وحسب الجهاد ، وكان حسن الصوت ومحباً لقراءة القرآن الكريم ، وكان دائماً يعيب على أولاد الترك ما يرتكبونه من محرمات (3) .

ويقال أن أحمد كان ماراً في إحدى المرات في دهاليز قصر أبيه ، فوجد حظية من حظايا أبيه وهي على فاحشة مع أحد الخدم ، فمر ولم يذكر لأبيه شيء ، فخافت الحظية أن يكون أحمد سبقها إلى أبيه ليخبره بما حدث ، فذهبت إلى طولون وقالت له أن ابنه أحمد قد راودها عن نفسها ، فوقع في نفسه صدقها ، فاستدعى أحمد وكتب معه كتاباً ، وختمه إلى بعض الأمراء ، ولم يواجه أحمد بشيء مما قالت الحظية ، وكان في الكتاب " أن ساعة وصول حامل هذا الكتاب إليك تضرب عنقه وابعث برأسه سرياً إلى " فذهب أحمد بالكتاب وهو لا يدري ما فيه . فمر بطريقه بتلك الحظية فاستدعته إليها ، فقال : "إني مشغول بهذا الكتاب لأوصله إلي

(1) الصلدي ، الوافي بالوفيات ، الجزء السادس ، تحقيق : س . ديدرينغ . بيروت 1992 ، ص 431.

(2) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، الجزء الثالث ، تحقيق : محمد حسين شمس الدين ، بيروت 1992 ، ص 5.

(3) البلوى ، سيرة أحمد بن طولون ، تحقيق : محمد كرد علي ، القاهرة 1988 ، ص 34.

بعض الأمراء " ، قالت : " هلم ، فلي إليك حاجة " ، حيث أنها أرادت أن تتحقق مما قاله لأبيه ، فحبسته عندها ، ليكتب لها كتابا ، ثم سرقت من أحمد الكتاب الذي أمره طولون أن يوصله ، وأعطته للخادم الذي كان معها على الفاحشة حيث ظنت أن به جائزة ، فذهب بالكتاب إلى ذلك الأمير ، فلما قرأه أمر بضرب عنق ذلك الخادم ، وأرسل برأسه إلى طولون ، فتعجب طولون من ذلك وقال : " أين أحمد ؟ " فقال له : " ويحك ، أخبرني كيف صنعت ، منذ خرجت من عندي ؟ " فأخبره بما جرى من الأمر ولما سمعت تلك الحظية ، بأن رأس الخادم قد أتى بها إلى طولون ، توهمت أن طولون قد تحقق الحال ، فذهبت إليه تعتذر ، وتستغفر ، مما وقع منها مع الخادم ، واعترفت بالحق ، وبرأت أحمد ، مما نسبته إليه ، فزادت مكانته عند أبيه (1) .

مضى ابن طولون في حياته تلك (بعد أن اكتمل شبابه كانت قد اكتملت خصاله ووضحت صفاته ، وتدريب على فنون القتال وشجاعة في الحرب واللقاء ثم ثقافة دينية عميقة ، ثم دهاء وبعد نظر ، وهو أمر غريب عن سنه وبيلته وطبقته (2) .

وتوفي أبيه طولون سنة 240 هـ ، فانتقل أحمد إلى رعاية رفقاء أبيه ، حتى ثبتت مرتبته وتصرف في خدمة السلطان ، فانتشرت أخبار حسن خلقه وشدة تدينه ، مما زاد شأنه في قلوب الأولياء حتى كان محله عندهم محل من يؤتمن على الأسرار والأموال والفروج (3) .

(1) ابن كثير ، البداية والنهاية ، الجزء الحادي عشر ، تحقيق : أحمد شعبان ، القاهرة 2003 ، ص 39.

(2) حسن أحمد محمود ، حضارة مصر الإسلامية في العصر الطولوني ، القاهرة 1990 ، ص 24.

(3) ابن سعيد الأندلسي ، المغرب في حلى المغرب ، تحقيق : زكي حسن ، القاهرة 1953 ، ص 74.

وكان أحمد يكره الترك كره شديد ، ويستصغر عقولهم وآدابهم ، وكان يرى أنهم اغتصبوا ما لا يستحقون ، وأن حرمة الدين بهم مهتوكة ، وفرائضه معطلة ، ففضل أن يترك كل هذا ، وعرض على صديقه أحمد بن محمد بن خاقان أن يطلبها من الوزير عبيد الله بن خاقان أن يعين لهم رزقاً في طرسوس⁽¹⁾ ، وبالفعل وافق الوزير ، وذهبوا إلى طرسوس فأصبحوا في ثواب دائم عن طريق جهاد العدو ، وعن طريق إتصاله بمن فيها من محدثين وعلماء⁽²⁾ .

نعود مرة أخرى للحديث عن الخلفاء الضعاف ، فكما مر بنا من قبل أن الخليفة المنتصر خلف أبيه المتوكل في الخلافة بعد أن دبر مقتله مع الأتراك ، وأنه ثار على الأتراك وكان يردد " هؤلاء قتلة الخلفاء " ، ويجب أن نشير إلى أنهم أغروا به طبيبهم ابن طيفور ، ودفعوا له مبلغاً كبيراً من المال ، فقصده بريشة مسمومة ، فمات بعد أن حكم ستة أشهر من خلافته⁽³⁾ .

وأعلى المستعين⁽⁴⁾ كرسى الخلافة المضطرب ، الذي شاعت الأقدار أن يتقرب أحمد بن طولون منه ، حيث أن أحمد قرر أن يترك طرسوس ويعود إلى سامراء ، لأن أمه كانت تبكى عليه ، وتوهمت أنه

(1) طرسوس : طرسوس كلمة عجمية رومية ، وهي مدينة بثغور الشام بين انطاكية وحلب وبلاد الروم ، طول طرسوس ثمان وخمسون درجة ونصف ، وعرضها ست وثلاثون درجة وربع ، للمزيد أنظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، بيروت 1957 ، ص 28.

(2) ابن سعيد ، المغرب ، ص 74.

(3) أحمد مختار العبادي ، التاريخ العباسي والفاطمي ، بيروت 1992 ، ص 124.

(4) المستعين : هو أحمد بن محمد بن المعتصم ، ويكنى أبا عبد الله ، وكانت أمه تسمى مخارق ، بويح في اليوم الذي توفي فيه المنتصر ، وكان ضعيفاً لا يقوى على مواجهة الأتراك ، وكان مسماً ، حسن الوجه أسود اللحية ، لين الجانب ، للمزيد أنظر : المسعودي ، التنبيه والإشراف ، بيروت 1993 ، ص 331.

هلك فى طرسوس ، كما أن الفقهاء أقروا له أنه لا يصح له أن يبقى إذا كان له أهل قد تركهم ، أضف إلى ذلك إلحاح صديقه أحمد بن محمد بن خاقان على العودة ⁽¹⁾ ، ولكن المرجح أنه رجع عقب مقتل المنتصر ليكون على مقربة من الأحداث .

وفى طريق عودة أحمد بن طولون إلى سامراء ، التقى بالقافلة راجعة من بلاد الروم محملة بالهدايا والأموال للخليفة ، فانضم أحمد ومن معه إليها وكان عددهم حوالى 500 رجل ، ولكن جماعة من الأعراب هاجمت تلك القافلة وحاولت الاستيلاء عليها ، ولكن أحمد كان لهم بالمرصاد ، فوضع السيف فيهم حتى فروا جميعاً ، ووصلت القافلة بسلام إلى سامراء ⁽²⁾ .

أعجب الخليفة المستعين بأحمد بن طولون ، وأرسل إليه بألف دينار سراً ، تقديراً لشجاعته ، وأخبره أنه لولا خوفه عليه من حسد أقرانه لقربه إلى جواره ، ورغم هذا فقد توالى على أحمد صلات المستعين وعطاياه التى كان من بينها جارية تدعى مياس رزق منها بأبنة خماروية ثانى أبناءه بعد العباس ، الذى رزق به من خاتون أبنة أحد قواد الأتراك ويدعى يارجوخ ⁽³⁾ .

ولكن الخليفة المستعين كان ضعيفاً ، تحكم فيه الأتراك ، وتغلبوا عليه وأستولوا على الأمر والنهى ، فخرج مغاضباً إلى بغداد تاركاً سامراء ، فتوجهوا إليه يفتنون ويسألونه الرجوع ، لكنه رفض الاستجابة لهم ، فقاموا بالذهاب إلى السجن وأخرجوا المعتز بالله وبايعوه بالخلافة ، فحاصر المعتز المستعين ببغداد ، فتهيا المستعين ونائب بغداد ابن طاهر للحرب ، وبنوا سور ببغداد ، ولكن الدائرة دارت على المستعين ، وتخلى

(1) ابن سعيد ، المغرب ، ص 74 .

(2) أحمد عبد الرزاق أحمد ، تاريخ وآثار مصر الإسلامية ، القاهرة 1999 ، ص 88 .

(3) عبد الرزاق ، مصر الإسلامية ، ص 88 .

عنه أتباعه ، ووقع الكثير من القتلى بين البغاددة ، فاتفق الطرفان على أن يخلع المستعين نفسه من الخلافة (1) .

وفي سامراء اجتمع الناس بالمسجد الجامع ، وحضر القضاة ، وتم إحضار المستعين فقال له القاضي ابن أبي الشوارب : " يا أمير المؤمنين أشهد عليك بأنك قد خلعت نفسك من جميع ما كنت تتولاه من أمور المسلمين ، وإنك قد بايعت ابن عمك أبا عبد الله الزبير بن المتوكل على الله " ، قال : " نعم أشهد على بذلك " . فقال له القاضي : " خسر الله لك أيها الأمير " (2) . وسلم إليهم القضيب والبردة وتم نفيه إلى واسط (3) ، بعد أن سألوه عن يريد أن يرافقه ، فأختار أحمد بن طولون (4) .

وفي واسط أحسن أحمد بن طولون معاملة المستعين ، فأطلق له التنزه والصيد ، كما كره أن يلحقه ويراقبه احتشاماً منه ، فألزمه أحمد بن محمد الواسطي كاتبه ، وكان غلاماً جريئاً ، حسن الشاهد ، حاضر النادرة ، فأنس به المستعين غاية الأنس ، وشكر لأحمد هذا المعروف (5) .
خاف أتباع الخليفة المعتز من أن يقوم المستعين بأي حركة انتقامية ، فذهبوا إلى قبيحة أم المعتز ، وخوفوها من المستعين ، فقوى الخوف في نفسها ، وأستقر رأيها ورأى الأتراك على التخلص منه ،

(1) ابن عماد ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، الجزء الثالث ، تحقيق : محمد الأرناؤوط ، دمشق 1986 ، ص 236 .

(2) ابن العبراني ، الإنباء في تاريخ الخلفاء ، تحقيق : قاسم السامرائي ، القاهرة 1999 ، ص 126 .

(3) واسط : مدينة بين الكوفة والبصرة من الجانب الغربي ، كثيرة الخيرات وافرة للغلات تشقها دجلة ، كلها بساتين وقصور ومياه ، للمزيد : القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد ، بيروت 1995 .

(4) ابن دحية ، التبراس في تاريخ خلفاء بني العباس ، تحقيق : مديحة الشرفاوي ، القاهرة 2001 ، ص 81 .

(5) البلوي ، ابن طولون ، ص 39 .

فبعثت إلي أحمد بن طولون تقول : " إذا قرأت كتابي فجئني برأس المستعين ، وقد قللتك واسط " (1) ، فغضب أحمد من هذا ورد قائلاً : " والله لا يراني الله عز وجل أقتل خليفة له في رقبتي بيعة وأيمان مغلظة أبداً " (2) .

لكن الأتراك لم يفقدوا الأمل ، حيث أرسلوا شخصاً آخر فاقد الضمير ، ألا وهو سعيد بن صالح الحاجب (3) ، الذي تحين فرصة غياب أحمد بن طولون عن المستعين ، فدخل عليه ، فلما رآه المستعين تسبق موته وبكى وقال : " ذهبت والله نفسي " ، فوقع في يد سعيد المذكور وقطع رأسه ، ومات المستعين في الحادية والثلاثون من عمرة ، ولما رآه ابن طولون بكى عليه بكاءً شديداً وغسله ثم دفنه وعاد إلي سامراء (4) .

أحمد بن طولون في مصر :

قبل أن نناقش كيفية دخول أحمد بن طولون إلي مصر وتوليته أمرها ، يجب أن نتحدث في عجالة عن أهم الولاة الأتراك الذين حكموا مصر وسياستهم في إدارة شئونها ، وأوضاع مصر تحت حكمهم .

أتمت سياسة حكم الولايات في هذا العصر بظاهرة إدارية سيئة ، حيث كان الخليفة يعين أحد الموالى أو الأتراك ليتولى أمر الولاية ، فيقوم هذا الوالى بدوره بإرسال نواب عنه إليها ، ويفضل البقاء بجوار الخليفة حتى يأمن قيام أى مؤامرة ضده ، وبالتالي لا يعرفون غير أطماعهم

(1) محمد ماهر حماده ، الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصور العباسية المتتالية، القاهرة 1985 ، ص 330.

(2) البلوى ، ابن طولون ، ص 40.

(3) ابن تغرى بردى ، مورد اللطافة ، تحقيق : نبيل محمد عبد العزيز ، المجلد الأول ، القاهرة 1997 ، ص 163.

(4) السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، بيروت 1992 ، ص 332.

الخاصة، ولا يبالون أية سبيل يسلكون ، كما أنه لم يكن يرسل نائباً واحداً ينوب عنه في حكم الولاية ، بل كان يرسل العديد من النواب حتى لا ينفرد أحد بالسلطة (1) .

وكان أشهر الأتراك الذين حكموا مصر في هذا العصر هم أشناس وإيتاخ والفتح بن خاقان ، وقد قام كل فرد فيهم بتعيين الكثير من النواب عنهم لحكم البلاد ، وعندما أعتلى المعتز كرسى الخلافة ، ولى مصر لمزاحم بن خاقان أحد مقدمى الترك سنة 253 هـ ، وكان طاغية جباراً ، فولى الشرطة أزجوز التركى ، وكان أزجوز أشد وىلاً وأكبر عسفاً وجوراً فأكثر من الارهاب والتهديد وبالفى إىذاء الناس (2) .

ومرض مزاحم بن خاقان ، ومات فى شهر محرم سنة 254 هـ ، فخلفه أزجور إلى أن قام الخليفة المعتز بتولية باكبك على مصر ، وكان باكبك زوج أم أحمد بن طولون ، حيث أنها تزوجت من بغا الأصغر ، ثم من باكبك (3) ، وآثر باكبك كما آثر بقية هذا الصنف من الولاة أن يبقى بجوار الخليفة ، وفكر فى من ينوب عنه فى مصر ، فنصحة الجميع بهذا الشاب الذى ظهر عنه حسن السيرة وطيب السريرة ، ألا وهو ابن زوجته أحمد بن طولون (4) .

(1) عمر الاسكندرى ، تاريخ مصر إلى الفتح العثمانى ، القاهرة 1996 ؛ إبراهيم

الأبيارى ، أبو المسك كافور ، القاهرة 1962 ، ص 21.

(2) ميخائيل شاروويم بك ، الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث ، الجزء الثانى ،

القاهرة 2004 ، ص 243.

(3) عبد الرزاق ، مصر الإسلامية ، ص 88.

(4) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، المجلد السادس ، تحقيق : أبى الفداء عبد الله

القاضى ، بيروت 1987 ، ص 195 ؛ ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، الجزء الثالث ،

تحقيق : خليل شحادة ، بيروت 2000 ، ص 368 ؛ الصديقى ، النزهة الزهية فى ذكر

ولاة مصر والقاهرة لمعزية ، تحقيق : عبد الرزاق عيسى ، القاهرة 1998 ، ص 92.

فدخل أحمد بن طولون مصر عام 254 هـ والطموح يغمره ،
لينوب عن باكباك في حكمها ، ليبدأ بذلك عصر جديدة في تاريخ مصر ،
الا وهو عصر الدولة الطولونية .

كما سبق وأن أشرنا أن أحمد بن طولون دخل مصر عام 254 هـ
نائباً عن باكباك ، فنزل الفسطاط وبدأ يباشر أمور الولاية ، ولكن في
الواقع لم يكن سلطانه يتجاوز مدينة الفسطاط ، فالوالي لم يكن ينوب عنه
شخص واحد لإدارة الولاية ، بل أكثر من شخص ، فكانوا على الأعمال
يسيطرون وفي غير مصالحهم لا يبالون ، والشعب صابر يتحمل البلبلة
الكبيرة التي أحدثوها ، فكان هناك أحمد بن المدير على الخراج ، وشقيق
غلام قبيحة على البريد ⁽¹⁾ ، والإسكندرية كانت تابعة لإسحاق بن دينار ،
وبرقة كانت بيد أحمد بن عيسى ، كما كان هناك القاضي بكار بن قتيبة ⁽²⁾ .
ودخول أحمد مصر في هذه الفترة ، كان يعد الحد الفاصل بين نظام
الولاية القائم على كثرة تغيير الولاة ، والفوضى والإضطرابات ، وبين
نظام الولاية القائم على الوراثة ، فأحمد بن طولون لم يكن ممن يرضون
هذا الذي رضىه الناس ، وأراد أن ينفرد بحكم مصر ، فبدأ التنافس بينه
وبين هؤلاء الرجال وأصبحت الحرب بينهم سجلاً ، وظهرت حنكته في

(1) البريد : يعد معاوية بن ابي سفيان هو أول من وضع نظام البريد في الدولة
الإسلامية ، وكان يُستخدم لتوصيل الأخبار للخلافة من الولايات ، وكان عمله مقصوراً
على طلبات الدولة ، وليس للأفراد ، وأصل كلمة بريد مجهول ، حيث يذهب البعض
إلى أنها مأخوذة من كلمة Veredus اللاتينية ، بينما يقول البعض أنها مأخوذة من
بريدة دم ومعناها مقصوص الذيل في الفارسية ، حيث كان الفرس يقصون ذيل خيل
البريد ، للمزيد أنظر : عبد المنعم ماجد ، تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور
الوسطى ، القاهرة 1963 ، ص 37.

(2) حامد غنيم أبو سعيد . عصر الدول الاقلمية . القاهرة 1970 ، ص 193 ؛ صابر
محمد ، باب تاريخ مصر الإسلامية وحضارتها . القاهرة 1976 ، ص 151.

التخلص منهم ، فلم يكن عندها هيناً أمرهم ، فكل فرد منهم كان له من يساعده في بلاط الخليفة (1) .

صراعه مع أحمد بن المدبر عامل الخراج :

كان ابن المدبر قد بدأ حياته في وظائف الدولة في عهد الخليفة الواثق ، وتقدم سريعاً في الأعمال المالية ، وعين عام 240 هـ عاملاً على الخراج في حمص ، ثم جاء إلى مصر عاملاً على الخراج في عام 247 هـ في عهد الوالي يزيد بن عبد الله ، وكان يُعرف بالجشع وحب المال ، وكان يجمع الأموال لصالحه ويرسل الرشاوى والهدايا إلى الحكومة المركزية في بغداد (2) .

وقد فرض على المصريين الكثير من الضرائب حيث فرض الضرائب الخراجية ، وهي التي تجبى كل سنة ، كما فرض ضرائب هلالية وهي التي تجبى كل شهر ، كما فرض ضريبة تسمى المراعى على الكلاً ، أضف إلى ذلك أنه فرض ضريبة على كل ما يستخرج من البحر سماها المصايد ، واغتصب ثروات الأغنياء ، وأحاط بالنظرون بعدما كان مباحاً لجميع الناس (3) ، كما أنه أثقل كواهل القبط بالضرائب " حتى أن الإنسان الفقير الذي يعجز قوته ، يأخذ منه في كل سنة ، خمسين درهماً حتى ضجت أهل مصر وأعمالها من عظيم هذا العذاب ، وجحد كثير من النصارى لأجل قلة ما بأيديهم من الدراهم " (4) .

(1) محمود محمد الحويرى ، مصر في العصور الوسطى ، القاهرة 1996 ، ص 103؛

عبد العزيز سبيمان ، تاريخ مصر الإجتماعى ، القاهرة 1988 ، ص 101.

(2) سيدة إسماعيل كاشف ، أحمد بن طولون ، القاهرة 1965 ، ص 48 .

(3) سيدة إسماعيل كاشف ، مصر في فجر الإسلام ، القاهرة 1994 ، ص 58.

(4) ابن المقفع ، سير الآباء البطارقة ، المجلد الأول ، القاهرة 1943 ، ص 6.

وأراد ابن المدير أن يهدم أبواب من حجارة شرقى حصن الفرما لتحمل لبناء داره ، فلما هدم منها حجرين خرج إليه أهل الفرما بالسلاح ، فمنعوه من فعل ذلك ، وقالوا له : هذه الأبواب التي قال يعقوب عليه السلام لبنائه " لا تدخلوا من باب واحد وأدخلوا من أبواب متفرقة " (1) ، فأمسك ابن المدير عن الهدم (2) .

وكان ابن المدير يعيش في القصور ، بينما أبناء النيل يعيشون في الجحور ، وكان قد أثري ثراءً فاحشاً ، الأمر الذي لفت انتباه أحمد بن طولون عند توليته مصر ، كما كان له حرس شخصي مكون من مائة غلام أشداء وبأيديهم مقارع غلاظ ، وكانت له بهم هيبة شديدة في قلوب المصريين ، حيث كان الناس حصيدي سيوفهم وطريدي خوفهم ، فيحضون الناس على الألفة والطاعة ، ويحذروهم من المعصية ومفارقة الجماعة (3) .

وفور وصول أحمد بن طولون إلى مصر ، هرع ابن المدير إليه حاملاً الهدايا والأموال التي وصلت قيمتها إلى عشرة آلاف دينار ، يمكن أن نعتبرها كرشوة ليتعرف على شخصيته ، ولكن أحمد بن طولون رفض أخذها منه وأمر بردها ، مما أثار قلق ابن المدير وشقيقه ، فأسرعاً بإرسال الكتب إلى الحكومة المركزية ، يخوفون المسؤولين من أحمد بن طولون (4) .

(1) سورة يوسف : 67.

(2) ابن زولاق ، فضائل مصر وأخبارها وخواصها ، تحقيق : علي محمد عمر ، القاهرة 2000 ، ص 58.

(3) صبحي عبد المنعم ، تاريخ مصر السياسي والحضاري من الفتح حتى نهاية عهد الأيوبيين ، القاهرة 1999 ، ص 62.

(4) رزق الله منقريوس الصرفي ، تاريخ دول الإسلام ، الجزء الأول ، بيروت 1986 ، ص 264 ؛ أحمد صبحي منصور ، شخصية مصر . القاهرة 1984 ، ص 42.

ولكن أحمد بن طولون أرسل إليه قائلاً : " قد كنت أعزك الله ، أهديت لنا هدية وقع الاستغناء عنها فلم نجز تغنم مالك ، كثره الله ، فرددناها توفيراً عليك ، وأحب أن تجعل العوض منها الغلمان الذين رأيتهم بين يديك ، فأنا إليهم أحوج منك " (1) ، فما كان من ابن المدبر إلا أن تنازل عنهم في الحال لأحمد بن طولون ، فقلت هيئته بين الناس .

وبدأ النزاع بين الطرفين يقوى ويشتد ، ولم تكن قوته في صراع الرجلين في مصر فقط ، وإنما وصل الصراع بينهم إلى دار الخلافة حيث كان لكل واحد منهم سند في بلاط الخليفة ، يدعم قوته ويشجعه على التخلص من الآخر ، فلم يفقد الأول الأمل ، ولم يطرح الثاني الوجيل ، وتخلق ابن طولون بالصبر والمكر والاجتهاد والأناة والحذر ولكل منها ثمرة ، فثمرة المكر الظفر ، وثمرة الاجتهاد التوفيق ، وثمرة الأناة اليمن وثمرة الحذر السلامة .

وفي تلك الاثناء قُتل الخليفة المعتز ، وخلفه المهدي (2) ، ولكن يجب أن نشير إلى أن الدولة الصفارية بدأت تظهر في الشرق قبل مقتل المعتز ، مما أضعف الخلافة ، وشجع الولاة على محاولة الاستقلال والتنصل من سلطة الخلافة (3) ، أضف إلى ذلك قيام ثورة الزنج التي ساعدت أحمد بن طولون كثيراً في مشروع استقلاله .

(1) البلوى ، ابن طولون ، ص 45.

(2) المهدي : هو عبد الله محمد بن الواثق ، تولى بعد المعتز ، وقُتل عام 256 هـ ، وكانت خلافته أحد عشر شهراً وسبعة عشر يوماً ، وكان موصوفاً بالزهد والعدل ، متحريراً سيرة عمر بن عبد العزيز ، للمزيد أنظر : ابن الجوزي ، تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسير ، القاهرة 1975 ، ص 91.

(3) سمير عبد الرزاق القطب ، أنساب العرب ، عمان 1989 ، ص 300 ؛ فاروق عمر فوزي ومحسن محمد حسين ، الوسيط في تاريخ فلسطين العصر الإسلامي الوسيط ، الأردن 1999 ، ص 98 ؛ سيد أحمد علي الناصري ، الروم والمشرق العربي ، القاهرة 1993 ، 308.

وحاول المهتدي التخلص من نفوذ الأتراك ، لكنهم ثاروا عليه ، إلا أنه تمكن من قتل باكباك ، فحل محله قائد تركي آخر ألا وهو يارجوخ والد خاتون زوجة ابن طولون الذي سبق وأن أشرنا إليه ، فكتب إلي أحمد بمصر قائلاً له : " تسلم من نفسك لنفسك " ، بل الأكثر من ذلك أنه أمر إسحاق بن دينار عامل الإسكندرية بتسليمها إلي أحمد بن طولون ، فزادت مكانته مما أدى إلي أن يقوم ابن المدبر بملاطفة ابن طولون ، ومحاولة التقرب منه علماً بسلطانه (1) .

واستطاع أحمد بن طولون إقناع الخليفة المهتدي بعزل ابن المدبر ، وإرسال محمد بن هلال ليتولى أمور الخراج في مصر ، ولكن ابن المدبر رفض أن يسلم ابن هلال جميع ما كان يتولاه من الأعمال ، فما كان من ابن هلال إلا أن قبض عليه وأودعه في السجن (2) .

وفي تلك الأثناء قام الأتراك بقتل الخليفة المهتدي ، وذهبوا إلي السجن في سامراء وأخرجوا المعتمد (3) وبايعوه بالخلافة (4) ، واستطاع ابن المدبر عن طريق أخيه إبراهيم إقناع الخليفة بأن يعيده على خراج

(1) البلوي ، ابن طولون ، ص 46 ؛ محمد الخضري بك ، الدولة العباسية ، مراجعة : نجوى عباس ، القاهرة 2003 ، ص 292 ؛ بطرس البستاني ، موسوعة الحضارة العربية ، المجلد الرابع ، القاهرة 1995 ، ص 569 .

(2) حسن أحمد ، العصر الطولوني ، ص 40 ؛ علي حسني الخريوطي ، مصر العربية الإسلامية ، القاهرة 1963 ، ص 73 .

(3) المعتمد : هو أحمد بن جعفر المعتمد على الله ، ولد سنة 229 هـ بسامراء ، كان أسمر رقيقاً خفيفاً لطيفاً للحية جميلاً ، توفي سنة 279 هـ ببغداد ودفن بسامراء ، للمزيد أنظر : المكتبي ، فوات الوفيات والنيا ، عليها ، المجلد الأول ، تحقيق : إحسان عباس ، بيروت 1973 ، ص 64 .

(4) حسن عبد الخالق حسن ، الأتراك والدولة العباسية ، القاهرة 1993 ، ص 89 .

مصر ، وبالفعل أرسل المعتمد إلى أحمد بن طولون يأمره ببرد أمور الخراج إلى أحمد بن المدير ⁽¹⁾ .

ولكن ابن المدير شعر بقوة أحمد بن طولون ، وأيقن عدم جدوى مناطحته ، فأرسل إلى أخيه إبراهيم ، يسأله التصرف له في خراج أي جزء من الدولة الإسلامية غير مصر ، فاستطاع إبراهيم تقليده خراج فلسطين والأردن ودمشق ، كما أن ابن المدير زوج إحدى بناته لأبى الجيش خماروية ابن أحمد ، وخرج إلى دمشق والموت عنده أهون أن يعود ، والعار عالق بساقه الممدود .

وخلفه على خراج مصر أحمد بن محمد بن أخت أبى الوزير أو كما سماه البلوى أبا تراب أحمد بن شجاع سنة 258 هـ ، وأرسل المعتمد إلى أحمد بن طولون يطلب منه جمع الأموال ، فرد عليه قائلاً : " إنه لا يستتر ما أحمله من الأموال عن الأولياء ، ولا يخفى على الموالي والمطالبين به ، وفيه تأخر كبير من أرزاقهم ، ولا يتهيأ أيضاً لإدراك الحمل والمتابعة به والخراج إلى غيرهم " ، فما كان من المعتمد ، إلا أن أرسل نفيس الخادم بتقليد أحمد بن طولون خراج مصر ⁽²⁾ ، فقام أحمد بن طولون بتعيين أبى أيوب على الخراج وجعل ابن دشومة رقيباً عليه ⁽³⁾ ، وفي عام 267 هـ قام أحمد بن طولون بالتخلص من ابن المدير في دمشق وحبسه ⁽⁴⁾ ، وعندها أطمئنت نفسه وشفى حقه .

(1) اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، الجزء الأول ، النجف 1970 ، ص 229.

(2) ابن سعيد ، المغرب ، ص 84 ؛ محمد أحمد محمد ، الأحداث السياسية في مصر الإسلامية ، القاهرة 1995 ، ص 120.

(3) محمد أحمد زيود ، العلاقات بين الشام ومصر ، دمشق 1989 ، ص 25.

(4) ابن الجوزى ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، الجزء الثانى عشر ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا ، بيروت 1992 ، ص 213.

صراعه مع شقير عامل البريد :

اتسمت مهنة عامل البريد في هذا العصر بصفة التجسس ، حيث كان من مهامه أن يتجسس على الولاة الذين يعينهم الخليفة ونوابهم ، ويرسل بأخبارهم أولاً بأول إليه ، ولم يكن أحمد بن طولون بالشخص الذي يقبل الخضوع لمثل هذا الجاسوس ، لذلك اتخذ كل السبل الممكنة للتخلص من شقير عامل البريد الذي لم يتوقع منه خير ، وحذر من عبث في الأمر (1) .

قام شقير بالإرسال إلى دار الخلافة يخوفهم من أحمد بن طولون ، ويحذرهم منه ، اعتقاداً منه أن أحمد بن طولون مثله مثل بقية الولاة سيرهب منه ويخضع له ، ولكن أحمد بن طولون كان يمتلك الحيلة ، حيث كان له أحد أصدقاء المقربين في بغداد وهو طيفور التركي (2) الذي كان يخبره بكل ما يقال عنه في بلاط الخليفة .

وبعد مقتل الخليفة المعز وتولية المهدي ، أرسل شقير إليه برسائل تدل على ازدياد سلطان أحمد بن طولون في مصر ، ووجوب خلعه ، فكتب الخليفة إلى أحمد قائلاً : " أما بعد فإنا رأينا أن نرد إليك أمر دارنا بالحضرة ، وتدبير مملكتنا ، فإذا قرأت كتابنا هذا فاستخلف على قصرك من أحببت ، والبلد لك وباسمك ، واشخص إلينا لما ندبناك إليه ، ورأيناك أهلاً له ، والسلام . " (3) .

ولكن أحمد بن طولون رأى ببصيرته وأدرك بحكمته أن هذه الدعوة ما هي إلا حيلة للإيقاع به ، فأيقن أن الكلام الرقيق مصايد القلوب ، ومنه يستعطف المستشيط غيظاً ، والمندمل حقداً ، فأرسل كاتبه محمد بن

(1) إبراهيم أحمد العدوي ، مصر الإسلامية ، القاهرة 1992 ، ص 107 .

(2) ابن سعيد ، المغرب ، ص 93 ، هامش رقم 4 .

(3) البلوي ، ابن طولون ، ص 56 - 57 .

أحمد الواسطي إلى دار الخلافة محمل بالهدايا والأموال إلى الوزير الحسن بن مخلد حتى يُطفئ جمره غيظه ، ويسل دقائن حقدّه ، وسأله إلغاء دعوة أحمد بن طولون إلى الحضرة ، وإرسال أهله إليه في مصر ، فوافق الوزير وقال : " لن نزعجه عن عمله ، ولا يُقبل فيه قول ساع سعى فيه " (1) .

ولما وصل كتاب الوزير إلى أحمد بن طولون ، فرح وأرسل إليه مرة أخرى يطلب منه أن كتب من التي يكتبها عمال مصر فيه ، فأرسل الوزير إليه برسالة أرسلها شقير يقول له فيها : " إن أحمد بن طولون على التقرب على مصر والعصيان بها " (2) .

فأمر ابن طولون أن يحضر شقير إليه من داره إلى الميدان على قدميه ، وقد كان شقير مبدناً ومرفهاً ، وقد قصد أحمد بن طولون ذلك علماً منه أن التعب سيقتله ، وعندما وصل أمر بأن يشد في العقابيين ، وتركه ساعة في الحر ، فسقط شقير من التعب وتبين فيه الموت ، فأمر أحمد أن يرد إلى داره بدون أن يضرب ، وفي آخر اليوم وصل إلى ابن طولون خبر وفاة شقير ، فجمع أحمد بن طولون الأعيان ليشاهدوا شقير عرياته ، حتى يتأكدوا أنه مات من غير ضرب ، ولا سبب لموته إلا قضاء أجله (3) .

وبذلك امتلك أحمد بن طولون البريد في مصر وضمن ألا تتسرب أخباره إلى الخلافة إلا بما يريد هو ، حيث أنه كان يجب أن يعرف خصومه

(1) البلوى ، ابن طولون ، ص 57.

(2) البلوى ، ابن طولون ، ص 58.

(3) البلوى ، ابن طولون ، ص 58.

بعض أسرارهِ وتدابيره ، حتى يضلوا عن معرفة هدفهِ الأساسى عن طريق المعلومات المزيفة التى يرسلها إليهم (1) .

الثورات الداخلية وإخمادها :

واجهت أحمد بن طولون العديد من الثورات العلوية ، هدفها الأول النيل من نفوذ العباسيين وهيبتهُم ، وكان تصدى ابن طولون لهذه الفتن والثورات ليس مجرد إقرار أمن داخلى ، وإنما إخلاصاً للبيت العباسى ودفاعاً عن حقوق الخلافة ، فيظهر فى صورة العامل المخلص ورجل الخلافة القوى الأمين فيثبت سلطانه فى مصر (2) .

ثورة بغا الأصغر :

خرج أحمد بن محمد بن عبد الله بن طباطبا المعروف ببغا الأصغر ، بين الإسكندرية وبرقة فى جمادى الأولى سنة 255 هـ فى موقع يسمونه الكنائس ، ويقال أن بغا الأصغر هو أخ أصغر لبغا الصغير الذى قتله الخليفة المعتز ، ثم ترك بغا الأصغر العراق منفياً إلى برقة (3) ، فالتزم إليه بنى مدلج وهم أعز قبيلة بالاسكندرية ، ثم انتقل إلى الصعيد ، وكثر أتباعه ، فادعى الخلافة فوجه إليه ابن طولون جيشاً على رأسه بهم - أو سهم - بن الحسين ، وإذا الحرب تدور ، ولكنها حين دارت لم تلبث غير قليل حتى تكشفت عن هزيمة بغا وفرار أصحابه ، فقتله بهم وقطع رأسه وأتى بها إلى القسطنطين (4) .

(1) أحمد شلبى ، الجهاد والنظم العسكرية فى التفكير الإسلامى ، القاهرة 1983 ، ص 113.

(2) منى حسن أحمد ، مصر الإسلامية ، القاهرة 2001 ، ص 93.

(3) كاشف ، ابن طولون ، ص 72.

(4) حسين نصار ، الثورات الشعبية فى مصر الإسلامية ، القاهرة 2002 ، ص 23.

ثورة ابن الصوفى العلوى :

فى ذى القعدة من سنة 253 هـ ظهر ثائر يسمى إبراهيم بن محمد بن يحيى المعروف بابن الصوفى العلوى ، استولى على مدينة إسنا سنة 255 هـ ، فنهبها وقتل أهلها وعاث فى الأرض فساداً ، ولما علم ابن طولون بأمره قام بإرسال جيشاً على رأسه ابن يزداد ، فالتقى بابن الصوفى عام 256 هـ ، ولكن ابن الصوفى هزمه ، وقطع يديه ورجليه وصلبه (1) .

ولما بلغ ذلك ابن طولون أرسل جيشاً آخر تحت قيادة بهم بن الحسين ، فالتقت الجيوش بإخميم ، وأقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم ابن الصوفى ، وتركه كثير ممن معه ، فرجع بهم إلى ابن طولون فعرفه بما جرى ، فخلع عليه ابن طولون خلعاً حسناً وطوقه بطوق ثقل (2) .

أقام ابن الصوفى بالوحدات ولم شعثه ويصلح أحواله ، فأرسل إليه ابن طولون جيشاً على رأسه ابن أبى المغيث ، ولكنهم لم يقتتلوا لأن ابن الصوفى رجع إلى الصعيد لقتال أبو عبد الرحمن العمرى ، ولكن ابن الصوفى لقي هزيمة قوية من العمرى ، فهرب ابن الصوفى إلى أسوان وعاث فيها فساداً ، فأرسل ابن طولون إليه بهم بن الحسين فهزمه ، وفر ابن الصوفى إلى عذاب على البحر الأحمر ثم عبر البحر ونزل مكة ، ولكن واليها قبض عليه وأرسله إلى ابن طولون ، فسجنه لفترة حتى أظهر التوبة ، فأطلق ابن طولون صراحه وأحسن إليه ، فخرج إلى المدينة وأقام بها إلى أن مات (3) .

(1) كاشف ، ابن طولون ، ص 73 ؛ نصار ، الثورات الشعبية ، ص 23.

(2) سعيد محمد السباعى ، تاريخ مصر الإسلامية وحضارتها ، القاهرة 1984 ، ص 49.

(3) نصار ، الثورات الشعبية ، ص 24.

ثورة ابو الروح سكن :

لم يكن انتهاء ثورة ابن الصوفي نذيراً باستئصال الفتنة من الصعيد ، حيث ظهر عام 260 هـ أحد أنصار ابن الصوفي ، وهو ابو الروح سكن ، وكان من بوادي بحيرة الإسكندرية ، تربى بالريف والتف حوله طائفة كبيرة ، فأرسل إليه أحمد بن طولون جيشاً على رأسه يلبق الطرسوسى ، ولكن ابو الروح أوقعه فى مصيدة حيث أنه أوقف أصحابه فى أرض كثيرة الشقوق ، وكان بها قمح فحصد وبقى من تبنيه على الأرض ما يستر شقوقها ، فما أن التقى الطرفان حتى أظهر أبو الروح وأتباعه الإتهزام ، فتبعهم يلبق وفرسانه ، ف وقعت حوافر خيلهم فى تلك الشقوق ، وسقط الكثير من الفرسان ، فكر عليهم ابو الروح وقتلهم شر قتلة ، فعاد يلبق إلى الفسطاط ، فلقى من أهلها وسخريتهم أكثر مما لقي من ابو الروح سكن (1) .

وتقدم ابو الروح حتى وصل إلى الفيوم ، فأنفذ إليه ابن طولون جيشاً تحت قيادة ابن جيفوية وأمره أن يأخذ طريق الواحات من ناحية الصحراء ، ثم أنفذ جيشاً آخر ، تحت قيادة شعبة بن حركام ، وأمره بالمسير إليه مباشرة ، وأراد ابو الروح أن يكرر حيلته ، ولكن أصحاب شعبة كانوا قد أخذوا حذرهم ، فاطبقوا عليهم وأحاطوا بهم وقتلوا عدداً كبيراً منهم ، فهرب أبو الروح عن طريق الواحات ، فوجد جيش ابن جيفويه ، فوقف وراسله بالامان وظن ابن جيفوية أن شعبة لم يلقه ، ولم يحدث قتال ، وأنه وافاه قاصداً طلب الأمان راغباً فيه ، فأمنه وهرب ابو الروح سكن ، فلما بلغ ابن طولون ذلك استشاط غضباً ومنع ابن جيفوية من الرجوع إلى الفسطاط (2) .

(1) حسن أحمد ، العصر الطولونى ، ص 43.

(2) نصار ، الثورات الشعبية ، ص 26.

نورة عبد الرحمن العمرى :

ظهر أبو عبد الله عبد الرحمن العمرى فى صعيد مصر عام 256 هـ وينسب إلى عمر بن الخطاب ، لذلك سمي بالعمرى ، وكان من أتقياء الناس وعلمائهم ، أراد أن يجاهد فى سبيل الله فاشترك فى صد غارات البجة المتلاحقة فى أعالي الصعيد ، والتي تقتل الأبرياء وتتهب الأموال ، وما لبث أن ازداد نفوذ العمرى ، ووضع حداً لهذه الغارات ، ودخل بلادهم وأخضعهم حتى أدوا له الجزية (1) وعقدوا اتفاقاً على إيقاف الحرب ، وكان مسالماً لا يمس أحد منه أذى وكان مسالماً للبجة والعهد الذى لهم (2) .

وكان من أهم النتائج التى ترتبت على نجاح حملات العمرى وسيطرته على البجة أن تمت اتفاقات بين عرب ربيعة وجهينة من جهة ، ورؤساء البجة من جهة أخرى ، أعطت الحق للقبائل العربية النازحة فى الاستقرار الدائم بين البجة وسمحت لهم بالزواج منهم ، وبالفعل حدثت مصاهرة بين رؤساء القبائل العربية والبجة ، مما أدى إلى توقف الهجمات المستمر من البجة على الحدود الجنوبية (3) .

ولكن أحمد بن طولون خشى من اتساع نفوذ العمرى ، ورأى أن فى بقاءه انتقاصاً لسيادته على مصر ، الأمر الذى دفعه إلى إرسال جيش كبير للقضاء عليه بقيادة شعبة بن حركام ، ولكن العمرى ذهب إلى شعبة وأظهر له أنه على طاعة أحمد بن طولون ومسالم له ، وأنه لم يؤذ مسلماً قط ، وإنما خرج لمحاربة أعداء الإسلام من البجة ، ولكن شاءت الأقدار

(1) نصر أسعد نصر ، تاريخ مصر الإسلامية وحضارتها ، القاهرة 1985 ، ص 37 ؛

عبد الله خورشيد ، القبائل العربية فى مصر ، القاهرة 1995 ن ص 78.

(2) البلوى ، ابن طولون ، ص 65.

(3) عطية القوصى ، تاريخ دولة الكنوز الإسلامية ، القاهرة 1976 ، ص 32 - 33.

أن تقع الحرب بين الطرفين ، ورغم أن العمرى كان يحارب على الجبهتين الشمالية والجنوبية ، الطولونيين والبجة ، إلا أنه استطاع هزيمة جيش شعبة بن حركام ذي العدد والعدة .

وأصبح أحمد بن طولون مذعوراً من العمرى ، إلى أن وافاه خبر مقتل العمرى على يد غلماته ، وجاء إليه جماعة يقاربون العشرة ومعهم رأس وقالوا لأحمد : " نحن غلمان العمرى وهذه رأسه " ، فجمع ابن طولون العام والخاص وسألهم عن الرأس ، فأجمعوا أنها رأس عبد الرحمن العمرى ، فقال ابن طولون لغلماته : " أكان مسيناً إليكم ؟ " قالوا : " لا والله لقد كان محسناً إلينا ومفضلاً علينا " ، فقال لهم : " فما حملكم على قتله ؟ " قالوا : " طلبنا الحظوة عندك ، والمكافأة منك " ، فقال لهم : " قتلتم مولاكم المحسن إليكم بالتطرب إلي المزيد " ، فأمر بضربهم جميعاً بالسياط حتى ماتوا ، وأمر بدفن رأس عبد الرحمن العمرى (1) .

ثورة العباس ابن أحمد بن طولون :

في عام 264 هـ غادر أحمد بن طولون مصر متوجهاً إلى أنطاكية لحصار سيماء الطويل الذي الذي رفض الخضوع له بعد توليه أمور الشام (2) ، وترك ابنه العباس على حكم مصر كنائب عنه حتى يعود ، وجعل الواسطي مديراً ووزيراً له ، ولكن بوادر الفتنة ظهرت حين رفض الواسطي تعيين بعض أصدقاء العباس في الوظائف العامة ، فأخذ هؤلاء الأصدقاء يغيرون صدر العباس على الواسطي حتى لم يعد للثاني أثر في إدارة شئون البلاد (3) .

(1) ابن سعيد ، المغرب ، ص 94 .

(2) ابن العديم ، زبدة الحلب في تاريخ حلب ، الجزء الأول ، تحقيق : سهيل زكار ، القاهرة 1997 ، ص 84 .

(3) علي إبراهيم ، مصر ، ص 52 .

فما كان من الواسطي إلا أن أرسل إلي أحمد بن طولون يشكوا له من أفعال ابنه العباس ، فرد عليه بأن يستعمل الأناة حتى يعود هو إلي مصر ، ولكن العباس علم بأمر تلك المكاتبات مما زاده حقداً على الواسطي، فأشار أتباعه بالقبض عليه فقام بمهاجمة داره فوجد الكتب التي أرسلها أبيه للواسطي وعلم أنه حائز عليه ، عندها أستغل أصحابه الفرصة وشجعوه على الخروج على الطاعة ، ومن هؤلاء علي ابن ماجور وعبد الله بن طغيا وأحمد بن صالح الرشيدي وجعفر بن حدار وأحمد بن المؤمل ومحمد بن أزهر ، ويذهب بعض الباحثين إلي أن هؤلاء الرجال من أتباع الموفق وأنه هو الذي حضهم على إفساد العباس حتى تنهار الدولة ، ولكن لا توجد نصوص في المصادر تدل على ذلك .

وبالفعل قرر العباس الخروج ومغادرة مصر ، وجمع من الأموال ما بلغت قيمتها مليون دينار ، واقترض من التجار مائتي ألف ، وأخذ 800 فارس و10000 جندي من السوادان ⁽¹⁾ ، واصطحب الواسطي وأيمن الاسود معه مكبلين بالأغلال ، فتوجه إلي الإسكندرية سنة 265 هـ — مظهراً للناس عزمه على قتال الروم بعد أن استخلف أخاه ربيعة على القسطنطينية ، ومن الإسكندرية سار إلي برقة ، ولما بلغ ابن طولون ذلك أرسل إليه قائلاً :

" يا قرّة عيني وأقرب الناس إلي وأبرهم لدى وأعزهم علي ، خفرت ظني بك ، أقوى ما كان أملّي فيك ، وأرجا ما كنت لك من غير إساءة قدمتها ولا خطيئة ركبتهها معك ، ولم ترع حسن تربيتي لك ، وعظم إشفائي عليك ، وإنّي أحبك لإحياء ذكرى وصيانة شملّي ، فأرضيت عدوي واسخطت ولي ، وسبحان الله أما تخاف ثمره العقوق ؟ فإن رجعت

(1) Lane-Pool, A history of Egypt in the middle ages, London 1901, p. 68.

إلى فكأنك لم تذنّب ، وأن تعادى بك الاغترار ، شخصت إليك بنفسى وألم
أكن بأول من خسر سعيه وأخلف تقديره . " (1)

ويبدو أن قلب العباس رق من كتاب أبيه ، ولكن جماعه من
أصحابه قالوا له : " الله الله فينا وفي نفسك ، أنظر لنا ولك ، فانت تعرف
أباك وغدره ، فارحمنا وأرحم نفسك ، فانت تعرف طبع أبيك وشدة غدره ،
فإنه يرى أن في استئصال شأفتك ، وتقطيع قلبه عليك فيما يأتيه من أمر
وأمرنا بعدك ، بما السياسة وتوطيد المملكة توجبه ، فخفف الله فينا وفيك
" (2) ، لذلك لم يستجب العباس لأبيه خوفاً من عقابه ، فقرر الخروج إلى
إفريقية في مغامرة حمقاء مفترأ بما معه من المال والجند ، معتقداً أنه
يمكنه إقامة ملك له يناوى به ملك أبيه (3) .

وبالفعل بدأ العباس هجومه على إفريقية فكتب إلى وجوه البربر
يرغبهم في الانضمام إليه ، واتحازت قلة منهم إلى جانبه ، كما أرسل إلى
إبراهيم بن أحمد الأمير الأغلبى يخبره بأن المعتمد بالله أمير المؤمنين قلده
إفريقية ويأمره بالدعوة له ، ولم ينتظر العباس رد الأمير الأغلبى وهاجم
حصن لبدة ، وقبض على عامله الأغلبى ، وأعمل فيه النهب والسلب ،
فاستعانت طائفة من أهل الحصن بشخص يسمى إلياس بن منصور
النفوسى رئيس الإباضية (4) ، فاشترك مع جيوش ابن الأغلب بقيادة قرهب

(1) ابن الداية ، سيرة أحمد بن طولون ، برلين 1894 ، ص 59.

(2) البلوى ، ابن طولون ، ص 250.

(3) محمد عبد المنعم الجمل ، تاريخ مصر الإسلامية ، الإسكندرية 2006 ، ص 52 ؛
السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب في العصر الإسلامى ، الإسكندرية 1982 ، ص
314.

(4) الإباضية : أحد فرق الخوارج تنسب إلى عبد الله بن أباض المرى التميمى ، وهى
فرقة معتدلة تحرم دماء المسلمين وسبى نراريهم وغنيمة أموالهم دلى عكس
الصفورية ، للمزيد أنظر : محمود إسماعيل ، الخوارج فى بلاد المغرب حتى منتصف
القرن الرابع الهجرى ، الدار البيضاء 1985 ، ص 50 - 51.

عامل طرابلس في التصدي لحملة العباس ، وأطبق عليه الجيشان في معركة حامية الوطيس دارت الدائرة فيها على جيش العباس وقتل منه جمع غفير وفر عائداً إلى برقة (1) .

ولما تأكد أحمد بن طولون من عودة ابنه إلى برقة ، تبادل معه عدداً من الرسائل تبين غضبه عليه ، وينصحه بالعودة إلا أن العباس لم يذعن لنصح أبيه ، وشجعه أنصاره على المقاومة ، وكانت النتيجة أن عزم ابن طولون على أن يسير بنفسه لقتال ابنه ، وسار إلى الإسكندرية سنة 268 هـ في جيش بلغ مائة ألف مقاتل ، ولما علم بضالة جيش ابنه عاد هو إلى القسطنطينية وأرسل الجيش ، وانتهى الأمر بهزيمة العباس مرة ثانية ثم تم القبض عليه ، وتم إحضاره إلى مصر ليشاهد مقتل أعوانه وضربهم بالسياط ، ثم يُضرب ويلقى في السجن .

وبالقبض على العباس خمدت تلك الفتنة الجائحة التي ظلت ثلاث سنين من 265 - 268 هـ وكان لها أسوأ الأثر في مصر حيث نفصت على ابن طولون حياته وأقلقت باله ، وعاقته عن إتمام كثير من أعمال الإصلاح التي قام بها منذ أن ولي أمور مصر ، وأقعدته عن قتال البيزنطيين لأنه عاد إلى مصر حين سمع بخروج ابنه عليه بينما كان يتأهب لغزوهم ، كما ضربت تلك الثورة أسوأ الأمثال لأهل الثغور فقد خرجوا على حكم ابن طولون كما فعل أهل طرسوس وحلب وحمص وقنسرين والجزيرة وانضموا إلى الموفق طلحة عدو أحمد بن طولون (2) .

(1) محمود إسماعيل ، الأغلبية ، ص 72 - 73 ؛ عبد الفتاح مقلد الغنيمي ، موسوعة المغرب العربي ، الجزء الثاني ، القاهرة 1994 ، ص 190 .

(2) علي إبراهيم ، مصر ، ص 55 .

وبذلك أصبح أحمد بن طولون أمير وأى أمير ! ملك بالملك جدير ، حيث أن ابن طولون بعدما قضى على جميع ما يعترضه في البلاد وبعد موت يارجوخ عام 259 هـ ، وجه عنايته للإصلاح العسكرى والاقتصادى والاجتماعى ، وأصبح حمى الله فى بلاده وظله الممدود على عباده ، به يمتنع حريمهم ، وينتصر مظلومهم وينقمع ظالمهم ، ويأمن خائفهم .

هلاقة بن طولون بالخلافة العباسية:

ذهب أحمد بن طولون إلى ما هو أبعد من استقلاله بمصر ، ذهب بنظره إلى ما هو أكبر وأعظم ، حاول أن ينقل مقر الخلافة العباسية من العراق لمصر ، وكان سبب ذلك أن أحمد بن طولون حاول أن يستغل فرصة ضعف الخليفة المعتمد ، الذى سيطر أخاه الموفق على الحكم وأصبح للمعتمد الاسم فقط ⁽¹⁾ ، وكان الموفق يكره أحمد بن طولون ويخشى من سلطاته ، وذلك لأن مركزه كان قوى فى مصر ، فأرسل إليه يطلب منه تقديم المال لكى يساعده فى حربه ضد الزنج ، فأرسل أحمد بن طولون مليون ومائتى ألف دينار ، إلا أن هذا المبلغ لم يرضى الموفق فأرسل إليه رسالة يوبخه فيها ، ولكن ابن طولون رد عليه برسالة أشد قسوة يشير له فيها أن العمل الذى هو بسبيله ليس من قبل الموفق بل من قبل الخليفة ولا يحق له التدخل فيه ⁽²⁾ .

أشد غيظ الموفق من ابن طولون وحاول أن يعزله عن مصر ، وأول ما فعل هو أن طلب من موسى بن بغا - الوصى على جعفر المفوض ابن المعتمد الذى ولاه على القسم الغربى - أن يعزل ابن طولون من مصر

(1) السيوطى تاريخ الخلفاء ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة 1975 ، ص

423 ؛ خالد عزام ، موسوعة التاريخ الإسلامى ، عمان 2003 ، ص 178.

(2) فائزة إسماعيل أكبر ، التاريخ السياسى للخلافة العباسية ، جدة 2003 ، ص

ويولى أماجور والى الشام مكانه ، إلا أن أماجور لم يقوى على مواجهة ابن طولون لذلك رفض العرض ، مما دفع موسى بن بغا أن يسير بنفسه إلى مصر ، إلا أن النزاع حدث بين جنده لذلك اضطر إلى أن يعود أدراجه ومات هو وأماجور في سنة 264 هـ .

لم يهدأ الموفق بعد فشل محاولة موسى بن بغا ، فسعى لدى المعتمد لعزل ابن طولون من ولاية الثغور التي كان قد تولاها في سنة 262 هـ ، ولكنه لم يهتم بأمرها بسبب مشاغله في مصر ، وبالفعل تم عزله عنها إلا أن الاضطرابات ثارت فيها مما اضطر الموفق إلى إعادة ابن طولون إليها ، فخرج ابن طولون إليها في هذه المرة وهو يبيت النية على ضم الشام كله إلى ملكه (1) .

وبعد حصاره لسيماء الطويل الذي تحصن في أنطاكية والقضاء عليه أصبحت بلاد الشام كلها تابعة له ، ولم يستطع الموفق فعل شيء بسبب حربه مع الزنج (2) ، ولكن في عام 268 هـ نجح الموفق في التغلب على الزنج كما نجح في كسب لؤلؤ غلام ابن طولون الذي ولده الشام ، ولكن ابن طولون خرج في حملته الثانية على الشام وأخضعها مرة أخرى بعد فرار لؤلؤ (3) .

وعقب إخضاعه للشام مرة ثانية أراد أن يقضى على الموفق فأرسل إلى الخليفة المعتمد ، يحثه على المجئ إلى مصر حتى يتخلص من سلطة أخيه الموفق ، وقال في هذه الرسالة :

(1) ابن العديم ، بغية الطلب في تاريخ حلب ، الجزء الثاني ، تحقيق : سهيل زكار ، القاهرة 1998 ، ص 828.

(4) D. Sourdel, Art: Ahmed Ibn Tulun, El², Ledien 1983, p.279.

(2) فاروق عمر فوزي ، الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية ، بغداد 1977 ، ص 147.

" قد منعنى الطعام والشراب والنوم خوفاً على أمير المؤمنين أطل الله بقاءه من مكروه يلحقه ، وأصبحنا بأصحاب أمير المؤمنين فى رده ومقارعه ، فحنث الأيمان المؤكدة له فى أعناقنا ، وقد اجتمع عندى مائة ألف عنان ، مؤلفة قلوبهم ، مجتمعة آراؤهم ، شديد بأسهم ، وأنا أرى لسيدى أمير المؤمنين أدام الله عزه بالنصر والتمكين الانجذاب إلى مصر ، فإن أمره يرجع بعد الامتهان إلى نهاية العز ولا يمكن فيه ما يخافه فى كل لحظة من عليه " (1) .

وبالفعل استجاب الخليفة المعتمد إلى دعوة أحمد بن طولون ، وخرج متظاهراً بالصيد حتى وصل إلى الرقة ، حيث كان ينتظره قائدان لابن طولون وهما ابن جيفويه ومحمد بن عباس الكلابى ، ولكن الموفق علم بالأمر فطلب من إسحاق بن كنداج عامل الموصل والجزيرة القبض على الخليفة ، فقبض عليه وأرسله إلى الموفق الذى خلع على ابن كنداج لقب ذى السيفين (2) .

وبذلك فشلت محاولة الخليفة المعتمد الاستقرار فى مصر ، وأحبط مشروع ابن طولون وهو نقل مقر الخلافة إلى الديار المصرية ، وما ينتج عن ذلك من تقوية مركزه الدولى ورفع شأن مصر بين الأمم ، واستاء ابن طولون من عمل الموفق وإسحاق بن كنداج ، وعقد اجتماع فى دمشق لعن فيه الموفق ، وأرسل إلى أهل مصر كتاباً قرئ عليهم وفيه : " أن أبا أحمد - يقصد الموفق - نكث ببيعة المعتمد وأسره وحرش عليه وأنه يبكى بكاء "

(1) ابن سعيد ، المغرب ، ص 126 - 127.

(2) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، الجزء التاسع ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة 1967 ، ص 620 ؛ حسن أحمد محمود ، الكندى المؤرخ وكتابه الولاية والقضاة ، القاهرة 1990 ، ص 142.

«وفي خطبة يوم الجمعة بمصر ، ذكر ما آل إليه أمر المعتمد ودعى له بالخلاص من ظلم أخيه (1) .

ثالثاً: علاقة أحمد بن طولون بالبيزنطيين

كانت سيطرة أحمد بن طولون على الشام جزءاً من أهدافه ، ولكن الهدف هذه المرة كان بغرض الاستمرار في الجهاد ضد "الروم" البيزنطيين ، ويبدو أن المصادر التاريخية لم تترك لنا بيانات كافية عن علاقة أحمد بن طولون بالبيزنطيين ، غير أن المنعطف الجديد ظهر في العلاقات مع البيزنطيين منذ النصف الأول من القرن التاسع الميلادي الثالث الهجري ، والذي تمثل في تأرجح قوة المسلمين بدرجة ملحوظة ، فبعد أن طالت الحرب سجالات بين الطرفين ، نرأها في هذه المرة ترجح الكفة لصالح الروم ، بالرغم من أنهم لم يحققوا انتصارات كبيرة حاسمه أو مكاسب مادية مهمة ، لظهور قوة جديدة في بيزنطة هي قوة الإباطرة المقدونيين الذين سيطروا على مقاليد الأمور في القسطنطينية.

فعلى الجانب العباسي كان القادة الاتراك كما أشرنا هم المسيطرين على مقاليد السلطنة سواء في سامراء المدينة الجديدة ، بالإضافة إلى انشغال الخلفاء العباسيين بحرب الزنج التي استفحل أمرها ، وكذلك حروبها مع القرامطة والحركات الاستقلالية هي الأخرى كانت من العوامل التي أدت إلى تشتيت قوة العالم الإسلامي حيث لم يعد الروم "البيزنطيين" يواجهون قوة إسلامية واحدة بل قوى متعددة.²

أما في مصر فقد استطاع أحمد بن طولون بعد استقلاله بمصر تجديد قواتها من جيش واسطول ، والتي أخذت في الضعف مع ضعف خلفائه العباسية إلى درجة أن تمكن الاسطول البيزنطي في عام 238 هـ - 853 م من احتلال دمياط وتنيس في عهد عنبسه بن اسحق آخر والي عربي

(1) على إبراهيم حسن ، التاريخ الإسلامي العام ، القاهرة 1994 ، ص 432.

(2) صابر محمد دياب ، الدولة الإسلامية في العصر العباسي ، القاهرة ، 2001 ، ص 226.

على مصر ، وذلك بأسطول بلغ ثلاثمائة سفينة واقتحام اشتوم التي تقع على مقربة من تنيس ، و نجح هذا الاسطول من تخريب هذه المناطق والعودة الى بلاده بعد ان وصل الدعم العباسي .

ساعدت هذه الغارة البيزنطية احمد بن طولون على الاتجاه الى تقوية وتدعيم قوة مصر البحرية ، فراح يجدد بناء دور الصناعة البحرية ، وتنشيط قواعدها في دمياط والاسكندرية وغيرهما ، حتي صارت حافلة بالوحدات البحرية ، لدرجة أنه عندما مات احمد بن طولون ترك لابنه خمارويه اسطولا بلغت قوته حوالي الف قطعه بحرية من السفن الكبيرة والصغيرة العسكرية والتجارية ، وزاد من عدد الجيش حتى بلغ من ضخامته ان بنى له ثكنات جديدة وهي مدينة القطائع شمالي الفسطاط

بعد ذلك اتبع احمد بن طولون التقليد الذي تأسس منذ عهد معاوية بن ابي سفيان وهو توحيد مصر والشام ، فضم الشام إليه بعد وفاة حاكمها اماجور كما سبق الذكر ، وجعل من الشام ومصر قوة واحدة في ميدان النشاط البحري في البحر المتوسط ، وعمل على تجديد حصون واسوار عكا ويافا وغيرهما من موانئ الشام واتخذ منها هذه مركزا للهجوم على جزر بحر ايجة ، واعادة الاسطول البيزنطي الى موضع الدفاع¹ .

واذا كان بن طولون قد أرسى الاستقرار بالشام وتنظيمه أمور الثغور ، فإنه اضطر للعودة الى مصر للقضاء على ثورة ابنه العباس² ، واطمان لوضعه

(1) عبد العظيم رمضان ، الصراع بين العرب واوروبا من ظهور الاسلام الى انتهائه الحروب الصليبية ، القاهرة ، 1983 ، ص 226 .

(2) ان تعريف الثغر يقصد به المنفذ الذي يستطيع العدو ان ينفذ منه الى دار الاسلام ، ومن اهم خصائص الثغور ، زيادة نفقاتها بحكم الاعباء العسكرية الملقاة عليها ، وقلة مواردها نظرا لافتقار الاستقرار بها ، بل ان الدولة كانت بتسمح هناك في عطاء جندها واقطاعهم الاراضي لإغرائهم على تعميرها والرباط فيها وجهاد الاعداء ، انظر ، فتحى عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربى والاتصال الحضارى ، ج 3 ، القاهرة ب ت ، ص 188 .

فيها ،وكلف قيادة هذه الثغور بتنفيذ خطته في الجهاد ضد البيزنطيين واوصاهم بالحيطه والحذر ،وبالرد على الهجوم من جانب البيزنطيين بهجو مماثل ¹.

وفي الواقع فقد تهيأ للملك المقدوني باسيل الاول من الظروف والاحوال المواتية لقتال المسلمين مالم يتهيأ لامبراطور قبله ،فالى جانب ما يربطه من علاقات سلميه مع جيرانه المسيحيين ،من الارمن والروس والبلغار والبنادقه،بالاضافه الى علاقته الطيبة مع الامبراطوريه الغربيه ،فقد سادت الفتن العالم الاسلامي من استقلال احمد بن طولون بمصر ، وانشغال الخلفه بصراعها في حرب الزنج ،ونشوب الحرب الداخليه في شمال افريقيا ،واشتداد الصراع بين المسلمين والمسيحيين في الاندلس ،ومع ذلك لم يتحقق للامبراطور البيزنطي كل ماتصبو اليه نفسه من امال ².

لقد بدأ باسيل الاول بتصفية حسابه مع الدولة العباسيه في اسيا الصغرى ،وبدأ في تعديل حدود دولته معها ،بدفع قوات الامبراطوريه شرقا على طول تلك الحدود ،من قلقليا في الركن الشمالى الغربى من البحر المتوسط الى ارمينيا وطرابيزون في الركن الجنوبى الشرقى من البحر الاسود ،وبذلك سد المنافذ الاستراتيجيه التى اعتاد المسلمون ان يزحفوا منها الى اسيا الصغرى ³.

وفي عام في عام 263 هـ - 876 م اندفع باسيل الاول على رأس جيش كبير واستولى على حصن لؤلؤة بعد ان سلمه اهله اليه ؛والذى كان يسيطر على الطريق من طرسوس الى القسطنطينيه ،ثم مالبث ان وقع والى الثغور الشاميه عبد الله بن كاوس اسيرا في ايدى باسيل

(¹) زيود ،العلاقات ،ص57

(²) السيد الباز العرينى ،الدولة البيزنطيه ،ج 1، القاهرة ،1960 ،ص 294 .

(³) سيد احمد على الناصرى ،الروم والمشرق العربى ،القاهرة ،1993 ، ص 309.

الاول في عام 264 هـ - 877 م واذا كان باسيل قد اكتفى بما احرزه من نصر جزئى فى هذه الحملة الا ان ما حققه لم يكن ليرضى غروره وحماسته الطاغية فى حرب المسلمين فى تلك الجهات ،لذا لجأت الخلافة العباسية الى احمد بن طولون فى مصر ليتولى الدفاع عن الثغور الشاميه بنفسه .

وتبعاً لذلك أثر باسيل الاول بعد ان علم بقوة احمد بن طولون ان يهادنه ،فاطلق سراح عبد الله بن كاوس وعدد من الاسرى المسلمين، وزيادة فى التقرب ارسل باسيل إليه عدداً من المصاحف على سبيل الهدية ،ولكن من الثابت ان باسيل الاول - وأن لم يغير كثير فى الاوضاع فى الشرق مع المسلمين - الا انه نجح فى الاستيلاء على معظم المعابر التى كانت تنفذ منها الجيوش الاسلاميه الى اسيا الصغرى.¹

ولكن الحرب عادت من جديد،حيث قام امير طرسوس بشن غارة بحريه على جنوب اسيا الصغرى فى سنة 268هـ - 881 م وتوغل فى بحر ايجيه حتى اقترب من الدرنديل وذلك ردا على غارة قام بها البيزنطيون على بلاد الشام.²

والمعروف ان يازمان استولى على حكم طرسوس قبيل وفاة احمد بن طولون ،وقد اشتهر بالجهاد ضد الروم ،واستمرت فى عهده بعض الغزوات ضد الروم ،وكان اسطول المسلمين يغزو الجزائر اليونانيه فى بحر الارخبيل وينقض على موانئ اسيا الصغرى وكان يازمان هو صاحب

(¹) محمد محمد مرسى الشيخ ،تاريخ الامبراطورية البيزنطيه ،الاسكندريه ،1994،ص 191 .

(²) وليام لانجر ،موسوعة تاريخ العالم ،ت :السيد الباز العرينى ،ج2 ، القاهرة،1959، ص 521، رمضان ،الصراع بين العرب واوروبا ،ص 226 .

النصيب الأكبر في تلك الغزوات ، بل وقام بخلع أحمد بن طولون قبل وفاته ، كما لم يعترف بسلطان ابنه خمارويه من بعده.¹

وفاة أحمد بن طولون :

بعد أن فرغ ابن طولون من اجتماع دمشق ، اتجه إلى طرسوس وكان حاكمها يسمى يازمان ، فأرسل ابن طولون إليه وفداً يدعوه إلى طاعته والدعاء له على منابرهما ، ولكن يازمان رفض فزحف ابن طولون من المصيصة إلى أذنة ثم إلى طرسوس ، فوجد يازمان متحصناً بها وقد نصب المجانيق على سورها ، فحاصره ابن طولون ولكن الأحوال الجوية كانت سيئه في ذلك الوقت إذ كان المطر شديداً والبرد قارصاً ، ومما زاد الطين بلة أن يازمان فجر نهر البردان على أحمد بن طولون وجنوده ، فغرق الكثير من الجنود وهلك العديد من السودان بسبب البرد ومرض أحمد بن طولون (2) .

رحل أحمد بن طولون ومن معه ليلاً حتى وصل إلى أنطاكية ، وهناك قدم له لبن جاموس فنصحته الأطباء بعدم الإكثار منه حتى لا يزداد مرضه ، ولكن ابن طولون لم يستجب لنصيحة الأطباء وأكثر من شرب لبن الجاموس حتى أصابه منه تخمة وتزايدت حتى أصبحت تذب أي فساد المعدة (3) ، وهنا رأى سعيد بن نوفل طبيبه أن يعود إلى مصر .

ولم يكن ابن طولون يستمع لأطبائه حتى قال با نتوفل : " لأنه يتكر على ما لا ينكر ، ويخالف علاجه ما ينفعه ، ويسارع إلى ما أضره منه ، وأنهاه عنه ، فإذا حدث ما يكرهه نسبني إلى أنى قصرت في علاجه ، وجعل الذنب لي " ، وتزايدت علة أحمد بن طولون فأمر الناس بالدعاء

(1) سيده كاشف ، أحمد بن طولون ، ص 119 .

(2) حسن أحمد ، الكندي المؤرخ ، ص 142 - 143 .

(3) أبي الفدا ، المختصر في أخبار البشر ، القاهرة 1988 ، ص 240 .

له ، ففدا الناس إلى مسجد محمود بسفح المقطم يدعون له ، وحضر
النصارى حاملين الأنجيل واليهود حاملين التوراة كلهم يدعون لأحمد بن
طولون بالشفاء (1) .

استمر مرض ابن طولون العشرة أشهر ، ويبدو أنه يئس من
نفسه فباع لأبنة خماروية بالملك من بعده ، وولاه مصر وولّى ابنه
العباس الشام والثغور واشترط عليه مبايعة أخيه خماروية أولاً ، ثم توفي
ليلة الأحد في العاشر من ذي القعدة سنة 270 هـ وله من العمر خمسون
سنة ، ودفن بسفح المقطم (2) .

خمارويه :-

بويح (خمارويه) بعد وفاه والده مباشرة والتف حوله القادة
وزعماء الجند ورجال الدولة وبدأت وحدة الصف كاملة في وقت كان
الأعداء متربصون بها³ ، وكان عليه أن يدافع عن الدولة التي أقامها والده
في مصر، وإن يحتفظ بالشام، كما كان عليه أن يستأنف النضال الذي كان
قائما بين الطولونيين ودار الخلافة العباسية⁴ . وكانت مبايعته في 11
ذي القعدة سنة 270 هـ فولّى السري بن سهل على الشرطة، واحضر أخاه
العباس لمبايعته فامتنع فحبس في أحد سجون الحكم⁵ .

(1) الحنبلى ، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، الجزء الأول ، بيروت 1994 ، ص
157 ؛ حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام ، الجزء الثالث ، القاهرة 1996 ، ص
136.

(2) المسعودى ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، المجلد الثانى ، تحقيق : محمد محيى
الدين ، بيروت 1989 ، ص 579 ؛ الياقنى ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، الجزء
الثانى ، تحقيق : خليل المنصور ، بيروت 1997 ، ص 136.

(3) حسن احمد محمود ، منى حسن احمد محمود، مصر الاسلاميه، القاهرة، 2001، ص 100

(4) حسن احمد محمود ، احمد إبراهيم ، العالم الإسلامى ، القاهرة، 1995، ص 338

(5) الكندي، ولاية مصر، بيروت، 1995، ص 258

وكان لابد من تثبيت قدمه في الحكم مخافة الفرقة والتنازع لأنه إذا اختلف الأبناء كان ادعى لاختلاف الجند وتفرق القيادة وتفتت العصية¹، فقد كان العباس ابن طولون بغیضا للجيش بقدر ما كان بغیضا لبطانة أبيه إلى أن يقسم يمين الولاء لأخيه (خمارويه)²؛ لذا اجتمع أهل الدولة وكبار القادة واتفقوا على بيعه (خمارويه) واحضروا العباس من محبسه ليشهد تولية أخيه³.

هذا وولد (خمارويه) في سنة 250هـ ببلدة سامراء (سري من رأى) بالعراق، وأمه جارية تدعى (مياس) أهداها المستعين بالله لأبيه، وحكم وعمره 20 عاما باستخلاف أبيه⁴. كما خلف أبوه له مشكله أخيه العباس وأعداءه القدامى وعلى رأسهم (الموفق)⁵.

وبمجرد أن أحس خمارويه بالخطر الذي يهدد ملكه عمل على تدعيم مركزه في مصر ليواجه أعداء أبيه القديم وعلى رأسهم الموفق⁶، فعمل على الاهتمام بالجيش من أجل البقاء ومن أجل القوة والنفوذ وتجلت هذه العناية في استخدام مجندين جدد من أسيا الوسطي⁷، كما جند العرب المقيمين في منطقة الحوف⁸، وانتقى منهم من عرف بالشجاعة وضخامة الأجسام والشدة واهتم بتدريب الجنود وتصليحهم وكون منهم فرقة خاصة عرفت (بالمختارة)⁹، واهتم بمظهر الجند الخارجي وزيهم

(¹) جرجي زيدان، المؤلفات الكاملة، بيروت، 2003، ص54.

(²) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص65.

(³) بن خلدون، تاريخ بن خلدون، بيروت، 1992، ص366.

(⁴) بكر محمد إبراهيم، الدولة العباسية، القاهرة، 2002، ص226.

(⁵) سيده إسماعيل، جمال الدين سرور، تاريخ مصر عبر العصور، 1994، ص174.

(⁶) على الخربوطلي، مصر العربية الإسلامية، القاهرة، 1772، ص78.

(⁷) محاسن الوفاة، تاريخ مصر الإسلامية، القاهرة، 2007، ص101.

(⁸) الخربوطلي، مصر العربية، ص78.

(⁹) محاسن الوفاة، تاريخ مصر، ص101.

وسلاحهم وأراد (خمارويه) أن يوفر الاستقلال الداخلي ليتفرغ للموفق¹ .
وكان حكيمًا في اختيار حرسه الخاص من عرب الحشوف الذين
يسكنون شرقي الدلتا وكانوا يلقون السلطة بالسلب والنهب، فرأى أن
يبعدهم عن ذلك وكون منهم فرقة خاصة اتخذها حرسًا خاصًا له² .

هذا وسار خمارويه على سياسة أبيه في بلاد الشام من التقرب
للأهالي وكسب ودهم، وتبني فكرة الجهاد في الثغور الشامية وقام بنشر
الأمن والطمأنينة، وعمل على حماية طرق الحج³ .

هذا وأخذ خمارويه على عاتقه الحفاظ على أملاك الدولة الطولونية
في الشام ، لأنه وضع في اعتباره أنه إذا فقد السيادة على بلاد الشام
انتهى أمره في مصر . وقد صبح ما توقعه ، فما كادت تصل إلى سامراء
مركز الخلافة العباسية أنباء وفاة أحمد بن طولون ، وتولية خمارويه
السلطة حتى انبعثت الفتنة من مراقدها وضاعت عروض السلام هباء.

في الوقت نفسه عمد الموفق إلى استغلال إسحاق بن كنداج،
الذي سبق أن عقد له على مصر أثناء الأزمة التي ثارت بينه وبين ابن
طولون، ومادام الخليفة العباسي لم يعترف بخمارويه أميراً، فإن إسحاق
كان لا يزال صاحب الحق الشرعي ، وأن عليه إذا أراد أن يتولي مصر
فليسر إليها ، وينتزعها بالقوة من خمارويه ، وضم إليه خصم الطولونيين
العنيد محمد بن أبي الساج⁴ .

(¹) الخربوطلي، مصر العربية ، ص 79.

(²) سيده إسمايل، جمال الدين سرور ، تاريخ مصر عبر العصور ، ص 179.

(³) محمد أحمد زيود ، العلاقات بين الشام ومصر في العهد الطولوني
والإخشيدي، القاهرة، 1995، ص 63 .

(⁴) أحمد عبد الرازق ، تاريخ وأثر مصر الإسلامية ، دار الفكر العربي ، 2004 ،

وبعث إليهما الخليفة الموفق بابنه أبي العباس أحمد على رأس القوات العراقية، التي استطاعت أن تستولي بالفعل على الرقة وقنسرين والعواصم ، وهزمت بعض أنصار الطولونيين، ثم ما لبثت القوات العراقية أن دخلت دمشق ، ومضت إلى الرملة تريد أن تشق طريقها إلى مصر ، فأسرع خماروية وعقد لأحمد بن محمد الواسطي على جيش الشام في ذي الحجة سنة 270هـ ، وسعد بن الأيسر على فرقة أخرى من الجيش المصري ، كما سير مراكب كثيرة في البحر رابطت بسواحل الشام استعداداً للطوارئ.

بيد أن خيانة الواسطي الذي بعث بكتاب إلى الموفق يصغر فيه أمر خماروية ويحضه على المسير إلى مصر ، كانت سبباً في الهزيمة التي لحقت بالطولونيين عند شيزر، وسهلت للقوات العراقية الدخول إلى دمشق، إلا أن خماروية أسرع في الخروج إليهم في جيش يتألف من سبعين ألف مقاتل غير مبال بالخطر¹.

وإذا كان جيش خماروية قد بلغ سبعين ألفاً ، مضافاً إليهم الجيش الذي خرج به الواسطي وسعد الأيسر فإن معنى ذلك أنه لم يترك في مصر قوات كافية يعتمد عليها في الدفاع عن البلاد إذا لم يكن من التفهقر بد² ، وعلى أية حال حدثت أمور خطيرة ، حيث وقع الخلاف بين إبن كنداج وإبن أبي الساج³.

وتفصيل ذلك أن إبن كنداج وإبن أبي الساج قد اختلفا مع بعضهما البعض ، ومع المعتضد بن الخليفة الموفق، ولذا فقد قرر المعتضد خوض الحرب مع خماروية غير مكترث بما حدث ، وعلى الجانب الآخر قرر خماروية خوض الحرب مدافعاً عن أملاك الدولة الطولونية في

(1) أحمد ، مصر ، ص 98 .

(2) حضارة مصر في العصر الطولوني ، دار الفكر العربي ، بت ، ص 105 .

(3) حسن ، العصر الطولوني ، ص 106 .

الشام، متحدياً ما جرى من تحالف ثلاثي ضده متمثلاً في الموفق الخليفة وابن كنداج عامل الموصل والجزيرة وابن أبي الساج في الاستيلاء على أملاك الدولة الطولونية في الشام ومصر ، إضافة إلى خيانة قائده الواسطي .

وفي سنة 271هـ كانت وقعة الطواحين على نهر فطرس بين الرملة ودمشق ، وقد دخل الموفق بـصاكر العراق إلى دمشق ومعه المعتضد ، وخرج إليه خماروية بالصاكر المصرية والتقى وحملت ميسرة المعتضد وانهزم خماروية وعاد إلى القسطنطينية¹ . وعلى أية حال اتفقت المصادر على هزيمة خماروية وفراره من الحرب التي كان لا ناقة له ولا جمل فيها ، ولا علم له بفنون الحرب² .

وهكذا تخلى خماروية عن جيشه وعاد فاراً إلى مصر؛ ولكن شاء القدر أن تتبدل الأحوال وتتحول الهزيمة إلى نصر بفضل القائد سعد الأيسر الذي نصب كميناً للقوات العباسية المتحالفة أثناء انشغالها بجمع غنائم الحرب؛ أجبرها على التراجع صوب دمشق حيث أغلقت أبوابها في وجوههم ، فأنزل بهم سعد الأيسر هزيمة منكرة، وتمت الهزيمة على العراقيين وقتل وأسر منهم خلقاً كثيراً، وعندما وصل إلى خماروية نبأ هذا الانتصار تجددت في نفسه روح الأمل³ .

(¹) الطبري ، تاريخ الطبري ، ج 10 ، تحقيق : محمد أبو الفضل ، دار المعارف ، مصر 1967 ، ص 8 ؛ ابن شداد ، الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، ج 2 ، تحقيق : يحيى زكريا ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق 1991 = ص 277 ؛ الدواداري ، الدرر السنية في أخبار الدولة العباسية ، ج 5 ، تحقيق : دوروثيا كرا فوكي ، بيروت 1992 ، ص 288 ؛ أحمد ، مصر ، ص 98 .

(²) الطبري ، تاريخ ، ص 8 ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ص 347 .

(³) الطبري ، تاريخ ، ص 9 ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ص 348 ؛ ابن شداد ، أمراء الشام ، ص 277 ؛ الدواداري ، الدولة العباسية ، ص 288 ؛ أحمد ، مصر ، ص 98 ، محمد جمال الدين ، تاريخ الدولة الفاطمية ، دار الفكر العربي ، 1995 ، ص 48 .

ويجدر بنا أن نوضح أن سعد الأيسر لو كان يعلم فرار خماروية من أرض المعركة لكان هو الآخر ترك أرض المعركة ، وحسبنا ما أوضحته المصادر بأنه أقام أخاه أبا العشائر عندما لم يجده ، وأغلب الظن أن سعداً استخف بخماروية بعد هذا النصر وأراد الإنفراد ببلاد الشام ، مما اضطر خماروية إلى الخروج إليه وتغلب عليه وقتله ، بل ودخل دمشق وملكها سنة 273 هـ ، ومن المرجح أن هذا الحادثة كانت سبباً في حرص خماروية على تتبع العناصر المناوئة له ، حيث بدأ بإسحاق بن كنداج الذي أنزل به هزيمة فادحة بأرض الرافقة ، وظل يتعقبه حتى بلغ مشارف مدينة سامراء مما اضطره إلى مصالحة خماروية ، وأن يكون عاملاً من عماله يدعو له على المنابر بعد أن كان يدعى الأمانة على مصر . ونجح خماروية أيضاً في القضاء على محمد بن أبي الساج في سنة 274 هـ في ثنية العقاب بأرض دمشق¹ .

وبهذا النصر الذي حققه خماروية على المعتضد وابن كنداج وابن أبي الساج -بتدخل القدر- أثبت أنه خير خلف لأبيه أحمد ، وأصبح سيد الرقة والموصل وأرمينا وطرسوس . وامتدت سيادته إلى بلاد فارس على نهر التايغر؛ ولكن كما تشير المصادر المعاصرة أنه رغم هذه الانتصارات التي أحرزها خماروية فقد كان البادئ بطلب الصلح والتفاهم مع الخليفة ، إذ كتب إلى الموفق في طلب الصلح وهو ببلاد الشام على مال يدفعه ، فرضى الخليفة وبعث إليه بكتاب مع فائق الخادم في رجب سنة 273 هـ ، وأرسل له تفويضاً موقعاً عليه من الخليفة المعتمد وأخيه الموفق يتضمن حكم الشام ومصر والثغور الشامية وأن ينفرد بها ثلاثين سنة هو وولده على حد تعبير الكندي ، ولا يهدد بعزل أو تدخل في شئونه . والحق أن هذا الكتاب جاء تسجيلاً لحقيقة قائمة ، وإعترافاً بنفوذ حصل عليه خماروية فعلاً ، كما جاء إقراراً للسلام في هذه المنطقة الهامة من الشرق

(¹) أحمد ، مصر ، ص 99 .

الأئني ، وكان طبيعياً أن يسترد الموفق مكانه الطبيعي في خطبة الجمعة باعتباره ولي العهد ¹ .

على أية حال مات الموفق سنة 278هـ، ثم تبعه الخليفة المعتمد سنة 279هـ ، فبوع المعتضد بن الموفق في صبيحة الليلة التي مات فيها عمه المعتمد ، وقد حمل عدة صفات نبيلة تحدثت عنها المصادر؛ فكان ملكاً شجاعاً ، مهيباً ، ظاهر الجبروت ، وافر العقل ، شديد الوطأة ، وكان علافاً في الرعية مع مهابة وسطوة ، أسمر ، نحيفاً وكان يقدر على منازل الأسود حيث يروي أنه خرج للصيد وانقطع عنه العسكر فخرج عليه أسد فصرعه بسيفه ² .

وبموت الموفق وأخيه المعتمد استراح خماروية من المضايقات فدعم سلطانه على مصر والشام ³ . ولكن من الجلى أن الاتفاقية التي عقدت بينه وبين الخلافة أعطته الحق في التصرف في تلك المناطق كيفما شاء. لذا بمجرد علمه بوفاة المعتمد وتولية المعتضد بعث إليه بالهدايا والرسائل ، وكان رد الفعل عظيماً حيث أرسل إليه الخليفة في سنة 280هـ تقليداً بولايته هو وولده ثلاثين سنة من الفرات إلى برقة ، وجعل إليه الصلاة والقضاء والخراج وجميع الأعمال ، على أن يحمل في كل عام من المال مائتي ألف دينار عما مضى ، وثلاثين ألف عن كل عام للمستقبل . ثم قدم رسولا للمعتضد في شهر رمضان بالخلع ، وهي إئتسا

(¹) أحمد ، مصر ، ص 99 ؛ محمد ، تاريخ ، ص 48 .

(²) للذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ص 991 ؛ أبو المحاسن ، الخلافة ، ص 172 ؛ الكتبي ، فوات الوفيات والذيل عليها ، المجلد الأول ، تحقيق : إحسان عباس ، دار صابر ، بيروت 1973 ، ص 73 ؛ السيوطي ، الخلفاء ، ص 341 .

(³) إبراهيم أيوب ، التاريخ العباسي السياسي والحضاري ، دار الكتاب العالمي ، 1989 ، ص 118 .

عشرة خلعة وسيف ووشاح مع خادم¹ يدعى سنيف أى أن سلطان خماروية أصبح يشمل مصر وسوريا حتى جبال طوروس ، فضلا عن إقليم الجزيرة (أى الأطراف الشمالية من أرض بين النهرين)² .

ولكن ثمة شروط تحتاج إلى توضيح في تلك المعاهدة ، وهى ما قضت به من إعطائه الصلاة والخراج والقضاء وجميع الأعمال ، فكان هذه النصوص ألغت آخر قيد على استغلال مصر الداخلى في عهد خماروية، ونعتقد أن أحمد بن طولون لم يكن له حق تولية الأعمال في البلاد دون رأى الخليفة وموافقة ، وقد رأينا كيف أن بن طولون أستأن الخليفة المعتمد في تعيين عامل الخراج ، ويبدو أن المعاهدة أعطت خماروية فوق ذلك كله حق تعيين القضاء، وهذا تطور بعيد المدى في استقلال مصر إدارياً وقضائياً ، فقد كان القضاء في الدولة الإسلامية من الأمور الخاصة بالخلافة ، وكان الخليفة هو الذى يعين القاضى في مصر³ . ولاغرو أن خماروية استطاع أن يكسب رضا الخليفة بهدايا ، بهذه المعاهدة حمل خماروية خزائن دولته ما لم تكن تطبيقه ، فقد حمكه المعتضد طبقا لأراء المؤرخين ما لم يدفعه أبيه أحمد طوال فترة خلافه مع

(¹) الكندى ، ولاة مصر ، تحقيق : حسين نصار ، دار صادر ، بيروت ، ص 264؛ الأزدى ، أخبار الدول المنقطعة ، تحقيق : على علمر ، مكتبة الثقافة الدينية ، 2001 ، ص 72؛ أحمد صبحى ، شخصية مصر ، مكتبة النهضة الحديثة ، 1984 ، ص 45؛ سيد أمير على ، مختصر تاريخ العرب ، ت. عفيف البعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت 1961 ، ص 260؛ صابر محمد دياب ، دراسات فى تاريخ مصر الإسلامية وحضارتها ، دار النهضة العربية ، 1976 ، ص 155؛ على حسن الخربوطلى ، مصر العربية الإسلامية ، ص 80؛ ل. أسيديو ، تاريخ العرب العام ، ت: عادل زعيتر ، دار إحياء الكتب العربية ، 1948 ، ص 235 .

(²) (كليفورد ، الأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى ، ت : حسين على ، مؤسسة الشراع العربى ، الطبعة الثانية ، 1995 ، ص 75 .

(³) حسن ، العصر الطولونى ، ص 118 .

الخلافة العباسية، وخاصة فترة الموفق ، فإذا عقدت مقارنة بين المعاهدة الأساسية مع الموفق وتجديده مع المعتضد لوجدت أن المعتضد كان أذكى من أبيه وعمه في تحميل خزائن مصر ما لم تكن تطبيقه .

تروى المصادر المعاصرة والحديثة عن حدث زواج قطر الندي ابنة خمارويه والنفقات التي أنفقت في هذا الزواج بعد مهادنة مصر والخلافة العباسية ، ففي سنة 282هـ قدم الحسن بن عبد الله المعروف بالجصاص رسولا من مصر من قبل خمارويه ، ومعه هدايا كثيرة وأموال جليلة وطراز ، فوصل إلي المعتضد، ثم سعى في تزويج ابنة خمارويه من المكتفى ، فقال المعتضد : إنما أراد أن يتشرف بنا ، وأنا أريد في تشريفه، أنا أتزوجها ¹ .

وتدلنا مسألة الزواج على مبلغ حرص الدولة العباسية على المحافظة على ود مصر ، مع أن مصر كانت ولاية تابعة لها ، ولا شك أن السر هو قوة مصر وثرواتها ، واتساع رقعة البلاد التي تحت سلطتها حتى بات يرغب في مصاهرتها الخليفة بنفسه ² .

ويذكر المقرئ عن جهاز العروس :

" ثم أخذ في تجهيز ابنته ، فجهازها ضاهى به نعم الخلافة ، فلم يبق خطيرة ولا طرفة من كل لون وجنس إلا حملة معها ، فكان في جملة دكة أربع قطع من ذهب عليها قبة من ذهب مشبك في كل عين من

(¹) الطبرى ، تاريخ ، ص 30 ؛ المسعودى ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق : محمد محى الدين ، الشركة العالمية للكتاب ، بيروت 1990 ، ص 599 ؛ ابن عبرى ، مختصر الدول ، ص 131 ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج 11 ، تحقيق : على محمد معوض ، دار الكتب العلمية ، 1997 ، ص 61 ؛ أحمد مختار العبادى ، فى التاريخ العباسى والأندلسى ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ص 136 .

(²) على إبراهيم حسن ، مصر فى العصور الوسطى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ب.ت، ص 58 .

التشبيك قرط معلق فيه حبة جواهر لا يعرف لها قيمة ، ومائة هون من ذهب ¹ ، كما كان في جهازها أربعة آلاف تكيه مجوهره ، وعشر صناديق جواهر ² ، وقدر مهرها بمبلغ مليون درهم ، وقوم جهازها بمليون دينار ، وأعطت ابن الجصاص الذي مشى في الجهاز مائة ألف درهم ³ . ونستدل من محتويات هذا الجهاز وفخامته على مبلغ الرخاء الذي ساد مصر في عهد خماروية وعن درجة تقدم الصناعة ، فقد راجت في هذا العصر صناعة الذهب بصفة خاصة ، وصناعة النحاس وامتدت مظاهر الرواج إلى أبعد ما يمكن أن نسميه (صناعة الترف) التي تطلبتها الحياة الاجتماعية المترفة في قصور آل طولون ⁴ . وأغلب الظن أن خماروية قد وجد مالا كثيراً خلفه له أبوه فأتاح له الفرصة أن يتغالى مغالة شديدة في بناء قصوره وحفلاته ، وأيضاً في زواج إبنته قطر الندى ؛ كما بلغت نفقته على جنده تسعمائة ألف دينار في السنة ، واستكثر من الجواري والغلمان حتى شاع أمره ، وكثرت نفقته على طعامه لدرجة أن الباقي في مطبخه من أصناف المأكول كان يزيد عن حاجة الخدم فيبيعونه مما كان له بالغ الأثر في أن يصيب بيت المال بهزة شديدة جعلت اقتصاديات البلاد - وبالتالي شلونها الأخرى - في حالة اضطراب وضعف شديدين ⁵ .

(²) المقرئ ، الخطط المقرئية ، ج 2 ، تحقيق : خليل منصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت 1998 ، ص 129 ؛ محمد الخضرى بك ، محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية ، مؤسسة المختار ، 2003 ، ص 302 .

(³) سيدة الكاشف ، حسن أحمد محمود ، مصر في الطولونيين والأخشيديين ، مكتبة الأنجلو المصرية ، 1960 ، ص 113 ؛ على ، العصور الوسطى ، ص 58 .

(⁵) عباده كحيلة ، العقد الثمين في تاريخ المسلمين ، الكويت 1996 ، ص 235 ؛ فريد شافعى ، العمارة العربية في مصر الإسلامية ، الهيئة المصرية العامة ، 1970 ، ص 512 .

علي أية حال كان عصر خمارويه هو أوج ازدهار الدولة الطولونية فلما توفي سنة 282هـ كانت بداية النهاية فقد تولى الحكم طولونيين ضعاف لم يسدوا الفراغ الذي تركه خمارويه¹ . وبوفاته أضربت أحوال الدولة بسبب تدخل الجند وتنافس الأمراء الطولونيين فيما بينهم واشتعلت الفتن والثورات وأصبح من المؤكد أن البيت الطولوني فقد عنصر القوة الذي كان يتمتع به² .

أبو العساكر جيش بن خماروية

حكم مصر بعد مقتل خماروية ، ثلاثة من آل طولون ، لم يزد حكمهم جميعاً على عشر سنوات ، سقطت بعدها الأسرة الطولونية ، وشهدت هذه السنوات العشر الأخيرة من تاريخ الدولة الطولونية انحلالاً واضحاً وتدهوراً سريعاً . وبعد أن بلغت تلك الدولة أوج قوتها ومجدها وعظمتها على عهد خماروية وزاد من ذلك الانحلال انقسام البيت الطولوني على نفسه ، فأبناء خماروية كانوا صغراً ضعفاء ليس لهم من أسباب الهيبة والنضج ما يجعلهم موضع احترام الجند ، وأخوة خماروية كانوا أشداء أقوياء ، كل منهم متحفظ للحصول على نصيب الأسد من تركة أبيهم أحمد بن طولون . وجند خماروية وغلتماته وقادة جيشه أفسدتهم النعمة العريضة التي عاشوا فيها في كنف خماروية ، بعد أن دللهم وأغرق عليهم .

بعد مقتل خماروية خلفه ابنه الأكبر أبو العساكر جيش وكان شاباً صغيراً في الرابعة عشرة من عمره لا يحسن من الأمر شيئاً ، والتف حوله طائفة من أمثاله الغلمان ، أمثال بندكوش ، وخضر وابن البواش ، فأفسدوا أمره وزينوا له قتل عمه أبي العساكر ، حتى قبض عليه وقتلوه الأمر الذي أغضب الناس عليه ، ونفر منه الجند وعملوا على خلعه ،

(¹) علي الخربوطلي ، مصر العربية ، ص 80

(²) حسن احمد محمود ، العالم الإسلامي ، ص 339

وخاصة أن الجيش الذي كونه جده أحمد بن طولون كان قد أصبح القوة الفعلية في البلاد ، ولم يكن من الممكن أن يملأ مثل هذا الغلام أعين القواد فتخلى عنه أكبرهم مثل خاقان المفلحي ، ومحمد بن إسحاق بن كنداج ، ووصيف بن سوار تكين ، وبنده بن المجور وأخيه محمد بن لمجور وغيرهم ، وشكوا إلى بعضهم البعض من تصرفاته . وزاد من غضب قادة الجيش عندما علموا أنه عندما يسرف في الشرب ويستبد الخمر بعقله يقول لندمائيه واحداً بعد آخر . "غدا ألقذك موضع فلان وأهلب لك داره وأسوغك نعمته ، فأنت أحق من هؤلاء الكلاب" أي قادة الجيش .

وكان كبير الجند يدعى أبو جعفر بن أبي فتحدث إليه القواد في شأن أبو العساكر جيش وقالوا له : "أنت خليفة أبيه وكان ينبغي لك أن تؤدبه وتسدده ؛ فقال لهم : قد تكلمت جهدي ، ولكن لم يسمع مني .." .

وعلى الرغم من خروج طغج بن جف أمير دمشق وابن طوغان أمير الثغور عن طاعته وأسقطا اسمه من الخطبة على المنابر ، ومع هذا فلم ينزعج مما حدث واستمر في لهود مع الأوباش ، حتى اجتمع عليه رجال أبيه وقرروا ضرورة خلعه وطلبوا منه أن يتنحى ليحل محله عمه نصر بن أحمد بن طولون في الحكم ، ولكن جيش رد عليهم بأن دخل على عمه - وكان معتقلاً - فضرب عنقه ، وقذف برأسه إلى الجند قائلاً لهم "خذوا أميركم" فلما رأوا ذلك هجموا عليه وقتلوه وقتلوا أمه وكاتبه وأصحابه ونهبوا داره وأحرقوها ، ووقع في أيديهم ما يملأ قلوبهم وعيونهم حتى قيل أن بعضهم من كثرة ما حصل له ترك الجندية وسكن الريف ، وصار من مزارعيه وتجاره ، بعد أن استمرت ولايته تسعة أشهر وأثنى عشر يوماً .

أبو موسى هارون بن خماروية

ومرة أخرى اتجه قادة الجيش نحو تعيين أحد أبناء خماروية ، تظاهرا بالولاء لبيته وتخوفاً من أن يلج الإمرة إخوة خماروية الناضجين ،

وكان أن تمت مبايعة أبو موسى هارون بن خماروية - وكان صبياً صغيراً ، وكانت بيعته بغير عطاء الجند ومع ذلك فقد بايعوه جميعاً ولم يمتنع عليه أحد ، فقام بالوصاية عليه أبو جعفر بن أبي ، وهو رجل ذو دهاء ومكر ومن كبار رجال ابن طولون ومن أقرب الخلاء إلى قلب خماروية ، وأحرص الناس على أن يظل السلطان في بني خماروية لا يتجاوزهم إلى سواهم . فثبت ملكه بعد أن تم التخلص من جميع حاشية أخيه جيش . بيد أن أحوال البلاد كانت مضطربة ، ولم يكن يرجى للدولة صلاح على يديه ، وخاصة أن هذه الدول كانت لا تقوم على أساس من سياسة أو هدف أو سند من أهل البلاد ، وإنما ينشئها طموح رجل فرد ، فإذا انقضى أمره زالت الدولة ، وكان جند الدولة الطولونية قد فسد أمره وتفرقت وحدته ، لأنه كان يتكون من فرق من الترك وأخرى من السود ، وجماعات شتى هم أخلاط من المرتزقة أهمهم الروم الذي كان أمرهم قد علا بفضل ثلاثة من قوادهم هم بدر الحماسي ، وفائق ، وصافي السابق نكرهم ، وكتوا حسب ما جاء في المصادر التاريخية من خيرة القواد عقلاً وقدره .

وقد شارك ابن أبي في مغامره ثلاثة من قواد الجيش الطولوني هم بدر الحماسي ، وفائق ، وصافي ، وكان كل واحد منهم يسيطر على فريق من الجيش يخضع له خضوعاً تاماً . وأصبحت شئون الدولة والحكم قسمة بين ابن أبي وبين هذا الثالوث من القواد ، فحقد عليهم الباقون ، وخاصة السود ، يضاف إلى هذا أن ربيعة بن أحمد ابن طولون ، وهو عم هارون ، قد أنكر ولاية هذا الغلام وحدثته نفسه بطلب الولاية لنفسه ، إلا أن هارون استطاع بفضل اعتماده على طوائف الجند من السود القضاء على عمه وقتله .

وتشير بعض المصادر أن ربيعة ظل يقاتل حتى اجتمع له من عسكر هارون من قبض عليه وضرب بالسياط حتى فاضت روحه . واستمر هارون في إمرة مصر من غير منازع ، لكن أحوال مصر كانت مضطربة ،

إلى أن ورد على هارون خبر وفاة الخليفة المعتضد بالله زوج أخته قطر الندى ، وذلك فى ربيع الآخر سنة 289هـ / مارس 902م ، وتولى ابنه محمد الملقب بالمكتفى الخلافة مكانه . كما بدأت فى الوقت نفسه حركة القرامطة تجتاح الشام فى عام 290هـ / م فجهز هارون جيش كبير وتصدى لها ، الأمر الذى استنفذ فيه جانباً كبيراً مما كان قد بقى لجيشه من قوة .

وزاد الطينة بلة تلك الوحشة التى وقعت بينه وبين الخليفة المكتفى ، الذى طمع فى استعادة سلطان مصر ، لذلك أرسل لحرب هارون محمد بن سليمان وكان محمد هذا من خدم أحمد بن طولون ، إذ استخدمه لؤلؤ الطولونى كاتباً له ، فلما انحرف لؤلؤ عن بنى طولون ، وانضم إلى رجال الخلافة العباسية انحرف معه محمد بن سليمان ، وما زال أمره يرقى حتى أصبح فى جملة القواد ، حتى نذبه الخليفة العباس المكتفى للقضاء على آخر الطولونيين .

وقد ظلت أمور البلاد مضطربة فى عهد هارون ابن خمارويه ، واستمر هو متشاغلاً "باللهو والسكر" فاجتمع عماء شيبان وعدى ابن أحمد بن طولون على قتل ابن أخيهما هارون ، ونجحاه وهو ثمل فى سنة 292هـ / 904م وهو لا يزال فى الثانية والعشرين من عمره ، وكانت ولايته على مصر ثمانى سنوات وثمانية أشهر وبضعة أيام ، وبعد قتل هارون نادى قتلته بعمه شيبان أميراً على مصر ولقب بأبى المواقيت ، وكان شيبان هذا "أهوج ، جسوراً ، جسيماً ، جلدأ شديد البدن فى عنفوان شبابه ، فصار يسرع فى أموره .

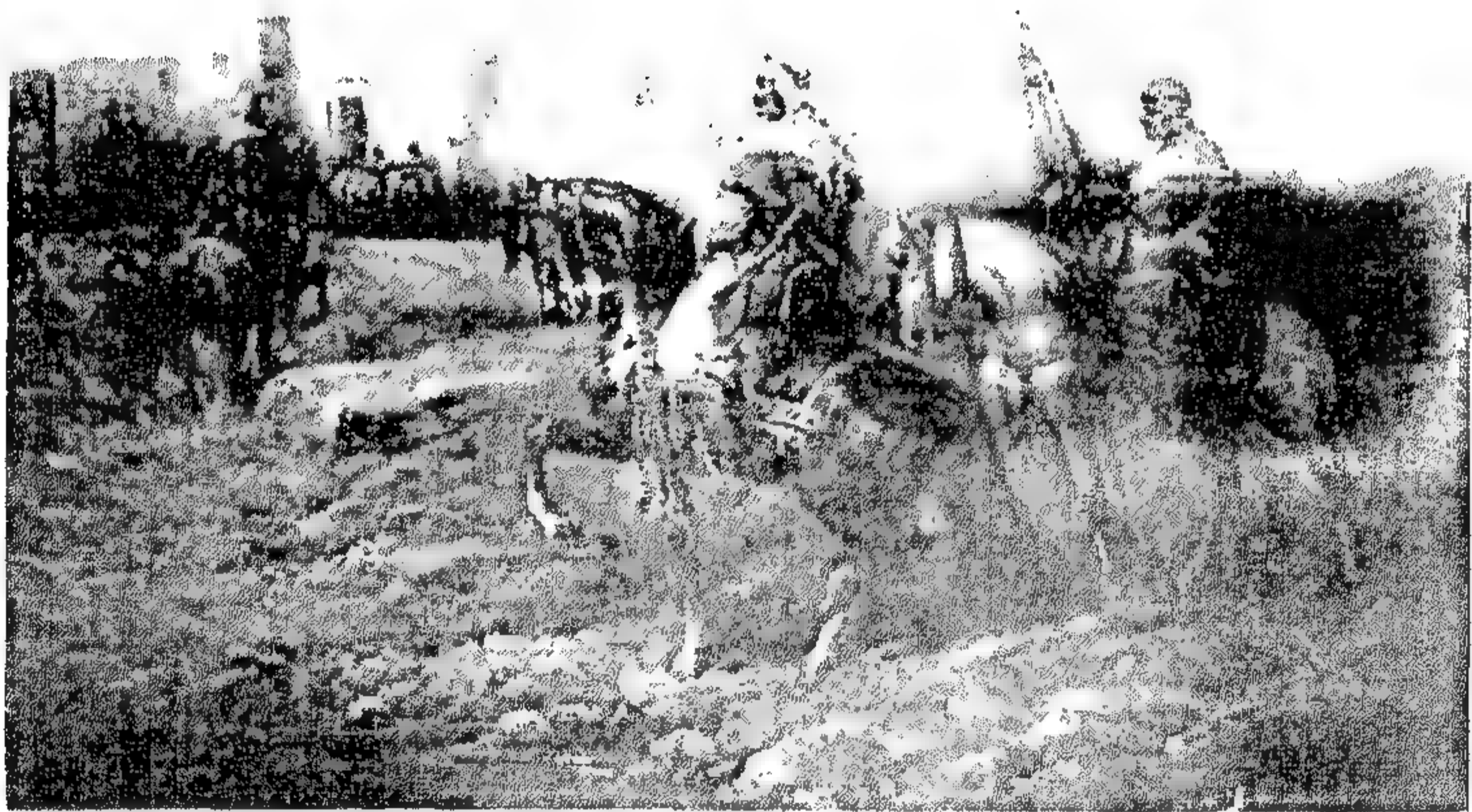
وكانت المشكلة التى واجهت حكام مصر بعد مقتل خمارويه هى عدم وجود المال الكافى لمنح العطاء للجند ، الأمر الذى جعل الجند فى حالة ثورة دائمة بسبب الرغبة فى العطاء ، ومع ذلك فقد أجزل شيبان العطاء

للجند بعد استيلائه على ودائع أم هارون التى كانت قد خبأتها فى دور بعض تجار الفسطاط .

ومع ذلك فقد انضم جنده جماعة بعد جماعة إلى جند الخليفة المكتفى . ووصل محمد بن سليمان إلى العباسية بمديرية الشرقية بعد أن تخلى الناس عن الطولونيين ، فأسرع بميمنة قائد الأسطول المصرى فأحرق جسر مصر الشرقى وبعض الغربى ، حتى تعزل الفسطاط عن الصعيد ، وأقبل محمد بن سليمان بمن معه ووقف دون الفسطاط ، ولما بلغ ذلك شيبان خرج بمساكره فى محاولة يائسة لإنقاذ ملكه ، والتقى الجمعان وكانت بينهم مناوشة ساعة ، أدرك بعدها قلة من معه من الرجال وكثرة جيوش محمد بن سليمان" لذلك استجاب شيبان لمحمد بن سليمان عندما كتب إليه الأخير يؤمنه على نفسه وأهله وماله فجمع إخوته وبنى عمه فى الليل وتوجهوا إلى محمد بن سليمان وصاروا فى قبضته" تاركاً جنده وهم لا يعلمون بتخليه عنهم ، فلما علموا بالأمر تفرق أمرهم وكفوا عن القتال ، وانهال عليهم الناس حتى صاروا يذبحون بين يدى القائد العباس كما تذبح الشاة ، ثم أمر محمد بن سليمان بإحراق القطائع ونهب الفسطاط . وبذا انتهت ولاية شيبان التى لم تستمر سوى تسعة أيام ، زالت دولة بن طولون بأكملها ، واجتهد محمد بن سليمان فى إزالة أثارها جملة حتى لم يبق منها شئ واستصفى أموالهم ونهبها ، ثم دخلت الأعراب الخراسانية من عساكر محمد بن سليمان إلى مصر فكسروا جيوشها وأخرجوا من كان بها، ثم هجموا على دور الناس فنهبوها وأخذوا أموالهم واستباحوا حريمهم وفتكوا فى الرعية وافتضوا الأبقار وأسروا المماليك والأحرار من النساء والرجال ، وفعلوا فى مصر ما لا يحله الله من ارتكاب المآثم ، ثم تعدوا إلى أرباب الدولة وأخرجوهم من دورهم وسكنوها ، وفعلوا فى المصريين ما لا يفتونه فى الكفرة ؛ وأقاموا على ذلك أياماً كثيرة مصريين على هذه الأفعال القبيحة" .

واجتهد محمد بن سليمان فى إزالة آثار الدولة الطولونية جملة حتى لم يبق منها شئ واستصفى أموالهم ونهبها بالشدة والعنف . وحمل إلى بغداد جزء وسرق اثباقي ، ويقال أن الخليفة العباسى المكتفى قد حاسبه على ذلك أعسر الحساب ، ولم يطل مقام محمد بن سليمان بمصر ، إذ استبدله الخليفة المكتفى بعيسى التوشى وعادت مصر من جديد ولاية عباسية كما كانت من قبل بعد أن حكمها بنو طولون ثمانية وثلاثين عاماً . وقد صور لنا المؤرخ ابن تغرى بردى الحقد الدفين للقائد محمد بن سليمان الذى أراد أن ينتقم من الطولونيين أشد الانتقام فى الفظائع التى ارتكبها باسم الخلافة بقوله "وقد أسف المصريون على زوال الدولة الطولونية ، ولم يسعهم فى وسط تلك الغمة سوى أن يترحموا على آل طولون ويذكروا حلوا أيامهم .

الفصل الثالث



المقالة الأولى في حياة الحسين بن علي

الدولة الإخشيدية

كان جف جد محمد بن طغج من بين نفر من فرسان فرغانه وشجعانها قدموا إلى الخليفة العباسي المعتصم فعنى بهم اشد العناية، وعول على أن يتخذهم عوناً له واقطعهم قطائع في مدينة سامرا ، ولما توفي المعتصم انتقل جف إلى خدمة ابنه الواثق ، ولما توفي الواثق سنة 232 هـ سحب جف الخليفة المتوكل وظل في بطانته إلى أن توفي ببغداد في الليلة التي قتل فيها المتوكل سنة 247 هـ .

أما طغج والد محمد المعروف بالإخشيدي فإنه بعد وفاة أبيه جف التحق بخدمة أحمد بن طولون بعد أن اتصل بلؤلؤ الذي كان من إتباع أحمد بن طولون، ويبدو أنه انضم بعد ذلك إلى إسحق بن كنداج وإلى الموصل وعدو أحمد بن طولون، فلما كان الصلح بين خمارويه بن أحمد بن طولون وإسحق بن كنداج عاد طغج إلى العمل لدى بني طولون وعينه خمارويه والياً على دمشق وطبرية، وفي سنة 281هـ أرسله خمارويه لغزو البيزنطيين، فسار من طرسوس وتقدم في أسيا الصغرى حتى بلغ طرابيزون وهزم الروم في عدة وقائع وعاد إلى دمشق بعد عدة أشهر محملاً بالغنائم، وعلى الرغم من ذلك فإن خمارويه كان يملأه الغضب ناحية طغج، ذلك أنه قد طلب منه قبل هذه الحملة أن يقبض على راغب وإلى طرسوس؛ إلا أنه وجد منه كل الترحيب والمودة، واشتركا معا في غزو الروم فاستحيا طغج بعد كل ذلك إلقاء القبض عليه، فما كان من طغج إلا أن عاد إلى خمارويه يلتمس منه الأعذار لامتناعه عن إلقاء القبض عليه¹، وعزم خمارويه على الفتك به إلا أن وفاته حالت دون ذلك، وقيل أن طغج كان مع خمارويه ليلة مقتله في القصر وأنه طارد الخدم الذين اشتركوا في ذبحه فقبض عليهم وأمر بذبحهم وصلبهم².

وظل طغج والياً على دمشق وطبرية في عهد جيش ابن خمارويه إلى أن ثار القواد على جيش وولوا أخاه هارون بن خمارويه سنة 283هـ، إلا أنه كان من الساخطين المنشقين عنه فكان في موضعه أقرب ما يكون مستقلاً عن نفوذ الطولونيين بمصر، الأمر الذي دعا إلى خروج جيش طولوني من مصر ضده بقيادة بدر الحامى ومعه الحسين بن أحمد

(¹) حسن أحمد محمود، سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الطولونيين والإخشيديين، القاهرة، 1960، ص 138 - 139؛ جمال فوزي، عبد الفتاح فتحي عبد الفتاح، معالم تاريخ مصر الإسلامية، القاهرة، 2000، ص 164 - 165.

(²) حسن أحمد، سيدة كاشف، الطولونيين والإخشيديين، ص 139.

الماذرائي، وعادت الشام إلى حظيرة الطولونيين بعد التوصل إلى تسوية سلمية مع طغج وإقراره في حكم دمشق من قبل هارون ، وظل يحكم إلى أن اصطدم بالقرامطة الذين هزموا جيوشه وجيوش مصر¹ وتشجع القرامطة فأقبلوا على حصار دمشق حتى اشرف أهلها على الهلاك .

وكما سبق الذكر استغل الخليفة المكتفي هذا الأمر والضعف الطولوني ليضرب القرامطة والطولونيين بضربه واحده، فأرسل إلى الشام بجيشاً كامل العدد بقيادة محمد بن سليمان الكاتب² إذ ضعف أمر طغج داخل دمشق وقلت رجاله وتتابع الكتب إلى بغداد بأن دمشق على شفا السقوط³ ولما علم القرامطة بقدوم هذا الجيش بادروا بترك دمشق ولاسيما بعد أن دفع لهم أهلها مبلغاً كبيراً من المال ثم انسحبوا إلى حمص وأدركهم الجيش العباسي وانزل بهم الهزيمة بالقرب من حماه سنة 291 هـ .

ولما كان طغج بن جف من القواد الطولونيين الذين لم يرضوا عن قتل هارون بن خمارويه ولم يعترفوا بخلفه شيبان بن احمد بن طولون فإن هؤلاء القواد آثروا الاتصال بمحمد بن سليمان والذي سار إلى مصر للقضاء على حكم بني طولون بعد أن أفلح في هزيمة القرامطة وقد انضموا فعلاً إلى الجيش العباسي، وكانوا ومن معهم من الجند عوناً للقائد العباسي في فتح مصر .

ويبدو أن محمد بن سليمان أراد أن يفيد من خبرة طغج بن جف أو أراد أن يتخلص من وجوده في مصر فبعث به والياً على قنسرين وضم إليه جمعاً من جند بني طولون ولكنه لم يبق طويلاً في منصبه إذ أن محمد

(¹) فوزي ، عبد الفتاح فتحي ، معالم تاريخ مصر ، ص 165

(²) حصن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والاختشيين ، ص 139 .

(³) سهيل نكار ، الجامع في اخبار القرامطة ، ج 2 ، دمشق ، 1987 ، ص 604 .

بن سليمان عندما غادر مصر صاحب معه إلى بغداد جملة من القادة الطولونيين وكان طغج وولاده من هؤلاء¹.

ولما كان طغج ببغداد كان الوزير يومئذ العباس بن الحسن وكان يريد من طغج إذا لقيه في موكبه أن يترجل له؛ فلم يفعل فعمل العباس علي تأليب الخليفة المكتفي عليه بحجة أنه من القواد الطولونيين وولائه لهم؛ وطغج ثابت علي موقفه بعدم النزول للعباس وعدم الترجل له فما كان إلا أن حبس طغج وولديه محمد وعبيد الله، فلم يزل محبوساً إلي أن توفي سنة 294 هـ². ومما سبق يتبين أن طغج ذو عزة في نفسه لا تسمح له بالترجل للوزير العباس فان البعض رأي أن ذلك كان تكبراً وليس ترفعاً³.

وعلي أية حال بعد وفاة طغج أطلق سراح ولاده فلزما خدمة العباس يركبان بركوبه وينزلان بنزوله ويقفان بين يديه إلي أن جاء اليوم الذي شرع فيه الحسين بن حمدان علي قتله للعباس فضربه بالسيف علي عاتقه وصاح الحسين بن حمدان بمحمد بن طغج وأخيه عبيد الله "خذ/

(¹) حسن احمد ، سيدة كاشف ، الطولونيين والاختشدين ، ص 140

(²) ابن سعيد الانلسي ، المغرب في حلي المغرب ، ج 1 ، تحقيق : زكي محمد حسن واخرون ، القاهرة ، 1953 ، ص 151 ؛ ابن خلكان ، وفيات الاعيان واتباء ابناء الزمان ، مج 5 ، تحقيق : إحسان عباس ، بيروت ، 1994 ، ص 57 ؛ ابراهيم الابياري ، ابو المعسك كافر ، القاهرة ، 1962 ، ص 45 ؛ رزق الله منقريوس الصرقي ، تاريخ دول الاسلام ج 1 ، القاهرة ، 1986 ، ص 375 - 376 ؛ أحمد عبد الرازق أحمد ، تاريخ مصر وأثارها الإسلامية ، القاهرة 1993 ، ص 141 .

(³) الذهبي ، نزهة الفضلاء تهذيب سير اعلام النبلاء ، ج 15 ، تحقيق : محمد حسن عقيل موسي ، جدة ، 1995 ، ص 1122 ؛ ابن ابيك الصلدي ، تحفة ذوي الالباب = فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب ، ج 1 ، تحقيق : احسان بنت سعيد ، زهير حميدان ، دمشق ، 1998 ، ص 345 ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج 3 ، ص 270 .

بشاركما " فتقدما وضربا العباس بسيوفهما وهرب الحسين إلى ديار ربيعة، أما عبيد الله بن طغج فهرب إلى شيزار فخدم أميرها، وهرب محمد بن طغج إلى الشام وقصد بن بسطام عامل خراج الشام¹.

ومن نافلة القول بأن نشأة محمد بن طغج والبيئة التي شهدتها في تربيته واثناء صغره؛ لهو أمر غامض لا تذكره المصادر أو المراجع التاريخية وأول ما ذكر أنه كان ينوب عن والده في طبرية حينما كان أبوه طغج واليا على دمشق وطبرية.

أما بعد وفاة أبيه طغج؛ فإنه خرج إلى الشام بعد قتل الوزير العباس حيث اتصل بن بسطام عامل الخراج فيها، وكان يعاونه في شئون الصيد ويحمل له جوارحه التي يصطادها حتى أنه عرف بمأزير بن بسطام، ولما تقلد ابن بسطام خراج مصر سنة 296 هـ، صحبه محمد بن طغج إليها ثم توفي ابن بسطام في العام التالي، وخلفه على خراج مصر ابنه أبو القاسم بن بسطام، وظل ابن طغج في خدمته حينما إلى أن عزل سنة 300 هـ من منصبه، ثم اتصل بتكين والي مصر²، وقيل أنه قصد مصر حين وجدها ميدانا لنشاط الفاطميين الرامي لغزوها، وأن ذلك يشكل له ميدانا فسيحا ليظهر على مسرح الأحداث الأحداث³.

صفوة القول أن محمد بن طغج جاء مصر واشترك في صد الحملة الفاطمية بقيادة حباسه بن يوسف الكتامي لسنة 302 هـ، وأبلى بلاء حسنا مما أدى إلى توثيق العلاقة بينه وبين والي تكين حتى أصبح

(1) ابن سعيد، المغرب، ج 1، ص 151-152

(2) حسن احمد، سيده كاشف، الطولونيين والاختشديين، ص 140-141.

(3) احمد ابراهيم الشريف، حسن احمد محمود، العالم الاسلامي في العصر العباسي، القاهرة، 1973، ص 433.

كلاهما لبعض بمثابة الولد والوالد، ولما نحي تكين عن ولاية مصر وخرج إلى الشام خرج معه محمد بن طنج¹.

وكما سلفت الاشارة فان تكين عقب حملة سنة 302 هـ عزل بواسطة مؤنس وخرج إلى الشام حيث ولي دمشق ولم يرجع لولاية مصر إلا بعد وفاة واليهما ذكا الرومي أو الاعور عام 307 هـ وفي أثناء ذلك - أي ولاية دمشق - فان تكيينا قد ولي محمد بن طنج على ولاية عمان وجبل الشراة وذلك في عام 306 هـ² بوقيل إليه معهم³ ومن المتفق ذكره في ولايته هذه على عمان وجبل الشراة نيابة عن تكين أنه حدث أن مجموعه من حجيج الشام ومن ضمنهم جماعه من أهل العراق وفيهم جارية شغب أم الخليفة المقتدر، فإذا بجماعة من قبيلتي لجم وخدام يهددونهم ويشكلون خطراً عليهم فما كان إلا أن أنقذهم محمد بن طنج ومن معه مما أحمده سيرته وزاد رصيده لدى الخلافة وكذلك تكين⁴.

ولما رجع تكين مصر ولاد الاسكندرية مما جعله يقابل الخطر الفاطمي لحملة عام 307 هـ فأبلى حسناً في صدها هي الأخرى؛ كذلك اتصل محمد بن طنج بالقائد العباسي مؤنس الخادم الذي قدم على رأس الجيش العباسي في العام 308 هـ لطرد الفاطميين من الأراضي المصرية، ولا ريب أنه عمل منذ ذلك الحين على توثيق علاقته بكبار رجال الدولة والحكم؛ فاتصل بعائلة المانرائي فعرف عن كثب أحوال البلاد

(¹) حسن أحمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والاشيدين ، ص 141 .

(²) أحمد إبراهيم ، حسن أحمد ، العالم الإسلامي ، ص 434 ؛ علي إبراهيم حسن ، مصر العصور الوسطى ، ص 65 .

(³) شاكر مصطفى ، موسوعة دول العالم الإسلامي ورجالها ، ج 1 ، بيروت ، 1993 ، ص 345 .

(⁴) ابن سعيد ، المغرب ، ج 1 ، ص 153 ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مج 5 ،

ص 57 ؛ سيد طه أبو سنيرة ، تاريخ مصر الإسلامية ، سوهاج ، 2002 ، ص 159 .

والأموال والضياع الموجودة لديهم فأفاد من ذلك في مصادرة قسط كبير منها .

كذلك تقلد محمد بن طنج حكم الحوفين الشرقي والغربي من الدلتا من قبل تكين¹ وقيل انه في أثناء ولايته للحوفين اظهر شراة إلى المال، واقبل على مصادرة المياسير والاستيلاء على التركات² مثل تركه أمير الاسكندرية أبو اليمن أحمد بن صالح سنة 316 هـ، مما أدى إلى سحق تكين عليه مما رسم مظهر الشقاق والوحشة بينهما³ .

فلما عين مؤنس الخادم أو المظفر محمد بن جعفر القرطي على الحسبة ثم الخراج في مصر مما اضر بالماذرائيين الذين اتهموه بالاختلاس من خراج البلاد مما أدى إلى عزل الخليفة المقتدر له فبادر القرطي بالاختفاء لدى محمد بن طنج الذي كان صديقا له منذ قدومه إلى مصر والذي افلح في تدبير خطه لإخراج القرطي من مصر وإنقاذه من الوقوع في أيدي الماذرائيين الذين كانوا يجدون في البحث عنه⁴ وقيل انه فعل ذلك مكيدة في الماذرائيين⁵ وسعيًا منه في معالجه أو تفادي الأسباب التي أدت إلى مأساة أبيه فعلم أن يكون له حلفاء وأصدقاء لدى الخلافة⁶ .

وعلى أية حال فإن القرطي حمد له ذلك واستطاع أن يحصل له على تقليد من بغداد بولاية الرملة سنة 316 هـ ؛ وعلا على تحسين

(1) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والاختشيديين ، ص 141 .

(2) احمد عبد الرزاق ، تاريخ مصر ، ص 147 .

(3) ابن سعيد ، المغرب ، ج 1 ، ص 153 .

(4) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والاختشيديين ، ص 141 .

(5) ابن سعيد ، المغرب ، ج 1 ، ص 154 .

(6) احمد السعيد سليمان ، تاريخ الدولة الإسلامية ، القاهرة ، 1969 ، ص 129 .

مركزه وبمساعدة القرطبي في بغداد ولي محمد بن طفج دمشق سنة 319 هـ¹ .

ويحدثنا ابن سعد عن هروب محمد بن طفج الإخشيد إلى دمشق وأنه استعمل الخديعة في ذلك الحين؛ وهرب وتمكن من دمشق ، وقيل أن تكين أرسل له كتابا يقول له فيه "لو أعلمتني لاغتك وعضدتك" ويقول في فصلا منه (ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين ، وفعلت فعلتك التي فعلت) ، فكتب إليه الإخشيد جوابا جاء فيه " فهمت كتاب الأمير أطل الله بقائه ما تلاه من القرآن والجواب ما أجاب به موسى الذي هو خير من الأمير ومني (ففررت منكم لما خفتكم)² .

وعلى أية حال فإن محمد بن طفج كان له من الأصدقاء في بغداد الكثير، وكان محبوبا عند أهلها فرحبوا بتوليته عندما وإيها ودخلها أحسن دخول كما استطاع أن يوطد لنفسه في دمشق كما أتبع له أن يكون لنفسه قوة عسكرية يستعين بها عند الشدة في صراع السلطات الدائر آنذاك، كما اجتمع حوله أخوته عبيد الله والحسن والحسين وعلي بنو طفج كما رزق بأول أبنائه أبو القاسم اتوجور بدمشق سنة 319 هـ³ .

- الولاية الأولى على مصر

عند الحديث عن الولاية الأولى لمحمد بن طفج الإخشيد على مصر وجب تناول خمسة عناصر وهم : الخليفة القاهر ومحمد بن تكين والماذرائيين ومحمد بن طفج واحمد بن كيغلغ .

(¹) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والاكشيديين ، ص 141 .

(²) المغرب ، ج 1 ، ص 155 .

(³) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والاكشيديين ، ص 141 - 142 ؛ احمد

عبد الرزاق ، تاريخ مصر ، ص 147 .

أما العنصر الأول وهو الخليفة القاهر بالله الذي عرف عنه أنه كان قاسياً فاسد الأخلاق سسى النية؛ حتى أن الذين أجلسوه على العرش سخطوا عليه ثم خلعه¹ وسلمت عيناه فكانت مدة خلافته من سنة 320هـ إلى 322هـ²، وكان هو الخليفة وقت ولاية محمد بن طغج الأولى على مصر، وتولى بعده عرش الخلافة الراشدة بالله³، .

أما العنصر الثاني وهو محمد بن تكين، فعندما توفي تكين استخلف ابنه محمد على الولاية وبالطبع لم يعجب الأمر أبي بكر المائتراني وبالطبع تطور الأمر إلى صراع بينهما؛ فمن ناحية محمد بن تكين نجد أنه لما خرج مع تايوت أبيه إلى الشام أرسل إلى بغداد يطلب إقراره على مصر وبالفعل جاءه تقليد للخلافة وعاد إلى مصر ليطلب بحقه ويدخل في صراعه مع المائتراني .

(¹) سيد امير علي، مختصر تاريخ العرب والتمنن الاسلامي، ترجمة: رياض رافت، القاهرة، 2001، ص 258 - 259 .

(²) القلقشندي، صبح الاعشا في صناعة الانشا، ج 3، القاهرة، 1938، ص 257؛ احمد امين، ظهر الاسلام، ج 1، القاهرة، 1999، ص 30 .

(³) هو محمد بن جعفر المقتدر ولد عام 297 هـ وامه ام ولد تدعى ظلوم يكن ابا العباس بويج بالخلافة بعد خلع عمه القاهر وذلك عام 322 هـ وكان سمحا كريما ادبياً شاعراً فصيحاً محباً للعلماء له شعر مدون وسمع الحديث من البغوي، للمزيد انظر: محمود شاكر، التاريخ الاسلامي، ج 1، بيروت، 1991، ص 131؛ من شعره

ربح المحامد متجر الاشراق

واشيد ما قد اسست اسلافي

معتادة الاخلاق والاتلاف

لا تغلي كرمي على الاسراف

اجري كأبائي بالخلاف سابقا

اتي من القوم الذين لكفهم

للمزيد انظر: مغلطاي، مختصر تاريخ الخلفاء، تحقيق: اسيا كليبان على الباسح، القاهرة، 2000، ص 137 .

أما العنصر الثالث وهو الماندرائيين ويتمثل هاهنا في أبي بكر الماندرائي والذي أصبح الأمر كله في يده بعد وفاة تكين على أن الجند ثاروا عليه مطالبين بعطائهم واحرقوا دوره ودور اهله ودور كثير من أتباعه، وقبضوا على بعض الموظفين من قبله مما ادي إلي انتشار الاضطرابات في البلاد ، وإذا كان محمد بن تكين قد أرسل لبغداد يطلب اقراره على مصر ، فان الماندرائي أرسل يلتمس أميرا وليس طلبا لنفسه فالماندرائيون كانوا يؤثرون أن يحكموا مصر فعليا لا اسميا فكانوا يريدون أن يكونوا لوالي كأمير الأمراء لدى الخليفة ، وقد تسلم الماندرائي ردا " بتفويض أمر مصر ورد تدبيرها إليه وأن يولي من يختاره " ، ولا شك أن مثل هذا الفعل إنما كان غرض الخلافة منه أن يتنافسا فلا يستتب احدهما بالأمر ويقوم بتجربة على غرار التجربة الطولونية .

وعلى أية حال فان الماندرائي قد استعاد مركزه في إدارة مصر، وعندما أراد محمد بن تكين أن يدخل مصر مزودا بالتقليد الذي جاءه بولاية مصر لم يعترف به الماندرائي وجمع جيوشا من الجنود المغاربة وراح يحاول منع ابن تكين من دخول البلاد وبقيت البلاد بدون والي؛ فكلاهما يتصارعان حتى يجهز احدهم على الآخر.¹

أما العنصر الرابع وهو محمد بن طغج فانه لم يزل بدمشق إلي أن توفي تكين بمصر وسعى لدى الخلافة بأن يتقلد ولاية مصر بإرسال كاتبه علي بن محمد بن كلا إلي الخليفة القاهر إلا أنه رفض بحجة انه سبق وولاهها لمحمد بن تكين ن فلم يزل الأمر على ذلك حتى كحل السقاهر وسملت عيناه .

وهنا يذكر ابن سعيد قصه تكاد تقتصر على ذكره مؤداها انه لما كحل القاهر وسمل ركن بن كلا سرا إلي بعض كتاب القاهر ومقابل عشرة الاف درهم استخلص منهم أمر من القاهر تفيد بولاية محمد بن

(¹) سيده كاشف : مصر العصر الاخشيدي ، ص 42 - 43 .

طفج إلى مصر . وسواء صدقت هذه القصة أم كذبت فقد حدث الأمر وجاء كتاب القاهر بتولية محمد بن طفج على ولاية مصر .¹

على أن الرياح لم تأت بما تشتهيها سفن بن طفج ، إذ أن اضطراب الأمور سواء في مصر أم بغداد مركز الخلافة لم يدع للاستقرار سبيلا ولم يدخل محمد بن طفج مصر في ولايته الأولى وظل في دمشق ولكن يدعى له على منابر مصر .

وظل الحال على ذلك نحو اثنين وثلاثين يوما أي من يوم السابع من رمضان إلى التاسع من شوال لسنة 321 هـ ثم جاء كتاب من بغداد بتولية أحمد بن كيغلف على ولاية مصر لتكون هذه المرة الثانية له ، وليكون بن كيغلف هو العصر الخامس في ولاية محمد بن طفج الأولى القصيرة على مصر .²

الولاية الثانية والدولة الاخشيديه :

سبق القول ان الماذراتي لم يكن ليرضى أن يكون محمد بن تكين واليا على مصر باستخلاف أبيه له حتى ولو كان الاستخلاف على مرأى ومسمع من الخليفة القاهر القائم بأمر الخلافة حينها ، وسبق القول أيضا أن ابن تكين طلب إقراره على مصر ورجع لمصر بان أعلن أن الخلافة اقرته ، ولكن الماذراتي لم يقبل ذلك واتكره

ولم يفصل الأمر ما حدث من تولية لبعض الأمراء امثال محمد بن طفج ولاية مصر التي لم يدخلها أو من بعده ولاية أحمد بن كيغلف الذي لم يأتي فور توليته وإنما سبقه إليها نائبه الذي استخلفه في ولاية مصر لحين قدومه هو وتسلمه زمام الأمور .³

(¹) المغرب ، ج 1 ، ص 156 .

(²) سيده كاشف ، مصر العصر الاخشيدي ، ص 43 .

(³) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج 3 ، ص 276.

ولم تكن البلاد بأحسن حال من قائدها المجهول ؛ إذ كان جندها ثائرين من أجل عطائهم ، بل وتطور الأمر أن أحرقوا دار المانرائي ودور ذويه وانقسم الجند للفرقتين ، فرقة المشارقه بقيادة حبكويه وفرقه المغاربه بقيادة حبشي بن احمد ونشبت الحرب بينهما في الخامس من ذي الحجه سنة 321 هـ¹ .

كل ذلك يجري ويأتي محمد بن تكين لينادي بالولاية له مستمسكا بتقليد القاهر له فما كان إلا أن ذهب لابن تكين من يؤيده ، ومن ناحية اخرى يذهب للمانرائي من يؤيده ويؤيد ولاية ابن كيغلغ مثل المغاربه وقائدهم حبشي فاشتبك الفريقان إلى أن جاء احمد ابن كيغلغ في الثالث من شهر رجب سنة 322 هـ وانضم إليه بعضا من اتباع ابن تكين فشرع أن امره قد ضعف ففر هاربا من مصر ليكون بذلك مقام تكين في مصر قبل خروجه منها مائة واثنى عشر يوما .

وراح ابن كيغلغ ينظم أمور البلاد ثم يأتي عليه خبر بخلع القاهر وتولية الراضي خليفة ثم يأتي بن تكين مرة اخرى مدعيا أن الخليفة الجديد ولاه مصر² وترجع المصادر مسألة الولاية لمحمد بن تكين بانه ذكر أن " الخليفة الراضي قلد مصر لمحمد بن تكين وقال : هذا ابوه غلام ابي وجدي " ³ .

وانضم المغاربه لابن كيغلغ واشتبكوا مع عسكر محمد بن تكين بالقرب من الفسطاط فانهزم المغاربه ولكن ليس بالهزيمة الساحقة التي تبطل تأييدهم لابن كيغلغ ، ومن ناحية اخرى كان حبكويه كبير المشارقه قد انضم إلى ابن تكين الذي عقد له ولأحمد بن بدر السميساطي ألفا من

(¹) عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي ، الاسكندرية ،

1982 ، ص 174

(²) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج 3 ، ص 277 .

(³) المغرب ، ج 1 ، ص 157 .

الجند لمحاربة المغاربة¹ إلا أن النصر الأخير كان لصالح أحمد بن كيتغف
أما ابن تكين فقد أسر ونفى إلى الصعيد واستقر ابن كيتغف بحكمه إلا أن
التدبير الفعلي للأمر كان في يد المانرائي وأولاده ولم يكن لابن كيتغف
معهم أمر ولا نهى².

أزاء هذا الوضع المتردي في مصر وكذلك الشام ما كان من
ال خليفة الراضي إلا أن ندب الفضل بن جعفر وزيرا وكلفه بكشف الأحوال
في مصر والشام وتدبير أمورها واعطاه صلاحيات كبيرة³ وكان ذلك في
حد ذاته تغيراً خطيراً بالنسبة للجميع، فمن ناحية كان بنو الفرات يكرهون
المانرائيين ويحسدونهم ويبغون القضاء عليهم، وزاد هذا الخطر عندما
تصاهر كلا من الفضل وبين طغج عندما تزوجت ابنة محمد بن طغج من
جعفر بن الفضل بن جعفر بن الفرات، فاستعمل الفضل السلطة المطلقة
التي منحها في تدبير أمور مصر لتعيين محمد بن طغج عليها مرة أخرى
⁴ وبالطبع كان المستفيد الأول في كل هذا هو محمد بن طغج نفسه والذي
اعطى الأمر حق قدره فراح والفضل يرسمان طريقهما في سرية شديدة
من أجل أن تكون النتيجة النهائية مصر بالنسبة لابن طغج والقضاء على
المانرائيين بالنسبة للفضل بن الفرات وبنو الفرات عامة⁵ وحسبنا في
هذا التخطيط السري ما أورده ابن سعيد من رواية فحواها مقابله شديدة
السرية تمت بين الوزير بن الفرات ومحمد بن طغج في دمشق وكيف جاء
بن الفرات متخفياً في زي التجار وكيف جاءه الاخشيدي دون جلبه حتى لا

(¹) عبد العزيز سالم، الاسكندرية، ص 174.

(²) سيده كاشف، العصر الاخشيدي، ص 44.

(³) الزیود، العلاقات، ص 279.

(⁴) سيده كاشف، مصر العصر الاخشيدي، ص 44 : Moshe Gil, A history of
Palestine, London, 1997, p 317.

(⁵) الزیود، العلاقات، ص 280.

بلغت الانتظار إليه ثم اجتمع كلاهما معا ، واتفقا على ما ارادا ثم اتصرف
الاخشيد إلى داره ، اي أن الأمر تم بعد تخطيط محكم لتأتي في النهاية
النتيجة المرجوة " مصر " ¹.

وبدا الأمر أن كتب الاخشيدي قبل قدومه إلى مصر إلى ابي بكر
محمد بن علي المانراني يطلب إليه أن يتركه يدخل مصر بجيشه على أن
يظل للمانراني إشرافه على الإدارة في البلاد ولكن المانراني كان يعلم أنه
لن يكون له مع الاخشيدي ما كان مع سائر الولاة من الأمر والنهي فلم
يجبه، مما اضطر محمد بن طغج إلى اللجوء للطريقة الأخرى وهي القيام
بالجيش والاستيلاء على البلاد عنوة ².

وقام المانراني واحمد بن كيغلغ بعرقلة الطريق ليس على تيسير
دخول بن طغج مصر وإنما أيضا على العمال والموظفين المعيّنين من قبل
الفضل بن جعفر ³ مثل احمد بن نصر الذي ولاه الفضل خراج مصر ولكنه
لم يستطع الحصول على منصبه لأنه لم يستطع دخول البلاد أصلا فقد
منعته قوات المانراني وأبن كيغلغ ⁴ ، كذلك ارسل المانراني وفدا إلى ابن
طغج يحمل كتب الخلافة وتفويضها للمانراني بأعمال مصر، وفي مدينة
الفرما التقى هذا الوفد بمحمد بن طغج فما كان إلا أن نصحبهم بالذهاب إلى
الوزير الفضل بن الفرات المفوض بالأمر الخلافي الذي كان موجودا حينها
بالرملة حيث اعتقلهم هو هناك .

وحشد الطرفان قواتهم كبداية للصدام المسلح بينهما ففي البر تقدم
محمد بن طغج بجيوشه وخرج احمد بن كيغلغ بتوجيه من المانراني على
راس قوة كبيرة قدرت بثلاثين ألفا تساعد القوة المغربية بقيادة زعيمها

(¹) ابن سعيد ، المغرب ، ج 1 ، ص 158 .

(²) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والاخشيديين ، ص 145 .

(³) الزيزد ، العلاقات ، ص 281

(⁴) ابن سعيد ، المغرب ، ج 1 ، ص 157

حبشي ، ومن جهة البحر كان الأسطول الذي أرسله محمد بن طفج¹ والذي لم تزودنا المصادر أو المراجع التاريخية عنه أية معلومات أو عن أعداده اللهم إلا أن المراكب المستخدمة كانت من العشاريات² ، وهذا الأسطول استطاع بقائده صاعد بن كلمم أن يدخل تنيس ويملكها ويتقدم حتى دمياط ويلحق الهزيمة بعلي بن بدر ومراكبه التي أرسله بها الماذرائي لقتاله؛ وكانت الهزيمة بأرض سنود في التاسع عشر من شهر شعبان سنة 323 هـ³ واستطاع جيش ابن طفج أن يصل إلى جزيرة الروضة أو كما يصطلح تسميتها جزيرة الصناعة .

أما القوة البرية والتي كان على رأسها محمد بن طفج والتي سارت باتجاه مصر فقد لاقت مقدمتها جنود بن كيغلف والماذرائي ودحرتها؛ كما انضم عددا كبيرا من جنودها إلى ابن طفج ، وأخيرا وليس آخرا الانقسام الموجود أصلا بين الماذرائي وابن كيغلف الذي لم يكن له من الأمر شيء لتسلطه عليه⁴ واستبداده بتدبير الأمور في مصر هو وأسرته، ولا أمر لابن كيغلف ولا نهى معهم ، بل أنه تحجج لمحمد ابن طفج بأن ما كان من مقاومه إنما كانت أمورا من غير إرادته .

أما الماذرائي رأس المقاومة ضد محمد بن طفج فقد اضطر إلى الاختباء والتخفي فترة من الزمن في حين ظهر ابنه الحسين بن محمد الماذرائي مشاطرا لابن كيغلف في رايه معضدا له في التسليم لمحمد بن طفج ، مما حد بالبعض بوصف ذلك التصرف من قبل الماذرائي بالانتهازية لدى الماذرائيين وملايئنتهم للحكام؛ حتى يكون لهم من الجاه والسلطان

(¹) الزيود ، العلاقات ، ص 287 .

(²) ابن سعيد ، المغرب ، ج 1 ، ص 158 .

(³) المفريزي ، المقفى ، ج 5 ، ص 746 - 747 .

(⁴) الزيود ، العلاقات ، ص 287 .

شأننا ¹ وهكذا دخل محمد بن طفج الفسطاط في أواخر شهر رمضان سنة 323هـ / 935م وأقدمت عساكره على نهب المدينة لمدة يومين ثم توقفوا إذ نودي أن من نهب قتل ².

وعلى أثر دخول ابن طفج الفسطاط غادر مصر بعض القادة الذين وقفوا ضده واشتركوا في قتاله وعلى رأسهم حبشي بن احمد قائد القوة المغربية ³ وكذا بجكم وعلي بن بدر ونظيف الموسوي وعلي المغربي ⁴، واتجه هؤلاء جهة الفيوم فأرسل محمد بن طفج قوة بقيادة قائده سعد بن كلثم ⁵ وبالفعل استطاع صاعد أن يلحق بهم في مراكبه في خليج الفيوم إلا أنه نظرا لضيق الخليج وعدم المرونة الكافية لحركة مراكبه قتل وقتل عددا من اتباع ابن طفج ⁶، ولما بلغ الاخشيد قتل صاعد لم يظهر عليه الغم إذ استراح منه رغم اعتماده عليه في اخذ مصر ⁷ وعلي أية حال فإن حبشي اتجه إلى الاسكندرية أما علي بن بدر وبجكم اخذا مراكب صاعد إلى جزيرة الروضة حيث احرقوا ما كان بها من سفن، ولم يستطع ابن طفج أن يردعهم في ذلك ثم اتحدروا بعد ذلك إلى الاسكندرية ثم برقه، وكتب الهاريون إلى الخليفة الفاطمي القائم بأمر الله صاحب الفريقيه يستأذنه الدخول في طاعته ويحرضونه على الاستيلاء على مصر مهوتين له الأمر ⁸ وانهم يعلمون وجوه الحرب وكيف الوصول إليها ¹

(¹) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والاشيدين ، ص 145 - 146 ، الزيود ، العلاقات ، ص 281 - 282 .

(²) الزيود ، العلاقات ، ص 282 .

(³) الزيود ، العلاقات ، ص 282 .

(⁴) الكندي ، ولاة مصر ، ص 303 .

(⁵) الزيود ، العلاقات ، ص 282 .

(⁶) عبد العزيز سالم ، الاسكندرية ، ص 175 .

(⁷) ابن سعيد ، المغرب ، ج 1 ، ص 160 .

(⁸) عبد العزيز سالم ، الاسكندرية ، ص 175 - 176 .

وبينما هم في ذلك توفي حبشي بقرية تسمى الرماده ببرقه في صفر سنة 324 هـ قبل أن تصل جيوش الفاطميين .

ومن ناحية أخرى علم ابن طغج بأمر الفاطميين فتأهب لاستقبال هذه الحملة وأمر بإخراج عساكر مصر إلى الاسكندرية والصعيد ، وتم ذلك في ربيع 324 هـ ، واقبلت عساكر الفاطميين بقيادة يعيش الكتامي وأبي تازرت الكتامي وانضمت إليهما فرقة المغاربة المعسكره ببرقه بقيادة بجكم ودخلوا مدينة الاسكندرية في ربيع الآخر ، وبالطبع لم يكن ابن طغج لينتظر هذا الخطر حتى يأتيه الفسطاط فأرسل أخاه الحسن بن طغج والقائد صالح بن نافع على رأس جيوشه إلى الاسكندرية في الثاني والعشرين من ربيع الآخر واشتبك الجانبان فيما بين تروجه وابلوق وهو موضع جنوبي مريوط وكانت الهزيمة الساحقة على رأس المغاربة وحلفائهم؛ إذ قتل وأسر عدد كبير منهم ، وكان القائد يعيش من بين القتلى ، وتمكن الحسن بن طغج وصالح بن نافع من دخول الاسكندرية فتتبعوا المغاربة فيها بالقتل وفر بجكم واتباعهما إلى برقه حيث أقاما في حماية صاحبها القائم فترة إلى أن استأنوا محمد بن طغج في الرجوع إلى مصر فأمّنهم وذلك في سنة 328 هـ .²

ثم قفل الجيش مع الحسن بن طغج وصالح بن نافع فنزلوا الجيزة ومعهم الأسرى وذلك في جمادي الأول سنة 324 هـ فطيف بهم أول يوم من جمادي الآخر؛ وفي أواخر المحرم من سنة 327 هـ جاء الفضل بن جعفر بن الفرات مصر ونزل الفسطاط³ إذ جاءه بالخلع من الخليفة الراضي بولايته على مصر فلبسها وقبل الأرض⁴ وورد في كتاب الراضي

(¹) الكندي ، ولاية مصر ، ص 305 .

(²) عبد العزيز سالم ، الاسكندرية ، ص 176 - 177 .

(³) الكندي ، ولاية مصر ، ص 306 .

(⁴) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج 3 ، ص 288 .

أن يلقب محمد بن طفج بالإخشيد ودعي له بذلك على المنبر في شهر رمضان سنة 327 هـ¹.

ولقب " الإخشيد " هو الذي تنسب إليه الدولة الإخشيدية وهو اللقب الذي منحه الخليفة العباسي الراضي بالله لمحمد بن طفج في سنة 326 هـ على رأي، وفي رأي آخر في 327 هـ وذلك بناء على التماس محمد بن طفج² إذ أرسل للخليفة الراضي يطلب تلقيبه بالإخشيد، فسأل الراضي عن المعنى ، فأجابوه بأنه ملك الملوك ، فعرف الراضي بذلك ولم يبخل على محمد بن طفج وكتب إلى الإخشيد محمد بن طفج بذلك³.

وقد ذهب البعض أن محمد بن طفج اتخذ هذا اللقب لأنه كان من نسل ملوك فرغانة وامراتها لكن هذه النسبة لملوك فرغانة ليست ثابتة كل الثبوت وانها أن دلت على شيء فاتها تدل على النسب للإقليم نفسه " إقليم فرغانة " ولعله بهذا اللقب أراد أن يعطي من شأن أسرته⁴ فقد كان يعلم جيدا مدى قيمة هذا اللقب في موطن أبائه بآسيا الوسطى⁵.

كما أنه بوجه عام كان للألقاب في الدولة العباسية شأن عظيم وذلك كصدى للتغير الذي طرأ جراء دخول العناصر الجديدة للدولة والاقتراس من ثقافات الغير ، كذلك كانت هذه الألقاب دليلا على اتساع دولة الإسلام وصفة العالمية التي اتصفت بها الدولة العباسية⁶.

(¹) الكندي ، ولاة مصر ، ص 306 .

(²) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والإخشيديين ، ص 137 .

(³) ابن سعيد ، المغرب ، ج 1 ، ص 173 .

(⁴) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والإخشيديين ، ص 138 .

(⁵) بوزورث ، الاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي ، ترجمة : حسين علي اللبودي ،

الكويت ، 1995 ، ص 18 .

(⁶) حسن الباشا ، الألقاب الاسلامية في التاريخ والوثائق والآثار ، القاهرة ، 1989 ، ص 59-

وبالنسبة لمحمد بن طنج فقد سيطر على مقاليد الأمور ، فكانت ولاية مصر مقسمة إلى قسمين : والي الحرب والصلاة ، وآخر للخراج وتدبير الأموال ، وكان ابن الفرات في مصر يمسك الأموال والخراج أما بن طنج فالحرب والصلاة ، وعندما خرج ابن الفرات من مصر جمع بن طنج الولايتين واستقام له الأمر¹ ، ولم تقتصر منافع الاخشيد هنا فقط، فقد تخلص من منافسين اقوياء وصار من أموال المانراتيين ما أفاده في بداية عهده ومكنه من تثبيت مركزه في مصر بسرعة فائقة² .

ومن نافلة القول أنه وجب علينا ذكر بن الفرات ومصيره، فانه في عام 326هـ استدعاه الراضي لتولي مهام الوزارة في بغداد ولكن التوفيق لم يكن حليفه لما كان يحف به هذا العمل من دسائس ، فاستأنى الخليفة الراضي بالعودة إلى مصر والشام والإشراف على مواردهما كما كان من قبل فاذن له الخليفة بذلك ، على أن الأمر لم يطل به كثيرا إذ توفي بالرملة في الثامن من جمادي الاول سنة 327 هـ (939 م)³ .

بقي أن نذكر نقطة تختلف بها الآراء وهي سبب تولية محمد بن طنج مصر من الأساس فبغض النظر عن العلاقة التي تربط الاخشيد بابن الفرات وازدواج مصالحهما معا ؛ كانت هناك آراء أخرى تصب نتائجها في النهاية بولاية الاخشيد على مصر ، لتكون الولاية الثانية بداية الدولة الاخشيدية في مصر منذ خروج ابن الفرات منها وجمع الاخشيد الأمور في يده . فقد ذهب البعض من زاوية أن محمد بن طنج استولى على البلاد واضطرت بدورها أن تقر الأمر الواقع فثبتته على مصر⁴ في حين ذهب

(¹) ابن سعيد ، المغرب ، ج 1 ، ص 163 .

(²) سعيد عبد الفتاح عاشور ، الرافعي ، مصر العصور الوسطى ، ص 141 .

(³) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والاكشيديين ، ص 158 .

(⁴) الزبيد ، العلاقات ، ص 284 .

آخرون إلى أن ولاية مصر لمحمد بن طغج كانت مكافأة له أو نتيجة على تمكنه من إلحاق الهزيمة بالفاطميين¹.

هكذا حقق بن طغج حلمه في حكم مصر والشام ومكن لنفسه فيهما وبدأ ينظم أمورهما، والتفت بعد ذلك إلى تدعيم مركزه الاقتصادي في مصر والشام، وتشهد السكة التي قام بضربها بتحسين الأحوال الاقتصادية فقد سك الدينار الإخشيدى على عيار كامل حيث أمر بإصلاح النقود التي فسدت بعد العهد الطولونى².

ونختم بذكر ممتلكات الإخشيد وما تقلده طبقاً لما ورد في خطابه إلى امبراطور الدولة البيزنطية في عام 325 هـ³ أي بعد عامين من ولايته على مصر وهي كما ورد في خطابه " ممالك اليمن، واجناد الشام التي منها جند حمص، وجند دمشق، ومنها جند فلسطين، إضافة إلى أمر مكة المحفوفة بالآيات الباهرة، ومنها مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم المقدسة بتربيته وأنها مهبط الوحي وبيضة هذا الدين المستقيم الذي امتد ظله على البر والبحر "⁴.

(¹) أحمد إبراهيم ، حسن أحمد ، العالم الإسلامي ، ص ص 434 - 435 ؛ يوسف العش ، تاريخ عصر الخلافة العباسية ، دمشق ، 1982 ، ص 150 ؛ إبراهيم أحمد العلوي ، مصر الإسلامية ، القاهرة ، 1991 ، ص 123 ؛ صبحي عبد المنعم ، العلاقات بين مصر والحجاز زمن الفاطميين والايوبيين ، القاهرة ، 1993 ، ص 34 ؛ عصام الدين عبد الرؤف الفقي ، دراسات في تاريخ الدولة العباسية ، القاهرة ، 2001 ، ص 195؛

Hassan Ibrahim Hassan , Islamic history and culture , London , 1968 , p 219 .

(²) الزيد ، العلاقات ، ص 285 .

(³) حسن أحمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والإخشيديين ، ص 153 .

(⁴) ابن سعيد ، المغرب ، ج 1 ، ص 169 ؛ فيليب حتى ، تاريخ العرب ، بيروت ، 1986 ، ص 530 ؛ شوقي ضيف ، عصر الدول والامارات المستقلة ، القاهرة ، 1990 ، ص 19 - 20 .

تغير السياسة الفاطمية مع الاخشيد :

لم ينته الطريق أمام الفاطميين بعد هذه الهزائم الثقيلة التي نالتهم كلما حاولوا الاستيلاء على مصر، فليس شرطاً أن تكون الحرب والسيوف هي الوسيلة دائماً من أجل تحقيق المبتغى، لذا لم يتخل الفاطميون عن عزمهم واستمروا في دعايتهم بنشاط سواء كانت هذه الدعاية دينية أو سياسية محضة¹ ورغم الهزيمة العسكرية إلا أن الدعوة لمذهبهم كانت تتجح يوماً بعد يوماً وتجد لها الأتباع، ومع كل حملة فاطمية جاءت كان يلزمها دعاة لنشر المذهب الشيعي الفاطمي وأيد هؤلاء الدعاة أعوانهم الذين اعتنقوا هذا المذهب في مصر؛ ولا أدل من انضمام بعض الزعماء المصريين إلى الحملة الفاطمية التي أنفذها الخليفة القائم بن عبيد الله إلى الاسكندرية 323 هـ، بل قبل هذه الحملة أيضاً لا ننسى المتعاطفين مع الفاطميين في الحملات الأولى من قبضي وغير قبضي .

لذلك غير الفاطميون من سياستهم مع حكام مصر بما ينطوي على الود واللين² بل أن القائم الفاطمي فكر في انتهاج أسلوب اللين مع الاخشيد بعد حملة عام 323 هـ³ .

وبدأت العلاقة الدبلوماسية بين الاخشيد والفاطميين في عهد القائم الفاطمي ثاني الخلفاء الفاطميين في بلاد المغرب؛ فقد كتب هذا الخليفة إلى الاخشيد خطاب يحثه فيه على نشر الدعوة الفاطمية في مصر⁴ أو أن

(¹) سيمينوفا ، تاريخ مصر الفاطمية ، ترجمة : حسن بيومي ، القاهرة ، 2001 .
ص 38 .

(²) محمد احمد محمد ، الاحداث السياسية في مصر الاسلاميه ، القاهرة ، 1999 ، ص 133 .

(³) ابن سعيد ، المغرب ، ج 1 ، ص 175 .

(⁴) علي ابراهيم حسن ، مصر العصور الوسطى ، ص 207 .

شئنا قلنا يحثه وشعب مصر على إتباع الفاطميين سياسيا ومذهبيا والمطلع على هذا الخطاب المرسل من القائم الفاطمي إلى الاخشيد يلمس ذلك بوضوح .

فلما وقف الاخشيد على ما جاء احتج إلى رسول الخليفة الفاطمي انه لا يقرأ ولا يكتب ولا يجوز له أن يبوح بما في نفسه إلى كاتب وقال له : وأنا أتدبر الجواب فأجيب عنه ويصل مع من أثق به واسلك من حسن الموالة ما لم يكن غيري يسلكه .¹

ولا ريب في أن الاخشيد فهم مقصد الرسالة. ولكن ما الذي يدفعه إلى الخروج عن الخلافة العباسية رغم ضعفها الذي يسمح له بان ينعم بقسط وافر من الاستقلال من ناحية، كما انه من المحتمل انه كان يكره أن يتخلى عن مذهبه السني ويلقي بنفسه في أحضان الدولة الشيعية من ناحية أخرى .

و لكن ليس معنى ذلك انه أغلق الباب أمام اللين الفاطمي، ولا أدل انه حينما لم يجد النصرة من قبل الخلافة في صراعه مع ابن رائق فكر في الدعوة للخليفة الفاطمي، وقطع صلته بالخليفة العباسي بإزالة اسمه من خطبة الجمعة لكن بعض أخصائه نصحوه بالعدول عن ذلك ، كذلك قيل انه ارسل بكتاب للخليفة الفاطمي القائم يعرض عيه زواج ابنته من ولي العهد الفاطمي ، وظن أن القائم سيرسل إليه من الهدايا والأموال ما يفخر به ؛ لكن ظنه خاب وفسد مشروع المصاهرة² .

على أن علاقه لم تستمر لينه كذلك زمناً طويلاً؛ فما لبثت أن توترت بعد وفاة الخليفة الفاطمي القائم وتولي ابنه المنصور الذي انشغل في القضاء على الثورات الداخلية التي قامت في بلاد المغرب في عهده ،

(¹) ابن سعيد ، المغرب ، ج 1 ، ص 176 .

(²) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والاكشيديين ، ص 274 - 275

ومن ثم فشل مشروع غزو مصر أو على الأقل اعتراف الاخشيديين
بسلطان الفاطميين ¹.

ومن ناحية أخرى اضطر الفاطميون إلى الرجوع ومراقبة الحالة
في مصر عن كثب على الرغم من أن مطامعهم في فتح هذه البلاد كانت
تشتد سنة بعد أخرى، فقد جذبهم إليها رخاؤها وثروتها ومركزها
الجغرافي في قلب العالم الاسلامي فضلا عن بأسهم من استقرار الأمور
في المغرب ورغبتهم في التقدم نحو الشرق لعلهم يستطيعون من مصر أن
يسيطروا على الشرق الأدنى ويسقطوا الخلافة العباسية ².

النزاع بين ابن رائق والإخشيدي

وما لبث ابن رائق أن وصل إلى إمرة الأمراء للخليفة العباسي،
بل وطمع في ملك الشام كله؛ وما أن نظم أحواله وأموره حتى شرع في
تهديد الاخشيد ³ وبدأ الأمر بأن طالب الاخشيد بمال أو أن شننا
تسميتها جزية أو اتاوه على ممتلكات الاخشيد في بلاد الشام إشارة إلى
تبعية الشام لابن رائق وأن الاخشيد مجرد نائب عنه فيها ، وهو أمر
بالطبع لا يصح ولا يرضاه الاخشيد .

ولكن الاخشيد لم يبادر بالعداء من البدايه فقدم المال المطلوب
إلى ابن رائق ⁴ إلا أن الاموال لم تكن إلا حجة يتذرع بها ابن رائق
للاستيلاء على الشام ، وفعلًا وعلى الرغم من أن الاخشيد قام بدفع المال
المطلوب إلا أن ابن رائق خرج إلى الشام على رأس جيش كبير ⁵ وتمكن

(¹) علي ابراهيم حسن ، مصر العصور الوسطى ، ص 210 .

(²) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والاكشيديين ، ص 175 .

(³) الزبود ، العلاقات ، ص 294 .

(⁴) سعيد عبد الفتاح عاشور ، الرافعي ، مصر العصور الوسطى ، ص 142 - 143 .

(⁵) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والاكشيديين ، ص 147 .

من الاستيلاء على حمص ومن بعدها دمشق وهزم وألحها بدر بن عبيد الله الإخشيدى ، ثم سار إلى الرملة في أواخر ذي الحجة من سنة 327 هـ أو في أوائل سنة 328 هـ .

مثل هذا الخطر من ابن رائق كان لابد من التعامل معه بحرص وحكمة؛ فآثر الإخشيد أن يعرف موقف الخلافة من أعمال واعتداءات ابن رائق فكتب إلى ممثله في بغداد وهو المدعو علي بن أحمد العجمي يطلب منه أن ينقل وجهة نظره حول هذا الأمر وكذا مطامع ابن رائق في الشام ومصر وتصرفاته وردود الإخشيد عليها ، كما أنه أبان أنه س يلتزم برأي الخلافة ويسلم لابن رائق الشام لو أنه وليها من قبل الخلافة كما أنه في نفس الوقت على استعداد أن يقاتل ابن رائق لو فوض بالامر .

وبالطبع لم يكن كلام الإخشيد إلا مناورة سياسية أراد بها أن يستطلع رأي أصحاب النفوذ في بغداد ، إلا أن رسالته عندما وصلت إلى الخليفة لم ينطق ببنت شفه ، وهنا قال أمير أمرائه بجكم " من ضرب بالسيف وهزم صاحبه فالعمل له " ¹ .

وعندما علم الإخشيد استشاط غضبا وثار حنقه على موقف الخلافة وأمر بإلغاء الخطبة للخليفة العباسي وإحلال اسم الخليفة الفاطمي مكانه وهذا العمل كان بمثابة خطوة تمهيدية للاعتراف بسلطان الفاطميين في مصر .

على أن المؤرخين مع إجماعهم على أن الإخشيد أمر بقطع الخطبة للخليفة العباسي فاتهم لم يذكروا أن الدعوه أقيمت فعلا للخليفة الفاطمي ، إذ لو قطعت لما ضن المؤرخون بموافقتنا بهذا الخبر لأهميته وخطورته ² كما أنه سبق القول نصحه إخصائه بالعدول عن هذه الخطوه لما لها من أخطار وعقبات ؛ أقلها وقوف الخلافة مع ابن رائق

(¹) الزيد ، العلاقات ، ص 294 .

(²) علي إبراهيم حسن ، مصر العصور الوسطى ، ص 209 .

ضد الاخشيد الذي سيكون في حكم الموالى للجانب الفاطمي؛ إذ أن ذكر اسم الخليفة في الخطبه وعلى السكه كان من اهم مظاهر الخلافة في الولايات الاسلاميه¹ والملاحظ أن السكه المضروبه على عهد الاخشيد والمساييره لعهد الراضي من سنة 323 إلى سنة 328 هـ وبعض الدنانير المضروبه باسم المتقي في سنة 329 هـ كلها تشهد بان الاخشيد كان لا يزال يدين بالطاعة المطلقة للخليفة العباسي حتى أن اسم الخليفة وحده كان هو الذي ينقش على العملة، اما منذ سنة 329 هـ فإن الاخشيد كان ينقش اسمه مع اسم الخليفة على السكه كما يظهر من دنانير ضربت سنة 329 هـ و 331 - 332 - 333 هـ ، وعلى الرغم من أن لدينا دينار من سنة 329 هـ نقش عليه اسم محمد بن طفج ومعه لقب الأمير الاخشيد ولسنا ندري هل حذف اسم الخليفة بقصد ام انه عيبا في صناعة الدينار، وحتى وأن كان الحذف مقصودا ؛فهذا يجعلنا نرجح بان الاخشيد فكر في الاستقلال التام عن الخلافة بعد صلحه مع ابن رائق ثم تبين صعوبة تحقيق ذلك فرجع عن الوقوف عند الاستقلال الذاتي²، وهو ما يرجح أن الاخشيد لم يخلع الطاعة للخليفة وأن الامر كله ربما كان احياء من الاخشيد لمن حوله أو إرغاما منه للخلافة على التحرك ومحاولة إيقاف ابن رائق مهددا إياها انه قد يجد طريقه بسهوله إلى الفاطميين في حالة ايدت الخلافة ابن رائق كما ذهب البعض ،كما اتهم الخلافة بالتواطؤ مع ابن رائق في اعتدائه على ابن طفج³ كذلك إذا ما

(¹) علي ابراهيم حسن ، مصر العصور الوسطى ، ص 209 .

(²) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والاكشيديين ، ص 152 ؛ الزيود ، العلاقات ، ص 285 .

(³) الزيود ، العلاقات ، ص 293 ؛ احمد مختار العبادي ، في التساريخ العباسي والفاطمي ، الاسكندرية ، ب ت ، ص 141 ؛ علي ابراهيم حسن ، مصر العصور الوسطى ، ص 83 ؛ Hassan Ibrahim Hassan , Islamic history , p 220 .

نظرنا إلى عرض الاخشيدي على الخليفة الفاطمي القائم زواج ابنته من ولي العهد المنصور وأن الخليفة الفاطمي رد عليه بما يوحى أن الاخشيدي أصبح من اتباع الفاطميين إذ ورد في خطابه إلى الاخشيدي :

" وصل كتابك وقد قبلنا ما بذلت وهي وبيعه لنا عندك وقد نحلناها من بيت مالنا قبلك مائة ألف دينار فتوصل ذلك اليها " ¹

أي أن الاخشيدي لو كان قد خرج فعلا عن الخلافة العباسية لكان سمع واطاع وكان اخرج من بيت المال المائة ألف دينار وإذا فعل ذلك وكان الزواج قد تم فاته صادق في دعواه للفاطمي ، ولكن الامر كله مجرد تلويح للعباسيين اتهم اذا ما هددوه بابن رائق؛ هددهم بالتبعيه للفاطميين ولكنه لم يكن ليفعل لانه كما سبق وذكرنا لن يستفيد عندما يستبدل سيد ضعيف (العباسيين) يتمتع في رحابه بحكم شبه استقلالي بسيد قوي في مقبيل عمره وقوته (الفاطميين) يرغبه على فعل ما يريد وغير ذلك من الاسباب التي سبق ذكرها .

وبالعودة مرة اخرى للنزاع بين ابن رائق والاخشيدي ، وجد الاخشيدي انه لا محالة من الحرب فاعد عدته لقتال ابن رائق كما بعث بأسطوله إلى السواحل الشامية ثم استخلف على مصر أخاه الحسن وخرج هو على رأس جنده في بداية عام 328 هـ ² ونزل الاخشيدي بجيوشه إلى الفرما حيث كان ابن رائق قد اقترب ³

فجرت بينهما بعض المناوشات ثم سعى الحسن بن طاهر العلوي بين الاخشيدي وبين محمد بن رائق في الصلح ونفذ الاخشيدي كاتبه محمد بن كلا للرملة للموافقة على شروط بينهما وتم الصلح على أن الرملة ومصر

(¹) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج 3 ، ص 289 ، هامش 4 .

(²) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والاخشيديين ، ص 148 .

(³) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج 3 ، ص 289 .

للاخشيد ومن طبريه ومن خلفها لابن رائق¹ وعاد الاخشيد إلى مصر في مستهل جمادي الاول من سنة 328هـ وبعد قدوم الاخشيد إلى مصر انتقض الصلح وسار محمد بن رائق من دمشق في شعبان من نفس السنة ميمماً وجهه شطر الديار المصرية² لعله أراد أن يأخذ الاخشيد على حين غره .

وعلى أية حال فإنه وصل إلى الرملة في طريقه إلى مصر وبذل الاخشيد محاولات سلمية ليتفادى القتال لكنه لم ينجح ولم يكن هناك بدا من أن يخرج الاخشيد على رأس جيشه نحو الرملة، فالتقى الجيشان عند العريش في شهر رمضان ووقعت معركة عظيمة انهزم فيها الاخشيد في البدايه³ ولكن الغرور والطمع استولوا على جنود ابن رائق الذين راحوا يسلبون وينهبون واتسغلوا به وظنوا أن الاخشيد انتهى امره ولكنه جمع قواته وعتاده وهجم بكل ما اوتي من قوة وهاجم محمد بن رائق وقواته وهم بغفلة منه فتنزل بهم هزيمة منكرة⁴ ووصل عدد الاسرى لدى الاخشيد حوالي خمسمائة أسير⁵ وتمكن ابن رائق من الهرب والنجاة في سبعين من رجاله باعجوبة⁶ أو على حد تعبير بن سعيد " على حشاشة نفسه " ⁷ .

وتابعت الجيوش الاخشيدية بقيادة ابي النصر الحسين بن طنج اخي الاخشيد ملاحقتها القوات المنهزمة التي اتجهت صوب دمشق وفي

(¹) ابن سعيد ، المغرب ، ج 1 ، ص 174 .

(²) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج 3 ، ص 289 .

(³) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والاكشيديين ، ص 148 .

(⁴) الزيود ، العلاقات ، ص 297 .

(⁵) الكندي ، ولاية مصر ، ص 307 ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج 3 ، ص 290 .

(⁶) الزيود ، العلاقات ، ص 297 .

(⁷) ابن سعيد ، المغرب ، ج 1 ، ص 178 .

منطقة اللجون فاجأتها قوات ابن رائق بهجوم ادي لمقتل ابي نصر مع جمع كبير من جيشه واسر بعض مساعديه واخذوا إلى دمشق¹ ، في حين أن ابن العديم يذكر أن ابو الفتح مزاحم بن رائق وقع في الاسر فرجع محمد بن رائق في عدة يسيره ليفك اسره وفي خضم ذلك تم قتل الحسين بن طغج المكنى بابو النصر .

ومن ناحيه اخرى سير الاخشيد كافور الخادم² من مصر ومعه الجيش فوصل إلى حلب فالتقى كافور بوالي حلب عن ابن رائق فهزمه كافور واسره واخذ منه حلب وولى عليها محمد بن مساور الرومي ثم عاد كافور إلى مصر³ بعد أن اتزل وعسكره الخراب والدمار في حلب والمناطق المحيطة بها التي كانت بظاهاها وبالغت في اذاء الاهالي⁴ .

وبناء على هذه المواجهه راي ابن رائق انه لا سبيل مع الاخشيد إلا الصلح ، فقام غسل أخا الاخشيد، وكفنه وحنطه وحمله في تابوت وأنفذ إليه واعتذر ، وأنفذ ابنه مزاحم إليه كي يقتص لآخاه ، ووصل مزاحم إلى فلسطين حيث محمد بن طغج موجود فأكرمه ورفع وترضح له وسأله الجلوس فلم يفعل فوقف بين يدي الاخشيد وقال : بهذا امرت . فلما اتصرف ، حمله على فرس له ، وأرسل إليه : ليس لقدره أرسلت به إليك ، ورده مع ابن طاهر إلى أبيه⁵ .

(¹) الزيود ، العلاقات ، ص 297 .

(²) كان للاخشيد غلمان كثيرون واتباع وكان وجوههم بدر الكبير وشادن الصقلي ومنجج للصقلي وكافور الاسود وفاتك الفحل وبشرى وغيرهم ، للمزيد انظر : ابن سعيد ، المغرب ، ج 1 ، ص 164 .

(³) زبدة الحب ، ج 1 ، ص 61 - 62 .

(⁴) الزيود ، العلاقات ، ص 298 .

(⁵) ابن سعيد ، المغرب ، ج 1 ، ص 178 .

وأفلحت الوساطة في الصلح بين الفريقين على أن يحكم ابن رائق الولايات الشامية شمالي الرملة وعلى أن يدفع له الاخشيد جزية سنوية قدرها مائة وأربعون ألف دينار، وكان من مظاهر هذا الصلح أن تصاهر الفريقان فزوج الاخشيد ابنته فاطمة من مزاحم بن محمد بن رائق¹، على أن يبقى عبيد الله بن طغج عند ابن رائق في مقابل أن يوجد مزاحم بن رائق لدى الاخشيد². ولم يلبث الاخشيد أن استرجع أملاكه في الشام ولكن عقب وفاة محمد بن رائق³.

- محاولة نقل الخلافة إلى مصر ونهاية المتقي لله

بعد عودة محمد بن طغج الاخشيد من الشام على اثر عقد صلحه الثاني مع ابن رائق وردت الأخبار في شعبان سنة 329 هـ إلى مصر بوفاة الخليفة السراضي وبيعة اخيه المتقي لله⁴؛ الذي بويع له يوم الأربعاء العشرين من ربيع الاول من نفس السنة⁵، ووصل كتاب للاخشيد منه باقراره على مصر، والواقع أن اعتراف الخليفة كان لا يزال له شأنه عند العامة والخاصة، اذ انه بالرغم من ضعف الخليفة في بغداد إلا أن سيادته على الممالك الاسلاميه ظلت ماثله في الازمان ولم يفقد معنى الخلافة ما كان له من القوة والسلطان؛ حتى أن بني اميه في الاندلس كانوا يقتنعون بتسمية انفسهم بني الخلفاء ولم يتخذوا لقب خليفة أو امير المؤمنين ثم جاء الفاطميون وكانوا اول من خرج على هذه

(¹) حسن احمد، سيده كاشف، الطولونيين والاششيديين، ص 148 - 149.

(²) الزبود، للعلاقات، ص 298.

(³) السيد عبد العزيز سالم، طرابلس والشام في التاريخ الاسلامي، الاسكندريه 1966، ص 44.

(⁴) حسن احمد، سيده كاشف، الطولونيين والاششيديين، ص 178.

(⁵) ابن العمراني، الاتباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق: قسم المسامراتي، القاهرة 1999، ص 168.

القاعده فلم يكتفوا بان يكونوا امراء نوي سلطان لنيوي فقط بل ارادوا أن يكونوا هم الخلفاء الحقيقيين للنبي صلى الله عليه وسلم فاتخذوا لانفسهم لقب الخلافة .

وعلى اية حال فان النزاع كان على اشده في بغداد حول منصب امير الامراء¹ فقد انفذ الخليفة المتقي "بجكم" إلى قتال الاكراد والديلم بنواحي واسط فمضى وهزمهم وفي عوده كان يتصيد فبادره كردي ورماه بحربه فوقعت في ظهره وخرجت من صدره ، وخلفه في منصبه ابي عبد الله البريدي الذي شغب الجند في عهده وثاروا عليه فهرب .

وشغر منصب امرة الامراء ، وكان ابا اسحاق القراريطي هو امير الامراء الجديد فقد استوزره الراضي إلا أن القراريطي لم يكن له طاقة على هذا المنصب اذ قال للمتقي : لا طاقة لي بالعسكر وانما انا كاتب فانظر فيمن يدبر أمر عسرك ، فاختار المتقي كورتكين الديلمي وجعله امير الامراء وكان من الديلم الذين سعدوا مع البريدي من واسط .

وورد الخبر بقنوم ابي بكر محمد بن رائق من الشام إلى بغداد فخشي كورتكين أن يولي الخليفة ابن رائق امرة الامراء فطلب من الخليفة الآن لرد ابن رائق فوافقه الخليفة لسانا واما قلبه فكان مع ابن رائق ، إلا أن ابن رائق استطاع أن يظفر بالمنصب مرة اخرى وأن يلقي القبض على كورتكين .

ومن ناحيه اخرى كان البريدي حينما هرب من بغداد اتحدر إلى الاهواز وكاتب الديلم بني بويه وهون أمر الخلافة في اعينهم وحسن لهم قصد بغداد فامدوه بمائة الف من خيالة ورجالة الديلم ؛على انه لو تم فتحها يفتسمه البريدي والبويهيون ، فوصل الديلم إلى واسط ولم يقدم ابا عبد الله البريدي على الهجوم على بغداد فنفذ العسكر مع اخيه ابي

(¹) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والاششيديين ، ص 149 .

الحسين بن البريدي¹ واستولى على بغداد وهرب المتقي وابنه وابن رائق إلى الموصل² وقيل أن أبو الحسين بن البريدي راسل الخليفة واقسم له أنه لا يريد به سوءا وإنما يريد مكان ابن رائق وهو منصب امرة الامراء³ إلا أن ابن رائق لم يكن بحاجة لأن يصرفه الخليفة عن المنصب فقد قتله الحسين بن حمدان في رجب من سنة 330 هـ واعتذر للخليفة وقال له : إنما قتلته لأنني علمت أنه يريد الإيقاع بك فقبل الخليفة عذره وقلده امرة الامراء ولقبه ناصر الدولة ثم سار المتقي وابن حمدان واخوته إلى بغداد حيث مكث في منصبه ثلاثة عشر شهرا⁴ .

وإن كان مقتل ابن رائق قد مهد لناصر الدولة منصب امير الامراء فإنه مهد للاخشيد أن يسترجع الشام مرة أخرى ، إذ أن الاخشيدي لما علم بمقتل ابن رائق سنة 330 هـ خرج مسرعا ودخل دمشق وأصلح أمورها ولم يعد إلى دمشق إلا بعد أن ثبت نفوذه في بلاد الشام⁵ ولا ريب أن قتل ابن رائق واستقرار الحكم في الشام للاخشيد ونجاحه في تدعيم حكمه في مصر كل ذلك يعتبر حدا فاصلا في علاقته بالخلافه فقد أصبح من القوه بحيث استطاع في آخر ذي القعدة سنة 331 هـ / 942م أن يأخذ البيعه من قواده وجنده وذوي الرأي في مصر لابنه أبي القاسم اتوجور من بعده⁶ .

(1) ابن العبراني ، الأنباء ، ص 170 .

(2) أبي الحسن الروحي ، بلغة الظرفاء في تاريخ الخلفاء ، تحقيق : عماد احمد هلال وآخرون ، القاهرة ، 2003 ، ص 260 .

(3) ابن العبراني ، الأنباء ، ص 170 .

(4) أبي الحسن الروحي ، بلغة الظرفاء ، ص 260 - 261 .

(5) سعيد عبد الفتاح عاشور ، الرافعي ، مصر العصور الوسطى ، ص 144 .

(6) حسن احمد ، سيده كشف ، الطولونيين والاكشيديين ، ص 150 .

وعلى أية حال فإن الحسين بن حمدان كما سبق القول قتل ابن رائق لأنه أراد أن يحل محله ، لذا خلع عليه المتقي وجعله اميرا للامراء ولقبه بناصر الدولة ولقب اخيه ابي الحسن علي بسيف الدولة وبعد ذلك تجهز ناصر الدولة وسار إلى بغداد ومعه المتقي ولما قارباها هرب عنها ابو الحسين بن البريدي وسار إلى واسط بعد أن أقام ببغداد ثلاثة اشهر وعشرين يوما ودخل المتقي بغداد ومعه بنو حمدان في جيوش كثيرة ثم خرج بنو حمدان يريدون واسط لأخذها من البريدي فأقام ناصر الدولة بالمدائن وسير اخاه سيف الدولة لقتال البريدي فالتى به تحت المدائن بفرسخين وكانت مقاومة البريدي شديدة حتى انه هزم سيف الدولة ولكن ناصر الدولة بالامدادات التي ارسلها استطاعت أن تلحق الهزيمة بالبريدي لكن سيف الدولة لم يتبع هذا الامداد إلى واسط فقد اصيب رجاله بالوهن والجراح إلا انهم لما استردوا عافيتهم سار سيف الدولة إلى واسط واخذها بينما فر البريدي إلى البصرة وكان سيف الدولة يريد أن يتبع البريدي إلى البصرة إلا أن قلة ماله منعتة من ذلك كما انها انقصت من هيئته لدى جنده الاتراك واخيرا وليس اخرا هجم عليه بني بويه فهرب ولما سمع اخيه ناصر الدولة بذلك هرب هو الآخر من بغداد إلى الموصل تاركا منصب امرة الامراء شاغرا .

وبعد رحيل ناصر الدولة اختار المتقي لامرة الامراء اكبر قواد الديلم واسمه توزون¹ إلا أن علاقه بين المتقي وتوزون لم تكن جيدة

(¹) المظفر ابو الوفا متغلب تركي كان من غلمان مرداويج بن زيار امير جرجان وكان احد المتأمرين عليه مع بجكم وآخرين سنة 323 هـ وقد هربا مع جماعتهم الاتراك فتوجه توزون إلى شيزار وكان يملكها عماد الدولة البويهى ولجأ بجكم إلى محمد بن رائق امير واسط حينها ثم التحق توزون ببجكم الذي ترأس الاتراك ودخل مع ابن رائق بغداد إلى بغداد سنة 326 هـ ، ولما قتل بجكم سنة 329 هـ انضم توزون إلى عبد الله البريدي واستولى معه على بغداد سنة 330 هـ ثم ولاه المتقي امرة الامراء

أو بمعنى آخر لم تكن احسن مما سبقوه بل على العكس كانت الأسوأ على الإطلاق .

واختلفت الآراء حول سبب هذا السوء في العلاقة بين المتقي وتوزون ، فهناك من ذهب إلى أن توزون لم يكن عنده شيء من حسن السياسة فاستوحش منه المتقي وخاف على نفسه لذا هرب إلى الموصل مستعيناً بالحمدانيين¹ ، وهناك من ذهب إلى أنه خشي من المتقي أن يخلعه من منصب أمير الأمراء وأن الخليفة تأمر عليه وحاول مكاتبة البويهيين ليأتوا إلى بغداد² ، وهناك من ذهب إلى أنه لما احس بعظم السلطان الذي في يده لم يراع للخليفة حرمة حتى ضاق به فخرج من بغداد لاجئاً إلى الحمدانيين³ ، وهناك من ذهب إلى أن المتقي لما ساعد سيف الدولة الحمداني حينما كان ببغداد وطلب منه الأخير المال للتصدي لتوزون فإن المتقي لم يبخل عليه في حين بخل سيف الدولة بقتال توزون فهرب وترك المتقي ، فحملها توزون للمتقي كذلك هناك من يتهم بطانة المتقي أي رجاله وخواصه بفساد العلاقة بين المتقي وتوزون خوفاً على انفسهم ومصالحهم⁴ .

ولم تاتي سنة 332 هـ حتى كان المتقي قد ترك بغداد خوفاً من توزون إلى جهة ناصر الدولة بالموصل⁵ إلا أن توزون لما بلغه ما حدث تبعه حتى وصل إلى تكريت حيث التقى بسيف الدولة وهزمه مرتين ثم

بعد ناصر الدولة فاصبح صاحب السلطان المطلق في العراق ، للمزيد انظر : عبد السلام الترماتيني ، احدث التاريخ الاسلامي ، مج 1 ، دمشق ، 1991 ، ص 590 .

(¹) محمد الخضري بك ، الدولة العباسية ، القاهرة ، 2003 ، ص 345 - 346 .

(²) ابراهيم الكروي ، البويهيون والخلافة العباسية ، الكويت ، 1982 ، ص 166 .

(³) احمد ابراهيم ، حسن احمد ، العا لم الاسلامي ، ص 299 .

(⁴) سيد عبد الفتاح بلاط ، امرة الامراء ، ص 150 .

(⁵) ابن الوردي ، تاريخ ابن الوردي ، ج 1 ، بيروت ، 1996 ، ص 266 :

استولى على الموصل ¹ وصادر من أهلها مائة ألف دينار ² فصار عنها بنو حمدان والمتقي إلى نصيبين ³ فالرقه * ⁴ .

والظاهر أن الخليفة رأى من الحمدانيين المال والضجر، فصل على الصلح مع توزون ولكنه في نفس الوقت كتب إلى الاخشيد يستحثه على المجئ ولقاته بالرقه وفعل الاخشيد، إلا أنه لم يعبر نهر الفرات خشية من أن يلقى نفس مصير ابن رائق مع الحمدانيين فاضطر الخليفة إلى عبور الفرات للقاته ⁵ وتلاقى الاخشيد مع الخليفة المتقي واعظمه المتقي غاية الاعظام، ووقف الاخشيد بين يديه وقوف الغلمان وفي وسطه سلاحه ثم ركب المتقي فمشى بين يديه الاخشيد فامرته أن يركب فلم يفعل ولم يزل على تلك الحال مختلطاً بالغلمان إلى أن نزل من ركوبه وحمل إليه الهدايا ومالا وحمل إلى أبي الحسين بن مقله عشرين ألف دينار .

ولم يدع كتباً ولا حاجباً إلا أبهره ⁶ ويبدو أن الخليفة قد سر باخلاص الاخشيد وهداياه فقال له " قد وليتك اعمالك ثلاثين سنة فاستخلف لك اوتوجور " فزاد الاخشيد الهدايا إلى الخليفة اعترافاً بفضله عليه وعلى ابنه، وهكذا حصل الاخشيد على تقليد جديد من الخليفة بولاية

(¹) الخضري بك ، الدولة العباسية ، ص 346 .

(²) الذهبي ، دول الاسلام ، دول الاسلام ، ج 1 ، تحقيق : حسن اسماعيل مروه ، بيروت ، 1999 ، ص 303 .

(³) الخضري بك ، الدولة لاسلاميه ، ص 346 .

* الرقه مدينه بالعراق مما يلي الجزيره وكل ارض ينبسط عليها الماء عند المد فهي رقه وبه سميت المدينه والرقه واسطه بلاد مضر ومن منها لبرها وسروج وشمشاط ولسر العين وغيرها ، للمزيد انظر : محمد عبد المنعم الحميري ، للروض المعطار في خبر الاقطار ، بيروت ، 1984 ، ص 270 .

(⁴) ابن الوردي ، تاريخ ابن الوردي ، ج 1 ، ص 266 .

(⁵) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والاكشيديين ، ص 150 .

(⁶) مسكويه ، تجارب الامم ، ج 2 ، القاهره ، ب ت ، ص 67 - 68 .

مصر وحق توريث امارتها لابنائها من بعده وأن كان هذا الحق قد حدد بفترة ثلاثين عاما ، والواقع أن هذا التقليد لم يكن له شأن عملي كبير وانما كان اقرارا للواقع واعطاء لامتياز لم يكن الخليفة يستطيع أن يمنعه إذ أن الاخشيدي كان قد سبق واخذ البيعه لابنه قبل لقاء الخليفة .

ومهما يكن من الامر فإن الاخشيدي علم بيلأس الخليفة وعزمه على العوده إلى توزون عدوه اللدود فعرض عليه أن يسير معه إلى مصر والشام ليكون ورجاله في خدمته فرفض الخليفة هذه الدعوه فعرض الاخشيدي أن يقيم الخليفة في الرقه ويمده بالمال والرجال للدفاع عن سلطان الخلافة فرفض المتقي ، فعرض الاخشيدي على الوزير ابن مقله أن يسير معه إلى مصر فرفض ابن مقله مراعاة للخليفة .

ولعل الخليفة فقد ثقتة من الاساس في القواد والزعماء واصبح لا ينتظر ألا يكرمه الاخشيدي طويلا ففضل إلا يبعد عن حاضرة ملكه وأن يعمل على الصلح مع توزون امير الامراء¹ ، لذا فقد اصبح الخليفة العوبة بين قواده المتنافسين على السلطه² .

ولو اتيح للاخشيدي أن ينجح في جذب الخليفة إلى مصر لتغير إلى حد ما مستقبل الخلافة ومستقبل وادي النيل، والواقع أن الاخشيدي لم يكن أول وال عباسي فكر في مثل هذا المشروع ؛ فقد سبقه ابن طولون من قبل وفشل ، ولم يتم ذلك إلا على يد الظاهر بيبرس في القرن 7 هـ / 13 م³ . وقبل الانتقال إلى الحديث عن نهاية الخليفة المتقي وجب علينا ذكر تكملة ذكرها ابن سعيد عن ذلك اللقاء بين الاخشيدي والمتقي إذ زاد في

(¹) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والاخشيديين ، ص 150 - 151 .

(²) وفاء محمد علي ، الخلافة العباسية في عهد تسلط البويهيين ، القاهرة ، 1990 ، ص 34 ؛ ايلي منيف شهله ، الايام الاخيره في حياة الخلفاء ، القاهرة ، ب ت ، ص 122 .

(³) حسن احمد ، سيده كاشف ؛ الطولونيين والاخشيديين ، ص 151

أن الاخشيد عرض على الخليفة أن يسير معه إلى بغداد وأن يصبح اميرا لامراته وأن الخليفة قبل ذلك ، إلا أن رجال الاخشيد وبطانته وخواصه وبخوه على ذلك وخوفوه من فقدان مصر والشام والدخول في صراعات مع توزون والأتراك لا يطعم مداها إلا الله ولم يخرج الاخشيد مما ورط نفسه فيه إلا بعد أن زور احد رجاله خطاب مبعوث من مسمر بوجوب حضوره إلى مسمر ، لأن الخليفة الفاطمي استغل خروج الاخشيد وبعث عسكره في البر والبحر للاستيلاء على مصر ، فما كان من الاخشيد أن اعتذر للخليفة عن المسير معه إلى بغداد وسمح له الخليفة بالمسير إلى مصر للنظر في شئون ولايته ¹ . وأن صحت هذه الرواية لكان للاخشيد ومصر والشام والخليفة والاحداث والتاريخ عامة شكلا اخر .

وعلى اية حال تراسل المتقي وتوزون واستوثق المتقي منه بالايمان والعهود فاتحدر المتقي من الرقة في الفرات يريد بغداد وعندما وصل إلى هيت واقام بها اتفد قوما إلى توزون حتى جددوا عليه العهود والايمان والمواثيق وعادوا إلى المتقي وعرفوه أنهم احكموا الامر مع توزون فردهم المتقي ومعهم غيرهم ليزيدوا في التوثق منه فساروا إليه وبالفوا في الاحتياط والثقة وخرج توزون من موضع يعرف بالسنديه ليلقى المتقي ² ، اما المتقي فقد تلقاه ابو جعفر بن شيرزاد بأحسن لقاء واقام له الاتراك ومضى المتقي حتى دخل النهر المعروف بنهر عيسى وسار إلى الضيعة المعروفه بالسنديه حيث يوجد توزون ³ ؛ الذي تلقاه اولا امام الجميع بالود والطاعة حتى انه قبل الارض بين يدي المتقي ثم

(¹) المغرب ، ج 1 ، ص 192 .

(²) الانطاكي ، تاريخ الانطاكي ، تحقيق : عمر عبد السلام تدمري ، لبنان ، 1990 ، ص 46 - 47 .

(³) المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج 4 ، تحقيق : محمد محي الدين عبد المجيد ، القاهرة ، 1948 ، ص 342 .

أوصى به لجماعه من اصحابه امرهم أن يحتاطوا بالمتقي فاحتاطوا به وادخلوه إلى خيمته ليكون بذلك توزون وفا بوعده في الظاهر ويقبض على المتقي في الباطن كي يسمل له عينيه ومن ثم يخلعه¹ وبكى المتقي وصاح النساء والخدم لصياحه، فأمر توزون بضرب الدباب حول المضرب ليخفى صراخ الخدم وادخل إلى الحضرة مسمول العينين وأخذ منه توزون البرده والقضيب والخاتم وسلمهم للمستكفي بالله الذي خلف المتقي ، ويقال أن القاهر عندما بلغه ما حدث قال : صرنا اثنين ونحتاج إلى ثالث ، يعرض بالمستكفي . لتكون خلافة المتقي بذلك نحو أربع سنين وعاش بعد خلعه وسمله خمساً وعشرين سنة والعجب أن توزون لما فعل بالمتقي ما فعل، لم تمر السنة إلا ومات² .

أما الأخشيدي فإنه بعد لقائه بالخليفة المتقي عاد إلى مصر في جمادي الأول سنة 333 هـ وسار المتقي إلى بغداد حيث فعل به توزون ما فعل، وتولى المستكفي الخلافة في جمادي الآخر سنة 333 هـ وأقر الأخشيدي على ولاية مصر والشام ، وقام الأخشيدي بالدعوة له على المنابر في أنحاء ولايته .

ولما عزل المستكفي وبويع المطيع لله سنة 334 هـ خلفه ظلت العلاقة بين الخلافة والأخشيدي على حالها إذ باهر المطيع بأقرار الأخشيدي على ولايته وأمر الأخشيدي بالدعوة للمطيع على المنابر .

(¹) الطقطقي ، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، تحقيق : علي الجارم ، محمد عوض بك إبراهيم ، القاهرة ، 1923 ، ص 255 .

(²) ابن تغري بردي ، مورد اللطائف في من ولي السلطنة والخلافة ، تحقيق : نبيل محمد عبد العزيز ، القاهرة ، 1997 ، ص 197 ؛ السيوطي تاريخ الخلفاء ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، 1988 ، ص 461 ؛ ابن الوكيل، تحفة الاحساب بمن ملك مصر من الملوك والنواب ، تحقيق : محمد الششتاوي ، القاهرة ، 1999 ،

والواقع أن علاقه الاخشيد بالحكومة المركزية في بغداد لم يطرأ عليها اي تغيير بعد المتقي فقد شغل الاخشيد بنزاعه مع سيف الدولة الحمداني على حكم الشام ووقفت الحكومة المركزية موقف المتفرج فلم يكن لها في هذا الخلاف رأي تبديه أو ارادة تملئها¹ ..

- الاخشيد والحمدانيين:

وبدا الطريق بين النزاع الاخشيدي الحمداني عقب موت ابن رائق مباشرة فمن ناحية الحمدانيون سبروا عسكريا انتزع حلب في نفس السنة التي قتل فيها ابن رائق وبذلك تحقق الخطر الحمداني على املاك الاخشيد في الشام ، اما من ناحية الاخشيد فانه كما مر بنا ما نا سمع بموت ابن رائق حتى عمل على تأمين حدوده في الشمال فاسرع ودخل دمشق ولم يرجع إلى مصر الا بعد أن وطد مركزه ونظم اموره فرجع بعد ذلك إلى مصر وكان ذلك في العام 331 هـ .

ثم تاتي بعد ذلك المشكله بين الخليفة المتقي لله وامير امرائه توزون ويخرج الخليفة لاجنا للحمدانيين طالبا في نفس الوقت مساعدة الاخشيد كما مر بنا ، وكان الاخشيد لما خرج إلى الخليفة فانه خرج ايضا ليستعيد حلب وتمكن فعلا من دخولها² اذ أن واليها الحمداني الحسين بن حمدان لم يستطع الوقوف امام الاخشيد ففر من حلب واتجه إلى الرقه حيث لم يستطع دخولها اذ كان الخليفة المتقي قد دخلها هاربا من توزون كما سلف الذكر .

ويبدو أن الاخشيد قد اراد في خروجه هذا غير تلبية دعوة الخليفة أن يعرج على الموصل وينتزعها من ايدي الحمدانيين تاديبا لهم الا أن الخليفة المتقي توسط لديه فقبل الاخشيد وساطته³ .

(¹) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والاضبيديين ، ص 151 - 152 .

(²) النخيلي ، فتح الفاطميين للشام ، ص 35 - 36 .

(³) الزبود ، العلاقات ، ص 306 - 307 .

وعلى أية حال فإن اللقاء قد تم كما مر بنا وسار الاخشيدي في طريق عودته إلى مصر فمن الرقة إلى حلب حيث ولى من قبله ابا الفتح عثمان بن سعيد بن العباس بن الوليد الكلابي¹ وكانت هذه البدايه اذ أن الكلابيون تحاسدوا فيما بينهم وحسدوا الوالى الكلابي علي ولايته لحلب وهنا لم يجدوا من يتجهون إليه الا سيف الدولة الحمداني ذو الماضي القريب المشرق في مجاهدة البيزنطيين حتى لقب بالغازي وبسيف الدولة² بل عد البعض نضال سيف الدولة ضد البيزنطيين عمل ذات نكهه خاصه في حياته وغير ما خاضه من صراعات ضد القوى الاخرى³.

وهذه الدعوه من جانب الكلابيين فتحت لسيف الدولة افاقا واسعه خاصه بعد أن طلب من اخيه ناصر الدولة أن يوليه احدى الولايات فقال له " الشام امامك وما فيه احد يمنعك منه " ⁴.

وهنا انتهز سيف الدولة الفرصه فسار إلى حلب ودخلها في ربيع الاول سنة 333 هـ ثم تبع ذلك استيلائه على قنسرين والثغور الشاميه وحمص وانطاكيه واراد أن يضفي على تصرفاته الشرعيه فاقام الدعوى فيما استولى عليه للمستكفي ثم لآخيه ناصر الدولة ثم نفسه⁵ ومثلما حدث من قبل ارسل الاخشيدي إلى الخلافة يعلمها بما كان منه من اقامه الدعوة للخليفة الجديد واخذ البيعه له وكذلك بما كان من اعمال سيف الدولة فكان رد الخلافة هو خلع للاخشيدي ولابنه اتوجور على ما كان له

(¹) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج 1 ، ص 67 .

(²) النخيلي ، فتح الفاطميين للشام ، ص 39 - 40 .

(³) Carl Broklman , History of the islamic people , London , 1959 , p 152 .

(⁴) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج 1 ، ص 67 .

(⁵) النخيلي ، فتح الفاطميين للشام ، ص 40 - 41 .

وما اضيف له على اتفاق الخليفة المتقي معه ¹ ، أو بمعنى آخر أن الاخشيد كان عليه أن يحل مشكلته مع ابن حمدان بالسيف تماما كما حل مشكلته من قبل مع ابن رائق بالسيف .

وكانت البدايه حينما سمع الاخشيد بان سيف الدوله يريد حمص ثم دمشق فارسل الاخشيد جيشا عليه اربعة من قواده فذهبوا إلى دمشق وجهزوا عساكرهم ونهضوا للمسير إلى حمص ² ومن هؤلاء القاده كافور ويانس المؤنسي ³ وفاتك ⁴ لاسترداد ما فقد من اعمال ولدفع الخطر المرتقب على دمشق ولكن الهزيمة حاقت بالصكر الاخشيدي عند الرستن من ارض حمص على نهر العاصي ⁵ اذ التحم الجيشان فانهزم الاخشيدون وازدحم جماعة منهم على جسر الرستن وسقط البعض منهم في النهر ⁶ وكان عدد المحصورين بالجسر اربعة الاف جندي اخشيدي ⁷ وهنا رفع سيف الدوله السيف وامر غلماته وجنوده الا يقتلوا احدا من الجنود الاخشيديين قائلا " الدم لي والسما لك " واسر الاربعة الاف ثم ما لبث أن اطلق سراحهم فشكروا له فعله ومضوا ⁸ اما عن القاده فان المصادر تذكر أن كافور بعد أن نزلت الهزيمة بالاخشديين هرب إلى حمص ثم دمشق وارسل للاخشيد يعلمه بما حدث في حين صممت عن القاده الاخرين وربما كانوا ممن اسروا على الجسر ثم اطلق

(¹) ابن سعيد ، المغرب ، ج 1 ، ص 193 .

(²) ابن سعيد ، المغرب ، ج 1 ، ص 193 .

(³) النخيلي ، فتح الفاطميين للشام ، ص 41 .

(⁴) المقرئزي ، المقفى ، ج 5 ، 751 ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج 3 ، ص 293 .

(⁵) النخيلي ، فتح الفاطميين للشام ، ص 41 - 43 .

(⁶) مصطفى الشكعه ، سيف الدولة الحمداني ، القاهرة ، 1959 ، ص 145 .

(⁷) عبد الرحمن ايوب ، الرستن ، دمشق ، 1991 ، ص 133 .

(⁸) الشكعه ، سيف الدولة الحمداني ، ص 145 .

سراهم مع من اطلق سراحه ¹ ، وعلى اية حال فان سيف الدولة استطاع بعد هذا النصر أن يدخل دمشق وأن يستقر بها وذلك في رمضان سنة 333 هـ ² وكتب الاخشيد إليه يلتبس منه الموادعه والاقتصار على ما في يده الا أن سيف الدولة ابي ³ .

فما كان من الاخشيد الا أن عزم على الخروج بنفسه إلى سيف الدولة فخرج وضرب معسكره بالرملة بعد أن استخلف على مصر ابنه ابا القاسم واستخلف له عمه ابا المظفر ⁴ ، ولما وجد الاخشيد أن سيف الدولة عازما على ما رمى إليه وهو الاستيلاء على الاملاك في الشام فاته استخدم الحيلة في حربه ضد هذا المنافس الجديد فاستغل خروج سيف الدولة من دمشق فعمل الاخشيد على تأليب اهلها عليه ، وعندما عاد ابراهمه لم يفتحوا له ابوابها وهنا باذر الاخشيد باستغلال هذا الموقف وكان كما مر بنا معسكرا بالرملة ⁵ فخرج يريد سيف الدولة فلما وصل طبرية عاد سيف الدولة إلى حلب بغير حرب لان أكثر اصحابه وعسكره استأمنوا إلى الاخشيد فاتبعه الاخشيد إلى أن نزل معرة النعمان في جيش عظيم ⁶ اما سيف الدولة فقد جمع للاخشيد من بني عقيل وبني نمير وبني كلب ⁷ وكانت الواقعة بقتسرين في شوال 333 هـ وبدأت المعركة وكان النصر يتارجح مدا وجزرا بين الفريقين فقام الحمداني في البدايه بان حمل على مقدمة جيش الاخشيد شاقا طريقه إلى خيمته راغبا في القضاء على

(¹) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج 1 ، ص 68 .

(²) النخيلي ، فتح الفاطميين للشام ، ص 43 .

(³) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج 1 ، ص 68 .

(⁴) ابن سعيد ، المغرب ، ج 1 ، ص 193 .

(⁵) النخيلي ، فتح الفاطميين للشام ، ص 43 .

(⁶) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج 1 ، ص 69 .

(⁷) حمدان الكبيسي ، القائد سيف الدولة الحمداني ، بغداد ، 1989 ، ص 45 .

رأس الجيش حتى يتبعه سقوط الاخشيديين الا أن الاخشيد كان قد أعد عدته ومنذ البدايه وقف في مؤخرة جيشه في عشرة الاف من اعلى رجاله سماهم الصابريه قام بهم وانقض على سيف الدوله وجيشه واعمل فيهم السيف ،حتى أن سيف الدوله نفسه كاد أن يأسر اذ انقض عليه معاذ بن سعيد والي معرة النعمان من قبل الاخشيد الا أن سيف الدوله قتله ¹ . وهناك من اعتبر هذه الانقضاضه في البدايه انه النصر الحمداني في المعركه وأن المعركه لم تنته للاخشيد الا بعد أن حقق الحسين بن حمدان على سيف الدوله الذي استطاع أن يقف للاخشيد وهو ماجعل له النصر في النهايه .

وهنا توجد روايتان عن كيفية سير الامور بعد تلك المعركه بين الاخشيد وسيف الدوله ؛ اما الروايه الاولى فتذهب إلى أن سيف الدوله هرب ولم يتبعه الاخشيديون وانه سار إلى الرقه وقيل انه اراد دخول حلب فمنعه اهلها وتبع ذلك دخول الاخشيد حلب وافسد اصحابه في جميع النواحي وقطعت الاشجار التي كانت في ظاهر حلب والتي كانت عظيمه جدا حيث قيل انها كانت من اكثر المدن اشجارا ،وان عسكر الاخشيد بالغوا في اذى الناس بحلب لميلهم إلى سيف الدوله ثم أن الاخشيد عاد إلى دمشق بعد أن ترددت الرسل بينه وبين سيف الدوله واستقر الامر بان افرج الاخشيد عن حلب وانطاكيه وحمص وأن دمشق تظل للاخشيد مقابل مال يدفعه الاخشيد كل سنه لسيف الدوله ² .

(¹) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج 1 ، ص 69 .

(²) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج 1 ، ص 69 ؛ النخيلي ، فتح الفاطميين للشام ، ص 44 ؛ محمد راغب الحلبي ، اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، ج 1 ، حلب ، 1988 ، ص 230 .

أما الرواية الثانية فتذهب إلى أن سيف الدولة لم ينصرف بعد هزيمته في قنسرين وعسكر مواجهها للاخشيد فاختار الاخشيذ المسالمة والصلح¹.

غير أننا نرجح الرواية الاولى وذلك لانه فضلا عن أن اغلب المصادر تتفق أن الاخشيذ دخل حلب وأن سيف الدولة سار إلى الجزيرة فاتنا لو سلمنا بأن الاخشيذ وسيف الدولة عسكرا بمحاذاة بعضهما البعض وعقدا الصلح على هذا الحال، فانه من الثابت أن الاخشيذ دخل حلب وفعل بها ما فعل فبذلك يكون الاخشيذ قد كسر الصلح وهذا ما لم تحدثنا به المصادر لذا فمن المنطقي أن الاخشيذ فعلا دخل حلب وأن سيف الدولة لم يعسكر وإنما سار إلى الجزيرة ثم كان الصلح بعد ذلك²، أما الرواية الثانية فمن تعضد بها فاته في الأساس صاغ شخصيه سيف الدولة في إطار بطولي وعربي وانه فارس العرب الذي يوحدهم والذي آله تفرق العرب وتشتتهم ونظرتهم إليه انه زعيمهم وأن عصره هو العصر الذهبي لهم بعد عصر الانتكاسات المتلاحقه³.

وعلى أية حال فإن الامر بين الاخشيذ وسيف الدولة انتهى بالصلح وانتهى النزاع بينهما على نهائيه مشابهه للنزاع بين ابن رائق والاخشيد إذ تزوج سيف الدولة من فاطمه بنت عبيد الله بن طغج اخي الاخشيذ اما

(1) ماريوس كاتار ، نخب تاريخيه جامعه لاخبار الامير سيف الدولة الحمداني ، الجزائر ، 1934 ، ص 30 ؛ الشكعه ، سيف الدولة الحمداني ، ص 63 ؛ حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والاخشيديين ، ص 269 .

(2) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج 11 ، ص 351 ؛ الكندي ، ولاة مصر ، ص 306 ؛ ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، مج 7 ، تحقيق : محمد يوسف الدقاق ، بيروت ، 1998 ، ص 203 ؛ الياضي ، مرآة الجنان ، ج 2 ، ص 234 ؛ المقرئزي ، المعقل الكبير ، ج 5 ، ص 751 .

(3) A.A.Vasiliev , History of the Byzantine empire , vol 1 , USA , 1970 , p 306 .

معاهدة الصلح فقد تضمنت موافقة الاخشيد على أن يترك لسيف الدولة حمص وحلب وانطاكية، ويكون للاخشيد دمشق واعمالها وأن يدفع لسيف الدولة مال سنوي نظير احتفاظه بدمشق¹ .

وعلى الرغم من أن الكفة الراجحة كانت للاخشيد الا انه وافق على التسليم بهذه الشروط لشعوره بصعوبة حماية حدوده الشماليه، ولاقتناعه بالدور الهام الذي يلعبه الحمدانيون كحد فاصل بين ممتلكاته في الشام وبين البيزنطيين ، كما أن استمرار العداء لن يفيد الاخشيد الذي كان يجاور الفاطميين الذين كانوا يتحينون الفرصه للاستيلاء على مصر² كما أن الحمدانيون كانوا في المجال الحيوي لتوسعهم اي أن الحرب كانت ستطول وتتأرجح الهزيمة والنصر بينهما حتى يجهز احدهما على الآخر فضلا عن أن الاخشيد اثر أن يحصل بالمال على ما لا يحصل به بالسيف³، وهكذا تقرر الوضع في ربيع الاول من سنة 334 هـ / اكتوبر - نوفمبر 945 م .

ولكن الاخشيد وافته المنية في ذي الحجة من نفس العام⁴ فاغرى ذلك سيف الدولة وحاول استعادة ما رجع للاخشيد واغار على دمشق واستولى عليها⁵ الا أن كافور وانوجور بن الاخشيد سارا إليه ووقفوه عند حده وهزموه وهرب إلى حلب فالرقه بعد أن تتبعوه ودخلوا في

(1) النخيلي ، فتح الفاطميين للشام ، ص 44 .

(2) النخيلي ، فتح الفاطميين للشام ، ص 45 ؛ عبد العظيم رمضان ، الصراع بين العرب واوروبا ، القاهرة ، 1983 .

(3) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيون والاششيديين ، ص 270 .

(4) النخيلي ، فتح الفاطميين للشام ، ص 45 .

(5) محمود اسماعيل عبد الرزاق ، محاضرات في التاريخ العباسي ، القاهرة ، 1975 ،

ص 71 .

مفاوضات انتهت بنفس الشروط السابقة مع الاخشيد فيما عدا المال عن دمشق¹.

- الاشييد والبيزنطيون:

كانت الدولة البيزنطية ايام الاخشيد تعاني من حالة تستدعي أن تتبع سياسة الوفاق واللين فعلى عرش الدولة البيزنطية قيصر ضعيف هو قسطنطين السابع يتسلط عليه وزيره رومانوس الذي مالبت أن اصبح هو الآخر قيصرًا ولا يلبث ابنه اسطفانوس أن اصبح قيصرًا هو الآخر اي ثلاثة قيصره على عرش القسطنطينية ودوله في هذا الحال بالطبع لن تجد الا سياسة الوفاق واللين مع المسلمين في ذلك الوقت ولهذا الغاية عمل القيصر رومانوس الحاكم الفعلي فاوفاً سفارتين احدهما إلى الخليفة العباسي الراضي بالله فسفاره الخليفة سنة 326 هـ اعرب القياصره عن رغبتهم في طلب الهدنة وعقد اواصر الصداقه مع المسلمين فرد عليهم الخليفة بالاجابه إلى ما طلبوا من عقد اواصر الهدنة والصداقه².

اما الرساله الاخرى فكانت للاخشيد ولم تكن سفارة صداقه فقط ، واما تنظيم مسألة فداء للاسرى وتسهيل المعاملات التجاريه في البيع والشراء وارسل القيصر برسالته إلى الاخشيد مع رسوليّه نقولا واسحاق ولم يصل اليها نص الكتاب الذي ارسله القيصر للاخشيد ولكن انتهى اليها بالعكس رد الاخشيد على كتابه ؛ومنه علمنا موضوع السفارة وظروفها ومن الظاهر أن كتاب القيصر إلى الاخشيد لم يخل من بعض المآخذ الشكليه فهو يمن فيه على الاخشيد بانه تنازل لمكاتبته مباشرة لان مقامه كقيصر للدولة الرومانيه الشرقيه يحتم عليه الا يكتب من هو دون

(¹) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والاشيدين ، ص 270

(²) محمد عبد الله عنان ، مصر الاسلاميه ، القايره ، 1998 ، ص 100 - 101 .

الخليفة ولكنه مع ذلك قد خص الاخشيدي بالمكاتبة لما نما إليه من رفيع مكاتبة وحميد سيرته وموفور عدالته ورحمته .

وقد رد الاخشيدي على كتاب القيصري بكتاب شهير من انشاء كاتبه ابراهيم بن عبد الله البجيرمي وكان من ابرع كتاب عصره ويعتبر هذا الرد وثيقه دبلوماسيه من الطراز الاول تفيض إباء وحزما ويظبعها في نفس الوقت طابع بارع من اللباقة والمجامله؛ ذلك أن الاخشيدي لم يفضب لما وجهه القيصري إليه من عبارات المن والاستعلاء بل بالعكس اكرم وفادة رسولييه وغمرهما بالتحف المختاره هديه إلى سيدهما وبذل لهما كل تسهيل ممكن على انه لم ينس في الوقت نفسه أن يجيب القيصري على منة واستعلاءه وأن يفتد اقواله فيما زعمه من تفضله بمكاتبته¹ ورد الاخشيدي بجواب ينم عن ترفعه وكبريائه وقوته الكبيره في المنطقه ويفتخر به على الامبراطور ويبين فضل الاخشيديين وملكهم الواسع وحمائتهم للمقدسات الاسلاميه والمسيحيه كما رد قاطعا للطريق عليه وعلى محاولته الراميه لضرب الجبهه الاسلاميه بالايقاع بين الاخشيدي والخلافه العباسيه مشيراً إلى ولائه للخلافه العباسيه ، كذلك وكما سبق القول يوضح هذا الجواب ايضا عن مدى اتساع ملك الاخشيديين حيث شمل مصر واليمن واجناد الشام جند حمص وجند دمشق والاردن وفلسطين وتقليده لامر مکه والمدينه .

ورغم ذلك فقد استجاب الاخشيدي لطلب البيزنطيين وجهاز في سنة 325 هـ المراكب الحربيه للسير إلى الثغور للفداء بعد أن شحنها بنصارى الروم وانفذ الثياب والطيب والطعام إلى اسرى المسلمين .

لقد كانت الظروف السياسيه المحيطه بالاخشيدي دافعا له لقبول هذا الوفاق بينه وبين البيزنطيين في وقت كان يتعرض فيه لخطر الفاطميين واطماعهم في مصر كما كان لنشاط دعائهم الاثر على جبهته الداخليه

(¹) محمد عبد الله عنان ، مصر الاسلاميه ، ص 102 .

فحدثت فيها بعض المشاكل وكان في حاجة إلى أن يبت الأمن في ربوع ولايته هذا فضلا عن الاخطار التي ماثبت أن تعرض لها من جانب ابن رائق أو الحمدانيين في الشام وما انتهى إليه ذلك من تنازلات من جانب الاخشيد لسيف الدولة ، وليس المعنى أن الاخشيديين قد نفضوا ايديهم من الجهاد : بل لم يهملوا واجبه المقدس وهم كفبرهم من الفئات الاسلاميه الاخرى التي لم تنس واجبها في الجهاد فكان المتطوعون منهم يتوجهون من جميع ربوع العالم الاسلامي إلى منطقة الثغور .

وكعانتهم لم يكن البيزنطيون في يوم من الايام صادقين في عهودهم إذ خرجت قواتهم حتى وصلت إلى منطقة حلب وهاجمتها وانزلت بها الفساد والخراب ورجعت تجر ورائها خمسة آلاف اسير فرد على الفور امير الثغور نصر الثملي من قبل الاخشيديين في سنة 330 هـ بغزوة من نولص طرسوس إلى بلاد الروم فقتل وسلب وضم دون أن يحتل أي منطقة وعاد وبين اسراه عدد من البطارقة وعلية القوم والغنم الكثيره .

وظهرت جهود الاخشيد محمد بن طنج في سنة 334 هـ في الثغور اثر رغبة البيزنطيين في تبادل الاسرى فقد قدم وهو في دمشق ابو عمير عدي بن احمد بن عبد الباقي الانتي ومعه رسول امبراطور بيزنطة لتنظيم هذا الفداء وابو عمير هذا من شيوخ الثغور لعب دورا في الوساطه بين المسلمين والروم¹ الا أن الاخشيد مالبث أن توفي فرجع كافور بالجيش إلى مصر وصحب معه إلى فلسطين ابو عمير ورسول الامبراطور فدفع اليهما ثلاثين ألف دينار من مال هذا الفداء وسار الرسولان إلى مدينة صور ثم ركبا البحر إلى طرسوس وكتب نصر الثملي امير الثغور الشاميه إلى سيف الدولة الحمداني ودعا له على الثغور الشاميه : مما يشهد بأن الثغور الشاميه كانت حتى ذلك الوقت تابعه

(¹) الزيد ، العلاقات ، ص 286 - 287 .

للاخشيد وأن أمير الثغور من قبله لم يدخل في طاعة سيف الدولة إلا بعد وفاة الاخشيد ، وبالتالي فإن نصر الثملى عندما دعا لسيف الدولة على المنابر جد سيف الدولة من ناحيته بتمام الفداء الذي بدأه الاخشيد فنسب الفداء إلى سيف الدولة ¹ .

- الاخشيد والنوبة :

من المعروف أن الحملة التي قام بها عبد الله بن سعد وإلى مصر سنة 31 هـ على بلاد النوبة انتهت إلى عقد اتفاق بين مصر وبين ملك النوبة وهذا الاتفاق يعرف باسم اتفاق القبط .

وكان هذا الاتفاق بمثابة معاهدة سياسية وتجارية بين مصر ومملكة النوبة المسيحية قوامها ألا يتعدى أحدهما على الآخر وأن تؤدي النوبة إلى مصر عددا معينا من الرقيق كل سنة وأن تؤدي مصر للنوبة قنرا معينا من منتجات مصر .

ولكن هذه المعاهدة كانت تنقض بين الحين والآخر وكان ملوك النوبة يقدمون على غزو الصعيد الأعلى كلما احسوا من انفسهم القوة على هذا الغزو وظنوا أن السلطة المصرية لن تستطيع أن تصدهم إلا بعد فترة يتاح لهم فيها أن يظفروا بما يريدون من السلب والنهب ومع ذلك فقد كانت تجارة الرقيق زاهرة بين مصر وبلاد النوبة وحسبنا أن نذكر عدد الجنود الطولونيين والاخشديين.

وقد كتب المسعودي حين زار مصر في سنة 332 هـ أن النوبيين كانوا لا يزالون يقدمون السبي الذي اتفق عليه في اتفاق القبط وكان يتسلمه نائب أمير مصر في اسوان .

(¹) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولنيين والاخشديين ، ص 271 ؛ السيد الباز العربي ، الدولة البيزنطية ، القاهرة ، 1982 ، ص 418 ؛ محمد محمد مرسى الشيخ ، تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، الاسكندرية ، 1994 ، ص 210 .

وحدث في سنة 344 هـ أن اغار ملك النوبة على اسوان وقتل جمعا من سكانها ونهب قراها فخرج إليه جيش من قبل اتوجور وعلى رأسه محمد بن عبد الله الخازن واستطاع هذا الجيش أن يصد النوبيين وارسل بعض اسراهم إلى مصر فضربت اعناقهم ثم طارد الجيش المصري ملك النوبة وقلول جيشه واستطاع أن يفتح مدينة ابريم وعاد إلى مصر في منتصف جمادي الاول سنة 345 هـ ومعه مائة وخمسون اسيرا وعدد من رؤوس القتلى¹ .

كافور الإخشيدي:

اختلف المؤرخون في تاريخ مولده فمنهم من ذكر أن مولده كان في سنة 292 هـ/905 م ، في حين رأى فريق آخر أنه ولد سنة 297 هـ/910 م ؛ أما الفريق الثالث فنذكر أنه ولد في سنة 308 هـ/920 م على أساس أنه جلب إلى مصر في سنة 322 هـ/934 م وهو في الرابعة عشر من عمره².

وكان كافور عبداً أسود اللون دميم الخلقة ضخم الجثة ، وترجع أصوله الأولى إلى بلاد النوبة ، حيث كان يعرف باللابي نسبة على إقليم اللاب من بلاد النوبة³، وكان يكنى " أبا المسك " من قبيل التلميح لأن المسك أسود ، أما إطلاق اسم كافور عليه فكان من قبيل الدعاية لأن الكافور أبيض وكان هو أسود اللون⁴.

(1) حسن احمد ، سيده كاشف ، الطولونيين والاخشيديين ، ص 273 .

(2) محمد مرسى الشيخ ، تاريخ مصر الإسلامية ، الإسكندرية 1993 ، ص 118.

(2) أحمد عبد الرزاق ، تاريخ وآثار مصر، ص 154 ؛ محمود الحويرى ، مصر فى العصور الوسطى ، القاهرة 1996 ، ص 131.

(4) على إبراهيم حسن ، مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى حتى الفتح العثمانى ، القاهرة 1992 ، ص 67.

وكما اختلفت المصادر في تاريخ مولده فقد اختلفت أيضاً في كيفية وصوله إلى بلاط الإخشيديين ، فقد ذكر ابن خلكان¹ أن كافور كان عبداً لرجلاً من مصر يدعى ابن عباس الكاتب ثم اشتراه منه محمد بن طغج الإخشيد ، بينما ذكر المقرئ² أن ابن عباس الكاتب أرسل كافورا يوماً بهدية إلى الإخشيد فوسم الإخشيد في كافور الذكاء وأخذه بدلاً من الهدية. وقد تربى كافور في قصر محمد بن طغج الإخشيد تربية عالية ، واختصه الأخير من بين عبيده وأولاده ثقته وأعتقه ، وأخذ يرقيه في بلاطه وجعله من كبار قادته ، ثم عهد إليه بالوصاية على أولاده من بعده³. وقد عكف كافور على الدراسة وتحصيل العلوم المختلفة حتى يكون أهلاً لتربية ولدى الإخشيد ، حتى لقب بلقب " الأستاذ " ، وظل كافور يعتز بهذا اللقب حتى بعد أن صار والياً على مصر. وإلى جانب هذه الثقافة العلمية امتاز كافور بتفانيه في خدمة سيده حتى صار موضع ثقته فأُسند إليه قيادة جيوشه ، ثم عهد إليه بالوصاية على أبنائه⁴.

كافور وأبنائه الإخشيد:

ولم يلبث محمد بن طغج الإخشيد أن توفي تاركاً على عرش مصر ابنه (أنوجور) الذي لم يتجاوز الرابعة عشر من عمره. وكان الإخشيد قد تمكن قبل موته من وضع نظام وراثته للعرش من بعده بأن أخذ البيعة من قواده وجنده ومن المصريين بصفة عامة لابنه القاسم أنوجور ، وجعلهم يعترفون جميعاً بولاية العهد لابنه أنوجور⁵.

(1) ابن خلكان ، وفیات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ج 4 ، ص 212.

(2) المقرئ ، الخطط المقرئية ، ج 2 ، ص 423.

(3) ابن تغرى بردى ، لنجوم الزاهرة ، ج 4 ، ص 5.

(4) أحمد مختار العبادى ، التاريخ العباسى والفاطمى ، ص 144.

(5) عصام الدين عبد الرؤوف ، معالم تاريخ وحضارة الإسلام ، ص 174.

لكن صفر سن الأخير أدى إلى طمع عمه الحسن بن طغج في الحكم لكن كافور وبعض رجال الدولة وقفوا له بالمرصاد وأصروا على تنفيذ وصية محمد بن طغج في تولية ابنه أنوجور من بعده. وبعد أن استقرت الأمور لأنوجور صار كافور مدير مملكته ، وبلغ من نفوذه أن اسمه صار يذكر في الخطبة بعد اسم الخليفة العباسي وأنوجور¹.

وفي الوقت الذي كان فيه كافور منشغلاً بوضع أنوجور على عرش مصر استغل سيف الدولة الحمداني اتشغال الإخشيديين فيمن يتولى الحكم وقام بالاستيلاء على دمشق. ولم يتردد كافور في حماية أملاك الإخشيديين فخرج إلى الشام على رأس جيش كبير وصحبه أنوجور وعمه الحسن بن طغج ، وفي الشام دارت موقعة كبيرة بين الإخشيديين والحمدانيين ، انهزم فيها سيف الدولة الحمداني ، وانتهى الأمر بالصلح بين الطرفين واستقرار الأمور لصالح الإخشيديين في الشام².

وسارت الأمور بعد ذلك بين كافور وأنوجور في هدوء ، لكن هذا الهدوء في العلاقة بين كافور وأبناء الإخشيد سرعان ما عصفت به الأيام ، فبعد أن بلغ أنوجور سن الرشد بدأ يتطلع لأن يدير شئون مملكته بنفسه ويتخلص من سيطرة كافور على الأمور ، لاسيما بعد أن حرصه على ذلك بعض الحاقدين على كافور الذين زينوا للحاكم الشاب سبيل التخلص من كافور وانفراد به بشئون الحكم. وتطور الأمر إلى صدام بين الطرفين انقسم فيه الجيش الإخشيدى إلى قسمين: قسم يميل إلى أنوجور ، والآخر يؤيد كافور. وخشت أم أنوجور عاقبة هذا النزاع على ابنها وخافت عليه من بطش كافور فتدخلت في الأمر وانتهى النزاع بالصلح. ثم لم يلبث أن توفي أنوجور عام 349هـ/960م ويقال أن كافور دس السم له³.

(1) ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج 4 ، ص 377.

(2) سعيد عاشور ، مصر في العصور الوسطى ، ص 149.

(3) أبو الحسن الروحى ، بلغة الظرفاء في تاريخ الخلفاء ، ص 247.

وبعد وفاة أنوجور تولى الحكم أخاه علي بن الإخشيد ، وظل كافور على حاله بالتصرف في شئون الحكم ، بل لقد زاد في الأمر بإبعاد علي عن كافة أمور الحكم مما جعل الأخير يفكر في القيام بنفس ما قام به أخيه أنوجور ، وأدى ذلك لتأزم العلاقة بينه وبين كافور. وسرعان ما لقي علي نفس مصير أخيه حين توفي عام 355هـ/966م وقيل أيضاً أن كافور قد دس له السم¹.

اعتلائه عرش مصر:

ولما توفي علي بن الإخشيد بقيت مصر لفترة بغير حاكم ويبدو أن كافور كان يتنازعه خلال تلك الأيام تياران أحدهما يدفعه إلى إقامة أحمد بن علي بن الإخشيد في حكم مصر مكان أبيه ، والآخر يغريه بانتزاع الحكم لنفسه . وبعد فترة قصيرة من التفكير رجح كافور الرأي الثاني ، لاسيما وأن أحمد بن علي كان عندئذ طفلاً في التاسعة منع عمره². وتشاور كبار رجال الدولة فيمن يخلفه فأروا أن ينصبوا أحمد ويظل كافور وصياً عليه لكن الأخير رفض هذا الأمر بحجة صغر سن الأمير وانتهى الأمر بالاتفاق على تولية كافور حكم مصر³. وبعدها سارع كافور بمراسلة الخليفة العباسي لكي يعلنه والياً على مصر فوافق الخليفة على ذلك ، ورأى البعض أن موافقة الخليفة جاءت لأنه اعتاد على وجود كافور مديراً لشئون الحكم في مصر لذا لم يمانع في أن يصبح حاكم فعلي بدلاً من أن يكون وصياً على العرش⁴.

ورغم أنه كان وصياً على العرش بعد وفاة محمد بن طغج ، ثم أصبح الحاكم الرسمي لمملكة الإخشيد إلا أنه على ما يبدو ظل يشعر أنه

(1) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج 3 ، ص 374.

(2) سعيد عاشور ، مصر في العصور الوسطى ، ص 151.

(3) ابن خلدون ، المعبر ، ج 4 ، ص 377.

(4) الأزدى ، الدولة المنقطعة . . .

غريب عن هذه الأسرة ، أو أنه لم يصل للعرش بشكل شرعي ، لذلك نراه يحتفظ بلقب الأستاذ حتى لا يصطدم بأهل الرأي في المملكة ولا يبدو أمامهم في صورة مقتصب للألقاب بجانب اغتصابه للسلطان. وظهر ذلك في إحجامة عن نقش اسمه على السكة بعكس جميع الأمراء الإخشيديين الذين حرصوا على نقش أسمائهم على السكة مع اسم الخليفة العباسي¹.

وقد اشتهر كافور بشجاعته وقوة شخصيته ، كما حاز شهرة واسعة في فنون القتال خاصة الرمي بالسهم. كذلك اشتهر بعنله فقد عرف عنه مداومة الجلوس صباحاً ومساءً لقضاء حوائج الناس ، وكذلك التواضع حتى أنه كان يمرغ وجهه في التراب وهو ساجد ويقول " اللهم لا تسلط على مخلوقاً ".

وقد حاول كافور أن يتقرب إلى قلوب الرعية فخص أهل البيت والطوبى بالتكريم ، وقد امتاز كافور بكرم زائد على عكس مولاه الإخشيد الذي عرف ببخله ، فكانت له بعض المواقف في الجود والكرم التي اشتهرت عنه في سبيل التقرب إلى عامة الناس ومنها أنه كان قد مرض قبل أن يلمع اسمه في بلاط الإخشيد وداواه أحد الأطباء ، فلما دانت الأمور لكافور بحث عن هذا الطبيب ليكافئه فلم علم بموته وأن له ابنتان واحدة متزوجة والأخرى بكر ، اشترى لهما دار بأربعمائة دينار وأعطى للبكر مائتي دينار تتجهز بها. كما كان يحرص على توزيع الذهب على الناس في الأعياد فكان صاحب الشرطة يطوف من بعد العشاء على المنازل ويقول لمن يطرق بابه " الأستاذ أبو المسك كافور يهنئك بعيدك ويقول لك اصرف هذا في منفعتك ويدفع له بعض المال " ، كما كان يرسل الأموال والطعام في كل عام مع ركب الحجيج ليوزع في الحجاز².

(1) ابن تغرى بردى ، مورد اللطافة فيمن ولي السلطنة والخلافة ، ج 1 ، ص 201.

(2) مرسى الشيخ ، مصر الإسلامية ، ص 119.

كما حرص على أن يتظاهر أمام الناس بكل ما يحبه إلى قلوبهم ، فقد قيل أن خطيباً قد عرض به في إحدى مواعظه فسمع كافور بذلك فأرسل إليه خلعة ومائة دينار ، فصار الواعظ بعد ذلك يقول : " ما أتجب من ولد حام إلا ثلاثة : لقمان وبلال المؤمن وكافور ¹ .

وقد عرف عن كافور حبه للموسيقى والغناء شأنه في ذلك شأن جميع الزوج ويقال أنه طرب يوماً فغنى نفسه ومركزه وأخذ يهز كتفيه طرباً ، فلما أفاق لنفسه خجل من الحاضرين وصار منذ ذلك الوقت يحرك كتفيه من حين لآخر حتى يظن الناس أنها مجرد عادة ملازمة له أو حركة لا إرادية ² .

وأدى صعوده من مرتبة العبودية إلى عرش مصر إلى نسج العديد من الروايات حول بداياته الأولى ومنها رواية تذكر أنه مر على السوق يوماً ومعه عبد أسود آخر ، فقال هذا الأخير : " كنت أتمنى أن أباع لطباخ حتى أصبح شبعاناً طيلة عمري " ، فرد عليه كافور قائلاً : " وأنا أتمنى أن أملك هذه المدينة يوماً " . ثم مرت الأيام وحقق كافور مراده فمر يوماً على السوق فرأى زميله القديم في ثياب الطبّاخين وه يحرك القدر فضحك وقال " أدرك كل واحد ما أمله ³ .

كما أن هناك رواية زعمت أن كافور في بدايته أصيب بمرض جلدي (جرب) اضطره إلى عدم الظهور أمام الناس مما اضطر سيده إلى طرده ، فهام على وجهه في الشوارع إلى أن مر بأحد الأسواق وطلب من أحد الطبّاخين بعض الطعام فضربه الطبّاخ بالمغرفة على يده وهي حارة

(1) الحويرى ، مصر في العصور الوسطى ، ص 132.

(2) أحمد عبد الرازق ، مصر الإسلامية ، ص 159.

(3) الأردى ، تاريخ الدول المنقطعة ، تحقيق على عمر ، القاهرة 2001 ، ص 80 -

فرق له رجل طيب القلب فداواه حتى شفى ثم سار به إلى سيده ورفض أن يأخذ من الأخير أجر العلاج قائلاً : " إنما أجرى على الله " ¹.

ومن سوء حظ كافور أن توالى على مصر في عهده العديد من المصائب ؛ فقد تعرضت الشام لغزو القرامطة ، كما وقعت بمصر زلازل مروعة وشبت نيران هائلة ودمرت نحو ألفي منزل من منازل القسطنطينية. كما أغار ملك النوبة على مصر فجأة وعاث فساداً في المنطقة الواقعة بين الشلال الأول وأخميم في مديرية سوهاج، وصاحب ذلك انخفاض في منسوب ماء النيل. وترتب على ذلك كله أن أصاب البلاد الأوبئة والقحط واشتد الغلاء وكثر الموت ².

وبرغم ذلك فعند وفاته ترك ثروة ضخمة تقدر بنحو مليون دينار من الجواهر والثياب والسلاح والأمتعة ولدينا وصف ورد في أحد المصادر عن حجم مصروفات كافور نذكر منه مدى ثراء هذا الرجل فيقول " بلغ مما كان يعمل في مطبخ كافور لما قوى سلطانه وكثرت أمواله في كل يوم من اللحم ألفان وسبعمئة رطل ، وخمسمائة طائر دجاج ، وألف طائر حمام ، ومائة طائر أوز ، وخمسون خروفاً ، ومائة جدي سمين ، وعشرون فرخاً سمكاً ، وخمسمائة صحن حلوى في كل صحن عشرون رطلاً ، ومائتان وخمسون طبقاً فاكهة ، وعشرة أفراد نقل وخمسمائة كوز فقاع كبير ، ومائة قرابة سكر ولیمون " ³.

وفي أواخر عهد كافور ظهرت أطماع الفاطميين في مصر ، حيث عملوا على نشر دعوتهم بها بل وطلبوا من كافور الدخول في دعوتهم ، ولم يرفض كافور طلبهم بصورة مباشرة ، ولكنه أظهر معهم أسلوب الدهاء وتظاهر بالقبول ، وكان في ذلك سياسياً بارعاً حتى أن ابن تغرى

(1) الكندي ، ولاية مصر ، ص 311.

(2) الجمل ، مصر الإسلامية ، ص 58.

(3) سيدة إسماعيل الكاشف ، مصر في عهد الإخشيديين ، ص 165.

بردى¹ قال عنه "كان خبيراً بالسياسة فطناً ذكياً جيد العقل داهية .. فكان يهادى المعز صاحب المغرب ويظهر ميله له ، وكذا يذعن بالطاعة لبني العباس ، ويدارى ويخدع هؤلاء وهؤلاء ، وتم له الأمر".

وظهر ذكائه هنا في أنه أدرك صعوبة موقفه بين قوتين كبيرتين متعاديتين هما الخلافة العباسية السنية في الشرق والخلافة الفاطمية الشيعية في الغرب ، فأمسك العصا من الوسط ولم يتورط في معاداة إحدى القوتين².

وقد توفي كافور الإخشيدي عام 357هـ/967م ، ودفن بالقرافة الصغرى ، وكانت مدة حكمه سنتين وأربعة أشهر ، وقد كتب على قبره بيتين من الشعر جاء فيهما :

ما بال قبرك يا كافور منفردا بصائح الموت بعد العسكر اللجب
بدوس قبرك من أننى الرجال وقد كانت أسود للشرى تخشاك من الكتب³

الفصل الرابع



الحالة الفاطمية

الدولة الفاطمية

رأى الفاطميون بعد أن امتد نفوذهم في بلاد المغرب أن هذه البلاد لاتصلح مركزاً لدولتهم، ففضلاً عن ضعف مواردها كان يسودها الاضطراب من حين لآخر لذا أتجهت أنظارهم إلى مصر⁴ .
ففي السنوات الأولى من حكم الخليفة المهدي⁵ ، طمع في إتخاذ قاعدة للهجوم على بغداد عاصمة الخلافة العباسية ،لعدة أسباب تميزت بها

(1) النجوم الزاهرة ، ج 4 ، ص 6.

(2) سعيد عاشور ، مصر في العصور الوسطى ، ص 151.

(3) سيده إسماعيل الكاشف ، مصر في عهد الإخشيديين ، ص 286.

(4) محمد جمال الدين سرور ، تاريخ الدولة الفاطمية ، القاهرة ، ص 59 .

(5) ايمن فؤاد سيد ، الدولة الفاطمية في مصر " تفسير جديد " ، الدار اللبنانية ، ط 1 ،

1413 هـ - 1992 م ، ص 58 .

مصر في ذلك الوقت من ثرواتها وهدوء الأمر فيها، وأهمية موقعها الجغرافي من الناحيتين السياسية والحربية، وقربها من بلاد الشام. فلسطين والحجاز، التي كانت تابعة لمصر منذ عهود قديمة¹. وفي السنوات الأولى من حكم الخليفة المهدي باعت محاولتان لفتح مصر بالفشل سنة (301هـ-913م)، (307هـ-919م)².

فلما كانت سنة 301هـ جهز المهدي الجيوش من إفريقيا مع ولده أبي القاسم إلى مصر، فساروا إلى برقة واستولوا عليها في ذي الحجة، ثم إلى الاسكندرية والفيوم فضيق على أهلها، وبعث المقتدر بالله العباسي مؤنساً الخادم في جيش كثيف فحاربهم وأجلاهم عن مصر إلى المغرب³.

رأى عبيد الله المهدي أن يعاود الكرة لغزو مصر؛ فأخذ في إعداد الجيش لفتحها، وأوفد أبا القاسم على رأس هذا الجيش في أواخر سنة 306هـ، فأستولى على الأسكندرية سنة 307هـ (919م) دون عناء، ثم سار إلى الجيزة، وأخذ الفاطميون يتوغلون في بلاد الوجه القبلي حتى تمكنوا من الإستيلاء على الأشمونين والفيوم.

على أن الخليفة المقتدر العباسي ما لبث - بعد أن بلغه نجاح الفاطميين في الزحف على مصر - أن أرسل قائده الخادم على رأس جيش إلى تلك البلاد، فانتصر عليهم، وأستولى على سفنهم وأحرقها وبذلك حلت الهزيمة

(¹) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام "السياسي، الديني، الديني، الثقافي، الاجتماعي"، ج3، ط13، دار الجيل، مكتبة النهضة المصرية، بيروت 1991م، ص155.

(²) أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية "تفسير جديد"، ص58.

(³) المقرئ، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين، ج6، ص19.

بالحملة الفاطمية، وكان من أهم عوامل إخفاقها أن الخطة التي وضعها المهدي لغزو مصر لم تنفذ بدقة، ذلك أن أبا طاهر الجنابي أمير القرامطة ببلاد البحرين لم يتقدم بجيشه إلى مصر ليعاون جيش الفاطميين¹.

وتكررت المحاولات في زمن ابنه القائم بأمر الله (323هـ-934م) ولكنها لم تحقق شيئاً على الإطلاق، بل نبهت الخلافة العباسية إلى أن استمرار هذه المحاولات يتطلب وجوداً عسكرياً في مصر، فقد اكتشف القائد مؤنس الخادم الذي تصدى لهجوم الفاطميين المتتالي، أن للفاطميين عملاء كثيرين بمصر.

فأسند العباسيون إلى محمد بن طنجج الاخشيد ولاية مصر بالإضافة إلى ولايته على الشام، ولم يكن تعيينه في الواقع سوى العودة إلى النظام الطولوني الذي سقط 292هـ-904م².

وتلك الغزوات وأن كانت قد فشلت من الناحية الحربية، إلا أنها قد مهدت السبيل لتشر الدعوة الشيعية في مصر. فقد أصبح فيها عدد كبير يعطف عليها، وكاتبوا الفاطميين وطلبوا إليهم غزو مصر ووعدهم العون على فتحها. يدل على ذلك الخطبة التي ألقاها المعز على رؤساء كتامة قبيل رحيل جوهر إلى مصر. فقد جاء فيها: "واتى مشغول بكتب ترد علي من المشرق والمغرب أجيب عليها بخطي". مما يدل على أن الشيعيين في مصر أرسلوا إلى المعز كتباً جاء فيها: "إذا زال الحجر الأسود فقد ملك مولانا المعز الدنيا كلها" وكان لهذه المكاتبات التي دارت بين المصريين والمعز أثر عظيم في تسهيل فتح مصر على يد جوهر³.

المعز لدين الله :

(¹) جمال سرور ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص 59 و 60 .

(²) (أيمن فؤاد سيد ، الدولة الفاطمية " تفسير جديد " ، ص 58 .

(³) على إبراهيم حسن ، تاريخ جوهر الصقلي ، ص 53 و 54 .

هو أبو تميم معد ابن المنصور أبي الطاهر بن القائم أبي القاسم محمد ابن عبيد الله المهدي ، ولد سنة 319هـ. في مدينة المهديّة... وتسلم الخلافة سنة 342هـ عندما كان عمره 23 عاماً بعد وفاة أبيه المنصور سنة 341هـ¹ . وكان ذكياً يتقن لغات كاللاتينية واليونانية والسودانية، فضلاً عما تمتع به من صفات السياسة والبسطة، فهو يوصف بجبار بيت الشيعة.

وفي عهده دانت له قبائل البربر كافة، ولا سيما قبيلتا بني كملان وبني مليلة من قبائل هواره، وقد أبتا أن تدعنا للخلفاء الفاطميين من قبله. ويرجع الفضل في امتداد نفوذه على كافة بلاد المغرب إلى جوهر الصقلي. الذي بعثه على رأس جيش كثيف يضم كثيراً من رجالات المغاربة لفتح ما بقي من بلاد المغرب. فوصل إلى ساحل المحيط الأطلسي، وأرسل إلى مولاه المعز هدية من سمك هذا المحيط إشعاراً ببلوغ نفوذه أقصى بلاد المغرب غرباً. ولما دانت بلاد المغرب للمعز فكر في فتح مصر² .

الأحوال الداخلية في مصر قبيل الفتح الفاطمي:

كانت السلطة الحقيقية في مصر خلال عهد الأخشيدين عقب وفاة محمد بن طغج، في يد كافور العبد الأسود الخصي الذي أصبح قائد الجيوش ومدير أمر مملكتهم.

وقد أثار الفاطميون إلى جانب الحمدانيين الخلافات في ممتلكات كافور الذي تمكن من الاحتفاظ بسيطرته عليها بفضل حنكته السياسية. فقد

(¹) عارف تامر ، المعز لدين الله الفاطمي "واضع أساس الوحدة العربية الكبرى" ،

دار الافاق الجديدة ، ط 1 ، بيروت 1402 هـ - 1982 م ، ص 67 .

(²) حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام ، ص 155 .

كثرت دعاة الفاطميين في مصر ونجحوا في استمالة عدد كبير من أهل البلاد، حتى أن يوم عاشوراء كان لا يخلو من الفتن حول قبر كلثوم وقبر السيدة نفيسة، وكثرت المنازعات بين الجند السودان وجماعات من الرعية كان الجنود يتعصبون فيها على الشيعة. وبشر هؤلاء الدعاة بقرب قدوم الجيوش الفاطمية متى ذهب الحجر الأسود بعنون كافور.

وأجتمعت عدة عوامل مهدت الطريق لتحقيق هدف الفاطميين في غزو الشرق، كان على رأسها الحالة الاقتصادية السيئة التي كانت تمر بها مصر في أواخر حكم الأخشيدين (352-358هـ/963-968م) وضعف الخلافة العباسية المتزايد تحت سيطرة الشيعة البويهيين، وجاءت وفاة كافور في سنة (357هـ/968م) لتزيل آخر عقبة أمام الفاطميين نحو تحقيق هدفهم، فلم توجد شخصية قوية تخلف كافور في البيت الأخشيدي، وتولى زمام الأمور الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات فعجز عن تلبية رغبات الطائفتين الكافورية والأخشيدية، في نفس الوقت الذي استمر فيه نقص مياه النيل وتزايد فيه الغلاء واضطربت الأسعار مع هبوط قيمة الخراج.

فضاق قوم من المصريين بالأوضاع وكتبوا إلى المعز بأفريقيا يدعونه لأرسال جنوده ليسلموا إليه مصر، ولم يقصد هؤلاء المصريون المعز إلا لأدراكهم مدى ضعف الخلافة العباسية. وقوة فتية قادرة على تدارك ما اعتري البلاد من تدهور وفساد.

وقد حاول الوزير ابن الفرات إصلاح بعض هذا الفساد، فخانه سوء تدبيره وأدى به إلى محاصرته في داره وتهديد حياته من قبل الأخشيديّة والكافورية، بعد أن قبض على جماعة وصادرهم وكان من بينهم يعقوب بن كلس - وهو يهودي من العراق أسلم في زمن كافور - ولكنه تمكن من الهرب مستتراً إلى أفريقيا حيث التقى بالخليفة المعز وأطلعه على ما تمر به مصر من أزمات سياسية واقتصادية، فوجد المعز

الفرصة مناسبة لإرسال جيشه لفتح مصر. ومن الممكن أن يكون بن كلس قد أعتنق المذهب الأسماعيلي وهو ما يزال بمصر على يد الدعاة. ولقد لعب دوراً بارزاً في تثبيت دعائم الدعوة الفاطمية في مصر، حيث أسند له المعز بعد أن دخل مصر - أمر تنظيم الإدارة الحكومة الفاطمية والإشراف على الدعوة نفسها¹.

أستعدادات المعز لفتح مصر:-

أعد المعز العدة لفتح مصر قبيل وفاة كافور؛ ففي سنة 356هـ - (967م) أمر بإنشاء الطرق وحفر الأبار في طريق مصر، وأقام المنازل على رأس كل مرحلة².

وحينما شرع في تجهيز عسكره سألته أمه تأخير ذلك لتحج خفية فأجابها وحجت فلما وصلت إلى مصر أحس بها كافور الأخشيدي الأستاذ فحضر إليها وخدمها وحمل إليها الهدايا وبعث في خدمتها اجناداً ، فلما رجعت من حجتها منعت ولدها من غزو بلاده، وأستجاب المعز لذلك حتى وصلته الأخبار بوفاة كافور سنة 357هـ ، وحينئذ أخذ في إعداد المال اللازم لتجهيز حملته لفتح مصر، والتي يقال انها بلغت أربعة وعشرين مليون دينار، كما بعث إلى دعائه بالبلاد المصرية أعلاماً وأمرهم أن يوزعوها على الجند الذين يؤيدون بيعته لينشروها إذا ما قربت عساكره من مصر.

وعهد المعز لدين الله إلى جوهر الصقلي بقيادة الحملة التي أعدها لفتح مصر وخرج لوداعه يوم رحيله من القيروان في الرابع عشر من شهر ربيع الثاني سنة 358هـ³: فوقف جوهر أمام خليفته؛ ليقبل يده

(¹) أيمن فؤاد سيد ، الدولة الفاطمية " تفسير جديد " ، ص 64 .

(²) محمد جمال الدين سرور ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص 63 و 64 .

(³) محمد جمال الدين سرور ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص 64 .

وحافر فرسه، فأمره المعز، وقال له أركب، فركب. وقد خرج المعز لـدين الله بنفسه لوداع الجيوش بقيادة جوهر، وقال كلمة تظهر مدى ثقته في قائده واستشرافه للنصر على يديه: "والله لو خرج جوهر وحده لفتح مصر، ولیدخلن مصر بالأردية من غير حرب، ولینزلن في خرابات ابن طولون ويبنی مدينة تقهر الدنيا" ¹.

وفي الرابع عشر من شهر ربيع الأول سنة 358هـ، سار جوهر نحو مصر، ومر على برقة، ثم استأنف المسير إلى الأسكندرية، ففتحت له أبوابها من غير مقاومة، ومنع جنده من التعرض للأهالي، وأستطاع أن يكبح جماح عساكره الذين وسعت لهم الارزاق ².

وتوالت الأخبار في مصر بقدوم جوهر، فجمع الوزير أبو الفضل القواد وشاورهم فوقع رأيهم على تقديم تحرير سويدان فاستدعوه من الأشمونين وعقدوا له رئاسه عليهم.

ووصل الخبر بوصول جوهر برقه فتجمع رأي الجماعة على أن يعثوا أبا جعفر مسلماً الحسنی وأبا إسماعيل بن أحمد الزبيني وأبا الطيب العباس بن أحمد العباس والقاضي أبا ظاهر وغيرهم، ليلقوا جوهرًا ويقرروا معه الصلح وتسليم البلاد وبالفعل أرسل لهم جوهرًا الأمان على أموالهم وأنفسهم.

على أن أهل القسطنطين لم يقبلوا هذا الأمان كما تبين من الوقت نفسه أن طائفة كبيرة من الجند كانت غير راضية عن عقد الصلح وقالوا ((ما بيننا وبين جوهر إلا السيف)) ؛ وتزعم (تحرير) المقاومة، وعلم بذلك جوهر فتقدم بجيشه إلى الجيزة واستطاعت فرقة من جنده عبور النيل عند منية شلقان (شرقي القناطر الخيرية)، ودار القتال بينهما وبين

(¹) إسامة حسن ، جوهر الصقلي " قائد المعز لدين الله " ، دار الامل ، القاهرة ، 1997 ، ص 30 .

(²) حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام ، ص 155 .

الجند المصريين فقتل منهم عدد كبير ، فاستقر رأى المصريين على مطالبة الشريف أبى جعفر مسلم الحسينى بالكتابة إلى جوهر فى إعادة الأمان ، فكتب إليه يهنئه بالفتح ويسأله الأمان من جديد فأجاب القائد الفاطمى دعوة الشريف وأعاد الأمان وأذاع على الجند منشوراً يحرم فيه عليهم أن يقوموا بعمل من أعمال السلب والنهب، ثم خرج أبو جعفر مسلم وجعفر بن الفرات وسائر الأشراف والقضاة والطماء ووجوه التجار والأعيان إلى الجيزة لاستقبال جوهر وهذات الحالة فى الفسطاط وعادت الأعمال التجارية إلى ما كانت عليه وهكذا بدأ حكم الفاطميين فى مصر وزال عهد الدولة الإخشيدية¹ .

ظلت مقاليد الأمور فى مصر بيد جوهر حتى قدم المعز فى سنة 362 هـ. وقد أستأثر المعز بكل ما كان يتمتع به جوهر من النفوذ، على أن جوهرأ بقي بجانب المعز يدلّه على أحوال البلاد ويشير عليه بما تتطلبه من وجوه الإصلاح.

ولم يذكر التاريخ شيئاً يدل على أن المعز قد حفظ لذلك الفاتح العظيم ما كان له من الأيادى البيضاء على الدولة الفاطمية، وما قام به من فتح مصر والشام وفلسطين وتثبيت دعائم الفاطميين فيها ونشر الدعوة لهم بها، وصد غارات القرامطة عن مصر، تلك الغارات التى كادت تقضي على الدولة الفاطمية الناشئة.

وكل ما حفظه لنا التاريخ أن المعز - على الرغم مما حبا به جوهر من العطف وأولاه من الثقة وحسن التقدير - قد اقصاه عن مناصب الدولة الكبيرة كالخراج والحسبة والسواحل والأعشار والجوالي والأحباس والمواريث والشرطتين وغيرها، وفلدها يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن.

(¹) جمال الدين سرور ، تاريخ للدولة الفاطمية ، ص 65 .

378هـ / 988م استأذنه بن كلس في أن يعين جماعة من الفقهاء للدرس والقراءة في أوقات منتظمة مستمرة، على أن تعقد حلقاتهم بالأزهر كل يوم جمعة وكان عددهم خمسة وثلاثين فقيهاً ، وقد رتب لهم العزيز أرزاقاً وجرايات شهرية ثابتة وبنى لهم داراً لسكناهم بجوار الجامع الأزهر . اشتد المرض على الخليفة العزيز فجأة ومات في سنة 386هـ / 996م .

الحاكم بأمر الله:-

وقد تولى الوزارة للحاكم بأمر الله أبو عمار أحد العناصر المغربية من قبيلة كتامة وكان رجلاً مستبداً بأمور الحكم على، وقام بمحاربة العنصر المغربي على العنصر التركي وكان يوقف الوظائف على المغاربة ويقل منها الأتراك ،لذا تعاضمت سطوة طائفة المغاربة على طوائف الجيش الأخرى وعاثوا فساداً في البلاد؛ وزادت سطوته عندما كان يدخل قصر الحاكم ويتعرض لجواري القصر بالبيع والأخذ وكأنها ملك يديه، وقد أشار عليه بقتل الحاكم إلا أنه لم يفعل احتقاراً للحاكم واستصغاراً له⁽¹⁾.

(1) مجموعة الوثائق الفاطمية وثائق الخلافة وولاية العهد والوزارة، الجزء الأول ، ت: جمال الدين الشيال ، الطبعة الثانية، القاهرة 1965 ، ص 131؛ الأزدي ، أخبار الدول المتقطعة، تحقيق : على عمر، الطبعة الأولى ، القاهرة 2001 ، ص 119 ؛ إبراهيم رزق الله ، التاريخ الفاطمي السياسي، القاهرة ب.ت ، ص 241-242؛ أيمن فؤاد سيد ، الدولة الفاطمية في مصر، لبنان 1992، ص 97-98؛ عبد المنعم ماجد ، الخليفة المفترى عليه، القاهرة 1959، ص 29-30، محمد جمال= الدين مصر في عصر الدولة الفاطمية ، القاهرة 1960، ص 59-60؛ محمد عنان، الحاكم بأمر الله ÷ ص 91-92-93؛

B. Lewis, V.I. Menge, CH. Pellt and J. Schacht, EI², pp. 76, 77; Stnleylane, Poole, M.A., Littid, History of Egypt, p. 124; Hassan, Islmic History, p. 240.

بيد أن الصراع نشب بين برجوان وبين ابن عمار؛ أو الصراع بين الأتراك وبين المغاربة والذي انتهى بتتحية ابن عمار وتولية برجوان مقاليد الوساطة وقد استبد برجوان بالحكم كابن عمار وتجبر وأقصى الحاكم عن الحكم فلما ضاق الحاكم ذرعاً أوعز إلى زيدان الصقلبي بقتله فقتله، وعندئذ اعتبر الأتراك أن هذه ضربة لهم من بربر كتامة فاجتمعوا حول قصره مخاطبين الخليفة فخرج لهم ووجه حديثه إليهم وطلب إلى الكافة الولاء والطاعة، كما أمر كاتب الإنشاء بكتابة سجل يبرر فيه قتله لبرجوان⁽¹⁾.

وقد كان للحاكم معاملة خاصة مع أهل الذمة ومع المخالفين للمذهب الشيعي وقد قويت شوكة المسيحيين في هد أبيه العزيز لأنه تزوج من امرأة نصرانية فأحب مجاملة النصارى لخاطرها وعندما تولى الحاكم الخلافة وجد أهل الذمة وقد قويت شوكتهم واشتد بأسهم بين المسلمين ، فألزمهم بالتمييز عن المسلمين بعلامات خاصة عرفت بالغيار، وجعل القبط يحملون صلباتاً ، واليهود يحملون الخشب ومنعهم من ركوب الخيل وألزمهم بركوب البغال والحمير، كما أمرهم أن يتميزوا في الحمامات عن المسلمين ثم أفرد لهم حمامات على حدة، ولكن أهل الذمة نزعوا الغيار، وتشبهوا بالمسلمين حتى لا يعرفوا مما آثار غضب الحاكم عليهم وأتخذ نحوهم قوانين صارمة لم تعرف قبلاً ، وذلك بأن جعل النصارى يحملون

(1) الدودارى ، كنز الدرر وجامع الغرر ، الجزء السادس ، ت : صلاح الدين المنجد ، القاهرة 1961، ص 265؛ إبراهيم رزق الله ، التاريخ الفاطمي ، ص 42؛ أحمد عبد الرازق، تاريخ وآثار مصر، ص 182؛ أيمن ، الدولة الفاطمية ، ص 98-99؛ ماجد ، الحاكم بأمر الله، ص 31-32-33؛ سرور، مصر في عصر الدولة الفاطمية ، ص 60؛ عنان ، الحاكم بأمر الله ، ص 93-94؛

B. Lewis, V.I. Menage, CH. Pellt and J. Schacht, EI² p. 77; Stanleyane. Poole, M.A., Liteid, History of Egypt, p. 125; Haassn, Islamic History, p. 239.

صلباناً ثقيلة طولها ذراع ونصف ووزنها خمسة أرتال بعد أن كان طولها شبراً وختمها بالرصاص ، أما اليهود فجعلهم يلبسون الزنار ويحملون الخشب الثقيل، كذلك منع النصارى من تقديم النبيذ في قرايبتهم ، وأمر بأن يحو الناس الصليبان المرسومة على أيديهم وسواعدهم، وأكثر من ذلك أمر بهدم الكنائس والبيع والأثيرة في مصر وصادر أملكها، كما أصدر سجلاً إلى واليه على القدس يأمره بهدم كنيسة القيامة : جاء فيه "أمر الإمامة إليك بهدم قمامة فاجعل سماءها أرضاً وطولها عرضاً" ولعل السبب وراء هدم الحاكم لهذه الكنيسة هو قيام ملك الروم بهدم جامع القسطنطينية ، ورغم هذا فإن الحاكم في آخر سنة من حكمه عدل على الشروط العمرية واكتفى من أهل الذمة بلبس الغيار فقط وهي العلامة المميزة لهم وأصدر بذلك عدة سجلات يأمر فيها ببناء ما تهدم من الكنائس ورد أوقافها، كذلك أعيد بناء كنيسة القيامة وإن قيل ابنه الظاهر هو الذي وافق على ترميمها.

وقد كان للحاكم أعمال ومواقف حسنة تشهد له مثل زهده وتقشفه الذي تجلى في رفضه للتعليم الذي تركه أبوه وجده ، لذا خرج من قصره جماعة من حظاياه ، وأعتق كافة ممالئكه من الإناث والذكور كما أخذ جواهر وأملك والدته وأخوته وزوجته محتذياً في ذلك بالخليفة عمر بن عبد العزيز وكذلك أبطل ما كان يستعمل رسمه من الثياب البياض ، شعار الفاطميين ثم أصبح السواد مع عمامة زرقاء، ثم جعلها أيضاً سوداء زيادة في التقشف ، وصار يركب من غير زينة، بل صار يركب الحمير بدلاً من الخيل مخالفاً عادة آبائه السابقين، ونهى عن تقبيل الأرض بين يديه وكذا تقبيل اليد والاحتناء بالسجود إلى الأرض وقد اعتبر ذلك من صنيع الروم، وأمر ألا يصلى أحد عليه في مكاتبته كما جرت عليه العادة من قبل. والحق أن كل هذه الأمور قد قلبت الأوضاع المتعارف عليها في عصره.

أما عن دار العلم ، فقد أقام الحاكم مكتبة دعاها دار العلم أو دار الحكمة جلس فيها الفقهاء والعلماء وحملت الكتب إليها من خزائن القصور المعصورة ودخل الناس إليها فكانوا بين ناسخ ومطلع؛ فكانت تغص بالجماهير من جميع أنواع طلبية العلم بين منجمين ونحويين وفقهاء وغيرهم وكانت تلك الدار مزخرفة بالستائر والنقوش والفرش الثمين وجعل فيها ما يحتاج إليه من الحبر والأقلام والورق . وكان الحاكم يدعو إليه العلماء والأطباء والفقهاء كل فئة على حدة للمناظرة بين يديه .

وعلى أية حال قتل الحاكم سنة 411هـ ولم يعثر له على جثة وقيل في ذلك أقاويل كثيرة منها أنه أراد إخفاء نفسه ليحيطها بسياج من التقديس. وعندما علم الرعية باختفائه صارت جماعة من الجهال المغفلين من وادي القيم من نولحي الشام يعتقدون حياة الحاكم إلى الآن ويقولون لابد أن يظهر في آخر الزمان ويعود إلى الخلافة وأنه هو المهدي لا محالة، ويحلفون إلى الآن بغيبة الحاكم.

خلافة المستنصر :

هو أبو تميم محمد الملقب بالمستنصر بالله؛ وقد اتفق جميع المؤرخين على أن مولده كان في السادس عشر من جمادى الآخرة في 420هـ وقد تولى الخلافة في ليلة النصف من شعبان في سنة 427هـ وكان يبلغ من العمر سبع سنين ، هذا وقد استمر في الخلافة حوالي ستين سنة وأربعة أشهر وتعد هذه المدة أطول مدة حكم يمكن أن يسمع بها أي إنسان في عصره⁽¹⁾ .

(1) ابن خلكان ، وفیات الأعيان وأنباء الزمان ، المجلد الخامس ، ص 229 ؛ المقرئ ، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، ج 2 تحقيق : عبد القادر أحمد عطا ، ط 1 ، دار الكتب العلمية ، ب. ت ص 45 ؛ للخطط المقرئ ، ج 1 ، دار صادر (بيروت) ، ب. ت ، ص 355 ؛ ج 2 ، ط 1 ، دار الكتب العلمية ،

كذلك لُقِبَ المستنصر بالإمام اقتضاء بإمامة جده علي بن أبي طالب وقد تمسك الفاطميون بهذا اللقب لما فيه من معنى ديني في إمامة المسلمين كإقامة الصلاة وفضلوه على لقب الخلافة الذي كان يعني النيابة وحدها والاستخلاف في الزمن ، هذا وقد اختير للإمام لقب المستنصر بالله بمعنى أن الله في نصرته ، وقد قيل أن المعز عندما جاء إلى مصر طلب من علمائها أن يكتبوا مجموعة من الألقاب تصلح لتسمية الخلفاء منهم ، فكتب له العلماء ألقاباً كثيرة.

هذا وقد جرت العادة في ذلك الوقت أن تصدر سجلات إلسي حكام الولايات والدعاة تعلن فيها أخبار بيعة الإمام الجديد؛ وبالفعل أرسلت هذه السجلات وبُين فيها ما تم به المستنصر من الفضائل ، وكذلك دعى له على المنابر ونقش اسمه على النقود ، وطرز على رايات الجيش وبنوده ، وعلى الملابس الرسمية "الطراز" وبذلك تمت توليت الإمامة بكل الرسوم والتقاليد الفاطمية في مصر.⁽¹⁾

أ- تحكيم أم المستنصر في شئون البلاد :

تعتبر أم المستنصر ثانی الشخصیات النسائية التي لعبت دوراً أساسياً في تدبير شئون البلاد ، فقد قامت بالوصاية قبل ذلك على الظاهر والد المستنصر ست الملك وقامت بتدبير شئون البلاد وأن كانت ست الملك

ب. ت ، ص 193 ، العيني ، السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ، تحقيق : فهد محمد علوي شلتوت ، مراجعة : محمد مصطفى زيادة ، ط 2 ، دار الكتب المصرية ، 1998 ، ص 162 ؛ أحمد عبد الرزاق ، تاريخ وأثار مصر الإسلامية من الفتح العربي حتى نهاية العصر الفاطمي ، دار الفكر العربي ، 1999 ، ص 189.

GIBB and P.KRAUS, ART AL - Mustansir, EI2, VOL.VII, LEIDEN-NEWYORK-E.J.BRILL, 1993, P.729.

(1) ماجد ، المستنصر ، ص 15-19

وصفت بأنها أعقل النساء وأحزمهن ، والحقيقة أن أم المستنصر لم تكن لها مواصفات ست الملك في الحزم والعقل بل استغلت وصايتها على ابنها بحكم صغر سنه وأخذت تحجر عليه حتى بلوغه سن الرشد حيث تحولت هذه الوصاية إلى رغبة شديدة للسيطرة على الحكم، وأحاطت نفسها بعدة مظاهر تؤكد سيطرتها على الأمور ، فاتخذت العلامة للتوقيع على الأوراق الرسمية وكانت علامتها " الحمد لله ولي كل نعمة".⁽¹⁾ كما تلقت بعدة ألقاب تدل على أهميتها مثل : السيدة الملكة وكانت تخاطب من قبل الخليفة وكبار رجال الدولة "بمولاتنا" ويشار إليها بالجهة الجليلة والستر الرفيع.

والحقيقة أن الرغبة الشديدة لدى أم المستنصر للاستئثار بالحكم قد حجزها في أول الأمر وجود وزير قوى هو أبو القاسم بن الجرجرائسى ، حيث إننا لم نسمع طول مدة وزارته أن أم المستنصر تمكنت من التدخل في شئون البلاد.⁽²⁾

أضف إلى ذلك وقوع الخليفة تحت سيطرة نفوذ رجال يصنفهم المؤرخون بأنهم رجال سوء من الأوغاد والرعاك والأرزال وذلك لأن الخليفة كان يرى أن الوزراء ليسوا وزراءه وإنما وزراء أمه ، كذلك تدخل الوسطاء والأعوان في الحكم وخربت الأعمال وطفى الأكابر مما أدى في النهاية إلى وقوع البلاد ومرورها بأشد أزمة عرفت في ذلك الوقت وهي التي عرفت بالشدة العظمى أو (الشدة المستنصرية).⁽¹⁾

(1) ماجد ، المستنصر ، ص 23 ؛ نريمان عبد الكريم أحمد ، أحوال المرأة في مصر في العصر الفاطمي ، رسالة ماجستير منشورة بآداب عين شمس ، 1984 ، ص 164.

(2) ماجد ، المستنصر ، ص 19-23 ؛ نريمان ، أحوال المرأة ، رسالة ، ص 164-167.

(1) المقرئى . الخطط . ج 1 ، ص 356 ؛ ج 2 ، ص 195 ؛ ماجد ، المستنصر ، ص 24.

ب- الصراع بين الأتراك والسودانيين :

ناهيك عما سبق فقد وقعت في البلاد مظاهر أخرى من مظاهر الفوضى تمثلت في الصراع بين الأتراك والسودانيين؛ وكان السبب المباشر الذي أدى إلى اندلاع الفتنة بين الطائفتين هو أن المستنصر من عادته في كل سنة أن يركب على النجب مع النساء والحشم إلى جب عميرة وهو موضع نزهة ، فيخرج إليه بهيئة أنه خارج إلى الحج على سبيل الهزء والمجاة ومعه الخمر عوضاً عن الماء ويسقيه الناس كما يفعل بالماء في طريق مكة⁽²⁾.

فلما كان من جمادى الآخرة خرج كالعادة المذكورة فقام احد الأتراك برفع سيفه على أحد السودانيين الذين كانوا في ركاب المستنصر خارج القاهرة ، فهجم عليه كثير من العبيد وقتلوه، بالطبع هذا التصرف أثار غضب الأتراك ، فذهبوا إلى المستنصر وقالوا له : " أن كان هذا عن رضاك فالسمع والطاعة وأن كان من غير رضا أمير المؤمنين فلا نرضى بذلك " فأكد لهم المستنصر إنه برئ مما حدث⁽³⁾.

هنا اصطدم الأتراك بالسودانيين واستطاع الأتراك هزيمة السودانيين هزيمة ساحقة بناحية كوم شريك ، فاستأعت أم المستنصر لذلك لأنها كانت تأخذ من السودانيين وسيلة لفرض سيطرتها ، ولذلك قامت بمداهم بالسلاح والأموال سرًا ، وعندما عرف الأتراك بذلك عادوا ثانية لمحاربة السودانيين فأنكر المستنصر على أمه ما فعلته ، وقام بعزل البابلي وعين بدلاً منه

(2) ابن ميسر ، المنتقى ، ص 24 ؛ المقرئى ، الخطط ، جـ 1 ، ص 335 ؛ ابن تغرى ، النجوم ، جـ 5 ، ص 21 ؛ الصاوى ، مجاعات ، ص 52.

(3) ابن ميسر ، المنتقى ، ص 24 ؛ المقرئى ، الخطط ، جـ 1 ، ص 335 ؛ ابن تغرى ، النجوم ؛ جـ 5 ، ص 21 ؛ جمال سرور ، عصر الفاطميين ، موسوعة ، ص 274 ؛ ماجد ، ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر (التاريخ السياسى) ، طـ 2 ، ب.م ، 1985 ، ص 280 ؛ الصاوى ، مجاعات ، ص 52.

محمد بن جعفر المعروف بالمغربي وطلب منه التدخل لتهدئة الموقف ونجح المغربي في تهدئة الموقف ولكن إلى حين.⁽¹⁾

والحقيقة أن أم المستنصر لم تستسلم لذلك فقامت بالإرسال إلى العبيد تحريضهم على الأتراك وبالفعل تقابل السودانيون والأتراك في الجيزة ولكن هذه المرة كان يقود الأتراك ناصر الدولة بن حمدان واشتبك الفريقان في عدة معارك انتهت هذه المعارك بهزيمة السودانيون وكان من نتائج ذلك أن طلب الأتراك من المستنصر إبعاد السودانيون، وبالفعل قام المستنصر بتنفيذ طلباتهم ، فاستقر حوالى خمسة عشر ألفاً منهم في الصعيد ومنهم من استقر في الوجه البحري فعاثوا في الأرض فساداً وقاموا بأعمال السلب والنهب وتعالى صيحات الفلاحين ولكن دون مجيب.⁽²⁾

وكان من نتائج الهزائم التى لحقت بالسودانيين ، أن عظم أمر الأتراك وأخذوا يطالبون المستنصر بزيادة مرتباتهم حتى بلغت أربعمئة ألف دينار غير أنهم لم يقتنعوا بالمرتبات التى قرر لها لهم المستنصر رغم الزيادة من ثمانية وعشرون ألف دينار إلى أربعمئة ألف ، بل ألحوا فى زيادة مخصصاتهم.

(1) ابن ميسر ، المنتقى ، ص 25؛ المقرئى ، الخطط ، ج 1 ، ص 335 ؛ ابن تغرى ، النجوم ، ج 5 ، ص 21 ؛ فؤاد ، الدولة الفاطمية ، ص 137 ؛ سرور ، عصر الفاطميين ، موسوعة ، ص 274-275 ؛ ماجد ، ظهور الفاطميين ، ط 2 ، ص 280 ؛ أحمد مختار العبادى ، التاريخ العباسى والفاطمى ، مؤسسة شباب الجامعة ، ص 301 ؛ الصاوى ، مجاعات ، ط 1 ، ص 52 .

CH.A.R.GIBB and P.KRAUS, ART AL - Mustansir, EI, VOLUME VII, LEIDEN-NEWYORK-E.J.BRILL, 1993, P,729.

(2) المقرئى ، الخطط ، ج 1 ، ص 335-336 ؛ جمال سرور ، الدولة الفاطمية فى مصر (سياستها الداخلية ومظاهر الحضارة فى عهدها) ، دار الفكر العربى ، 1999 ، ص 94-95 ؛ فؤاد ، الدولة الفاطمية ، ص 138 ؛ الخربوطلى ، مصر العربية الإسلامية ، ص 164 ؛ جمال سرور ، عصر الفاطميين ، موسوعة ، ص 275.

كذلك قام ناصر الدولة بقطع الميرة عن مصر براً وبحراً فغلت الأسعار بها ، وعندما أظهر المستنصر لهم عجزه عن تلبية طلباتهم لقلّة إيرادات الدولة ألزموه ببيع ذخائره ، فأخرج ما كان بقصره من الذخائر وأخذ الأتراك يقومونها بأبخس الإثمان ، بل أيضاً ارتكبوا أعمال العنف والشدة ونهبوا قصر الخليفة وأخذوا ما كان به من أسلحة وأواني مصنوعة من الذهب والمرصعة بالأحجار الكريمة ، كما أغاروا على المكتبات ونهبوا ما فيها من كتب.⁽¹⁾

هذا وصار العبيد متفرقين في البلاد واستبد ناصر الدولة بالحكم وقبض على والدته المستنصر وصادرها بخمسين ألف دينار وتفرق عن المستنصر أولاده ، بل بالغ في إهانة المستنصر حتى صار يجلس على حصيرة لا يقدر على غير ذلك ، حتى إنه وصل الأمر بأن ابنة أبي الحسن طاهر بن أحمد النحوي كانت تبعث إليه كل يوم برغيفين.

وبعد ما تخلص ناصر الدولة من السودانيين أراد أن يستبد بالأمور دون الأتراك فاستولى على أموالهم وكان ذلك مما جعلهم يسعون للتخلص منه فقاموا بالشكوى من تصرفاته إلى خطير الملك وزير المستنصر ، فطلب منهم الخروج عليه ومناهضته ، ثم قاموا بالشكوى إلى المستنصر فطلب المستنصر من ناصر الدولة الرحيل من مصر ، ولكنه توجه إلى

(1) ابن الوردي ، تاريخ ابن الوردي ، جـ 1 ، ط 2 ، الطبعة الحيدرية - النجف ، 1969 ، ص 523 ؛ أبي اللدا ، المختصر في أخبار البشر ، ترجمة : المؤلف ، جـ 2 ، مكتبة المتنبى ، ب.ت ، ص 189 ؛ ابن ميسر ، المنتقى ، ص 32 ؛ المقرئ ، الخطط ، جـ 1 ، ص 336 ؛ فؤاد ، الدولة الفاطمية ، ص 138 ؛ الصاوي ، مجاعات ، ط 1 ، ص 54 ؛ ماجد ، ظهور الخلافة ، ص 283-286 ؛ سرور ، عصر الفاطميين ، موسوعة ، ص 275 .

الجيزة وخرج الخليفة على رأس فرقة لمحاربته وبالفعل استطاع هزيمته
ففر مهزوماً إلى إقليم الجيزة حيث انضم إليه فريق من الإعراب. (1)
وبالرغم من الانتصار الذى حققه المستنصر على ناصر الدولة إلا أن
سلطته لم تتعدى عاصمته ، فبينما كانوا الجند السودانيين يثيرون
الاضطرابات فى الوجه القبلى كان نحو أربعين ألف فارس من قبيلة لواته
والإعراب بزعامه ناصر الدولة يغيرون على الوجه البحرى وينهبون البلاد
ويحطمون الجسور مما أدى إلى انقطاع المؤن والإمدادات عن القاهرة
والفسطاط. (2)

وبلغ من استهانة ناصر الدولة بالخليفة المستنصر إنه بعث إلى ألب
ارسلان السلطان السلجوقى يستدعيه إلى مصر وعمل على إقامة الدعوة
العباسية فى مصر وإزالة خلافة الفاطميين منها. (3) وحقيقة لقد تنبأ بعض
الأثراك الموجودين فى ذلك الوقت مثل الدكر وبلدكوش لمدى خطورة ناصر
الدولة باستبداده على أمور البلاد ورغبته فى إزالة الخلافة الفاطمية
 وإقامة الدعوة العباسية. لذا قاموا بتدبير مؤامرة له لقتله وبالفعل ركب
فريق منهم ذات ليلة وانقضوا عليه بسيوفهم ولم يكتفوا بذلك بل تتبعوا كل
أفراد أسرة بنى حمدان بمصر وتخلصوا منهم ، والحقيقة لم يكن حال

(1) ابن الوردى ، تاريخ ابن الوردى ، جـ 1 ، ط 2 ، ص 523 ؛ أبى الفدا ،
المختصر ، جـ 2 ، مكتبة المتنبي ، ص 190 ؛ المقرئى ، الخطط ، جـ 1 ،
ص 336 ؛ فؤاد ، الدولة الفاطمية ، ص 138 ؛ جمال سرور ، الدولة الفاطمية ،
ص 95 ؛ عصر الفاطميين ، موسوعة ، ص 275-276 ؛ اتربى ، الدر
المنتخب ، جـ 1 ، ص 171.

(2) جمال سرور ، عصر الفاطميين ، موسوعة ، ص 276.

(3) أبى الفدا ، المختصر ، جـ 2 ، ص 190 ؛ ابن ميسر ، المنتقى ، ص 35 ؛ فؤاد ،
الدولة الفاطمية ، ص 138 ؛ جمال سرور ، عصر الفاطميين ، موسوعة ،
ص 276.

المستنصر مع الدكر وبلدكوش خيراً من حاله مع ناصر الدولة ، حيث فرضوا عليه نفوذهم وعمل بلدكوش على سد منافذ القاهرة مما أدى إلى انعدام الأمن وكثرة النهب والسرقه في البلاد حتى ضاق المستنصر ذرعاً مما جرى حوله. وبقي الحال على ذلك إلى أن جاء بدر الجمالي أمير الجيوش فتخلص من هؤلاء الأتراك واستقامت أمور البلاد.⁽¹⁾

مرت البلاد بكثير من الأوبئة والمجاعات والأزمات الاقتصادية ولعل أكبر مجاعة حدثت في عهد الخليفة المستنصر ، فمرت البلاد في عهده بكثير من الأوبئة والأزمات الاقتصادية الواحدة تلو الأخرى في السنوات 1052/444 ، 1054/446 ، 1055/447 ، 1056/448 وفي 1058/450 . وتعد مجاعة 1065/457 إلى 1071/464 أطول وأبشع المجاعات التي تعرضت لها البلاد إذا امتدت سبع سنين وعرفت بالشدة المستنصرية نسبة لهذا الخليفة أو "الشدة العظمى".

وأن كان هناك من يرى أن هذه المجاعة امتدت ثمانى سنين (446-454هـ) وهناك أيضاً اختلاف في الآراء حول الوقت الذي بلغت فيه هذه المجاعة أشدها فمنهم من يرى إنها بلغت أشدها في 1069/462 ومنهم من يرى في 1069/461 ، ويقال أن هذه المجاعة تعادل المجاعة التي حدثت في أيام يوسف الصديق.⁽²⁾

(1) أبى الفدا ، المختصر ، جـ 2 ، ص 190 ؛ جمال سرور ، الدولة الفاطمية ، ص 98 ؛ فؤاد ، الدولة الفاطمية ، ص 138-139 ؛ سرور ، عصر الفاطميين ، موسوعة ، ص 278 ؛ اتربى ، الدر المنتخب ، جـ 1 ، ص 171 ؛ الصاوى ، مجاعات ، ص 58-59 .

(2) إياس ، بدائع الزهور ، جـ 1 ، ص 73 ؛ ماجد ، المستنصر ، ص 155 ؛ ظهور الخلافة ، ص 369-370 ؛ فؤاد ، الدولة الفاطمية ، ص 139 ؛ حسن إبراهيم ، الدولة الفاطمية ، ص 171 ؛ تاريخ الإسلام للسياسى والدينى والثقافى - والاجتماعى ، جـ 4 ، ط 14 ، مكتبة النهضة المصرية ، 1996 ، ص 171 ؛ جـ 3 ، ط 15 ، ص 162 ؛ نريمان ، أحوال المرأة ، رسالة ، ص 72 .

والحقيقة أن تلك المجاعات حدثت في عهد وزارة اليازوري الذي عمل على إيجاد حلول مؤقتة من أجل التقرب من الخليفة ، فعمل على تخزين الغلال في مخازن وبتاجر فيها وبييعها للتجار بالسعر الذي يريده؛ وكان هذا الاحتفاظ بهذه الغلة أشبه باحتياطي البلاد ، كذلك عمل على توزيع الغلال على الأهاليين ، كما قام بنصيحة المستنصر ألا يخزن الغلال وأن يخزن غيرها من المواد التي تأتي بربح أكبر مثل :

الخشب والحديد والرصاص والصابون والعسل وعندما حدثت المجاعة لم يعد يوجد احتياطي من الغلال في حوزتهم في الوقت الذي تلاعب فيه التجار بأسعار الغلال ، وقد أدرك اليازوري خطأه فعمل على مصادرة ما في مخازن التجار وختم عليها.

كذلك لجأ إلى المفاوضات مع ملك الروم قسطنطين التاسع في سبيل استيراد ما مقداره أربعمئة ألف أردب من الحبوب ولكن عندما مات هذا الملك تولت بعده ثيودرة وعاقبت إصدار القمح، على كل حال هذه الإجراءات السريعة التي قام بها اليازوري خففت من حدة المجاعات في البلاد. (1)

بالرغم من المجهودات التي بذلها اليازوري من أجل التقليل من حدة المجاعات ولكن بعد وفاة اليازوري قد خلقت الأسباب التي أدت في النهاية إلى دخول البلاد على أطول وأبشع المجاعات التي عرفت أو ما عرفت باسم الشدة العظمى .

أولاً : أسباب الشدة العظمى :

(1) المقرئى ، الخطط ، ج1 ، ص335 ؛ ماجد ، المستنصر ، ص155-156 ؛ ظهور للخلافة ، ص369-370 ؛ جمال سرور ، عصر الفاطميين ، موسوعة ، ص274.

بالطبع هناك عوامل قد أدت بدورها إلى حدوث الشدة العظمى وسنحاول سرد هذه العوامل قدر المستطاع ويأتى على رأس هذه العوامل :

1- ضعف السلطة المركزية :

يرجع سبب هذه المجاعات وقبل كل شئ إلى ضعف شخصية المستنصر الذى ولى الخلافة وعمره سبع سنوات فقد وقع الخليفة تحت نفوذ رجال من الأوغاد والرعاع والأرزال كما يصفهم المؤرخين وربما لأن الخليفة كان يرى أن الوزراء ليسوا وزراءه وإنما وزراء أمة ، هذا وقد أدى ضعف الخليفة إلى عدم قدرته على التصدى على سيطرت وطموح رجال البلاط والقواد والخصيان الذين كانوا يحيكون الدسائس وساعد على ذلك انسياق المستنصر لما يسمعه من شكائات.

وليس أدل على مدى الضعف من إننا نجد كثرة فى تغير الوزراء حتى أن الوزارة قد شغلت بأربعين وزيراً خلال تسع سنوات ونجد أن بعضهم قد قضى فى منصبه يوماً واحداً ، وفيما يبدو أن تغير الوزراء بدأ فى عام 450هـ / 58 - 1059م.

ولم يقتصر الأمر على الوزارة فقط بل أيضاً على القضاء فقد بدأ تغير القضاة فى 453هـ / 1061م ، وطبيعى أن كثرة تغير الوزراء والقضاة قد أدى إلى إضعاف قوة الوزراء وأعجزهم عن تدبير الأمور.

وهناك من يرى أن تولية الوزراء والقضاة استمرت طوال الفترة الممتدة من 1058/450 إلى 1073/466 وأن الوزراء قد وصل عددهم إلى أربعة وخمسون وزيراً واثنان وأربعون قاضياً ، هذا بخلاف أن المستنصر لم يكن يشارك وزراءه فى المسئولية بل ترك كل شئ تحت تصرف أمه فكانت تتحكم فى تغير الوزراء كما تريد.⁽¹⁾

(1) المقرئى ، الخطط ، ج2 ، ص195 ، ج1 ، ص356 ، ماجد ، المستنصر ،

ص24 ، 155 ، رائد البراوى ، حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ،

ط1 ، مكتبة النهضة المصرية ، 1948 ، ص88 ، فؤاد ، الدولة الفاطمية ،

2- الفتن والمنازعات:

زاد الطين بلة حدوث نزاع بين طوائف الجيش الفاطمي؛ الذي كان يتكون من عناصر متعددة الجنسية وليس عنصر واحد فقط؛ فمنهم المغاربة وهو أطلق عليهم نسبة إلى بلادهم وهي بلاد المغرب حيث أن الفاطميين اعتمدوا عليهم بشكل أساسي لكي يعملوا على استقرار ملكهم في مصر. ثم ظهر ميل الفاطميين لاستخدام عناصر أخرى موجودة في الشرق عرفت بالمشاركة لأنهم من الشرق وهم من الديلم والأتراك كانوا يعملون كجنود مرتزقة في جيوش المسلمين.

كذلك كان في الجيش السود الذين كانوا نصفهم من الزنوج والنصف الآخر من العبيد الذين يشترون من تجار الرقيق، كذلك استعانوا في الجيش بعناصر أجنبية كالروم أي اليونان وكانت لهم حارات مثل بقية الجيش نذكر منها : حارة الروم والتي أصبحت حارتين : حارة الروم العليا وحارة الروم السفلى.

كذلك استخدم الفاطميين البدو والذين كانوا يؤلفون طلائع الجيش الفاطمي وقت الحرب، وكذلك استخدم الفاطميون المصريين وربما عرفوا باسم السرائيين حيث يذكر ناصر خسرو بأنهم جاءوا من كل ولاية ولهم قائد خاص وكل منهم يستعمل سلاح ولايته، ولعل أسرع الطوائف إلى الفتنة هم الإعراب ولاسيما قبيلة بني قرة الذين هم عدة بطون من قيس وهلال.⁽¹⁾

ص139؛ الصاوي، مجاعات، ص50؛ حسن إبراهيم، الدولة الفاطمية، ص171، محمد بركات الببلي، صفحات من تاريخ الدولة الفاطمية منذ قيامها في المغرب حتى سقوطها في مصر، مركز الدراسات الشرقية، بت، ص123.

(1) ماجد، المستنصر، ص160-164؛ ظهور الخلافة، ص373-378؛ الصاوي، مجاعات، ص51.

ولعل أبرز صراع حدث بين طوائف الجند في عهد المستنصر كان الصراع بين الأتراك والسودانيين كما سبق وأن ذكرنا قبل ذلك والذي نتج عنه أن الجند الأتراك أجبروا المستنصر على تزويد مرتباتهم من 28 ألف دينار إلى 400 ألف دينار؛ وكذلك أجبروا المستنصر على بيع محتويات خزانته من أجل تسديد رواتبهم فأخذوها بأبخس الأثمان.⁽²⁾

هذا وقد تعددت الأسباب المؤدية إلى حدوث الشدة منها نقص فيضان نهر النيل، والحقيقة أن الآراء حول هذا العامل قد تعددت فمنهم من يرى أن نقص فيضان النيل عامل أساسي، ويدل على الرأي هذا بأن النيل في تلك السنوات لم يبلغ في السنوات التي حدثت بها المجاعات من الزيادة إلا اثني عشر ذراعًا واحد عشر أصبعًا وكان القاع ثلاثة أذرع واحد عشر أصبعًا.

كذلك رأى آخر يرى أن نقص فيضان النيل يعد عامل من العوامل المؤدية للشدة ولكن ليس العامل الأساسي لأن النيل لم يقل عن 16 ذراعًا إلا في المرتين (446 ، 460 هـ) وتعدى خلالها 15 ذراعًا ، كذلك من ضمن الآراء التي عُرِضت حول ذلك العنصر أن النيل كان يمد خلال سنوات المجاعة السبع ويطلع وينزل فلا يجد من يزرع أراضي مصر من اختلاف العسكر وانقطاع الطرقات في البر والبحر إلا بالحقارة الثقيلة.

كذلك نجد العديد من الأسباب الأخرى مثل الجفاف وخروج جند الخليفة من الأتراك عن إرادته، كذلك اختلاف الكلمة وانعدام الأمن والحروب الناشئة بين طوائف الجند، والحقيقة أن الأرض صارت بائرة لم تزرع بسبب عدم وجود الرجال أي عدم وجود

(2) المقرئى ، الخطط ، جـ 1 ، ص 335-336 ؛ ابن تغرى ، النجوم ، جـ 5 ، ص 21-22 ؛ راشد ، الحالة الاقتصادية ، ص 89-92 ؛ الصاوى ، مجاعات ، ص 51-61 ؛ فؤاد ، الدولة الفاطمية ، ص 138.

الفلاحين إما بسبب موتهم أو لفرارهم من الحقول ، فتجد أن الجندي كان يخرج بنفسه هو وعائلته لزراعة الأرض.

كذلك الاختلاف بين عبيد الدولة وضعف قوة الوزراء وقد عجزوا عن تدبير مصالح الدولة وأيضاً سبب آخر غاية في الأهمية وهو أن المخازن السلطانية كانت فارغة من الغلال فاشتدت لذلك سوء الأحوال، وكما ذكرنا قبل ذلك بأن اليازوري أشار على المستنصر بأن يقوم بتخزين أشياء أخرى غير الغلال ، هذا ويعرض لنا المقرئ أسباب الأزمة أو المجاعات ومنها الآفات السماوية والتي تتمثل في قصور النيل وعدم نزول المطر وتعرض الغلال للقطط أو الرياح أو الجراد أو ما شابه ذلك ، كذلك شراء المناصب والمراكز الحكومية بالمال وفي النهاية العامل النقدي.⁽¹⁾

ثانياً : مظاهر الشدة :

أول مظاهر هذه الشدة ارتفاع أسعار الحبوب والمواد الغذائية ارتفاعاً شديداً ، حيث وصل الأمر بأن رغيف الخبز كان يباع بخمسين ديناراً وقيل خمسة عشر ديناراً بل أيضاً قيل أربعة عشر ديناراً أو درهماً. وكذلك كان يباع أردب القمح بمائتي دينار وقيل ثمانين ديناراً والحقيقة أن نتيجة قلة الأتوات كثر عدد الموتى فكان يموت في اليوم الواحد عشرة آلاف ، وكذلك قيل وصل عدد الموتى في اليوم ثمانية عشر ألف ويبدو أن من جراء هذه الأزمة فنى ثلث أهل مصر.

(1) إياس ، بدائع الزهور ، جـ 1 ، ص 73 ؛ إغاثة الأمة يكشف الغمة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1999 ، ص 22-31 ؛ اتعاظ ، جـ 2 ، ص 130 ؛ جمال الدين الشيال ، تاريخ مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي ، دار المعارف ، 1967 ، ص 243 ؛ راشد ، الحالة الاقتصادية ، ص 93؛ فؤاد ، الدولة الفاطمية ، ص 140 ؛ الصاوي ، مجاعات ، ص 61-62.

والحقيقة أن المستنصر لم يكن أحسن حالاً من أهل البلاد بل إنه هو أيضاً لم يجد ما يفتات به فكانت امرأة ترسل إليه برغيفين فى اليوم أو ببعض الأكل الذى يفتات منه مرة واحدة فى اليوم.

كذلك كان المستنصر أثناء الأزمة يركب وحده، وكل من معه من الخواص مترجلين لم يكن لهم دواب يركبونها ، بل كان المستنصر يأخذ من ابن هبة الله صاحب ديوان الإنشاء بغلته ليركبها صاحب مظلته.

وقد كان الناس يموتون ويتساقطون فى الطرقات من الجوع وكانت النساء تخرج ناشرات شعورهن تصحن: الجوع ! الجوع أو تردن المسير إلى العراق فتسقطن عند المصلى وتمتن جوعاً ، كذلك المستنصر نفسه ترك القصر وذهب إلى الجامع.

كذلك من المظاهر التابعة للشدة أن أكل الناس الكلاب والقطط وقد أبيع الكلب بخمسة دنانير والقطط بثلاث دنانير ، كذلك أكل الناس الدواب فقد أكلت بأسرها؛ فلم يبق للمستنصر سوى ثلاثة أفراس بعد أن كانت عشرة آلاف ما بين فرس وجمل ودابة.

ففى يوم نزل الوزير عن بغلته وغفل عنها الغلام لضعفه من الجوع فأخذها ثلاثة فذبحوها واكلوها فقام الوزير بالقبض عليهم وصلبهم فأصبح الناس فلم يروا إلا عظامهم لأن الناس أكلوا فى تلك الليلة لحومهم. إذن فإتنا لا نبالغ إذا ذكرنا بأن الناس لم تأكل الحيوانات فقط؛ بل أيضاً أكلت بعضها البعض فمن شدة الجوع صار الرجل يأخذ ابن جاره ويذبحه ويشويه ويأكله ولا ينكر ذلك ، بل صارت طائفة من الناس يجلسون على السقائف وبأيديهم حبال فيها كلاب فإذا مر بهم أحد من الناس ألقوا عليه تلك الحبال ونشلوه بتلك الكلاب ، فإذا صار عندهم ذبحوه فى الحال واكلوه بعظامه أو شرحوه وأكلوه وعُرف الزقاق الذى يجلسون فيه بزقاق القتل، ولكن الدولة تعقبتهم وعملت على شنقهم ، كذلك ظهر بعض الطباخين كانوا يقومون بذبح الصبيان والنساء

وأكل لحومهم بل وبيعها بعض طبخها. وزاد الطين بلة أن صاحب هذه المجاعة انتشار الأوبئة والأمراض ولاسيما الجدرى الذى مات منه كثيرون. (1)

ثالثاً : النتائج التى ترتبت على الأزمة الاقتصادية :

كان لهذه الأزمة الطاحنة آثار سياسية واقتصادية وغيرها وأن كانت هذه الآثار متشعبة النواحي وسنحاول أن نعرض لبعض هذه الآثار ومنها: كما سبق وأن ذكرنا أن الوباء قد أدى إلى موت كثير من أهل ريف مصر ومنها ومن الطبيعى أن ينقضى وقت طويل حتى تعود لحالتها الأولى ففي ذلك الوقت انتقلت ملكية مساحات واسعة من الأراضى إلى بيت المال نتيجة لهلاك أصحابها وانعدام ورثتهم فزاد نظام الحيازة على الملكية الخاصة ، هذا وقد حدث تعديل فى نظام إقطاع هذه الأراضى فأصبحت ابتداءً من أيام السلاطين المأمون الأتراك تمتنع لمدة ثلاثين سنة بعد أن كان الأمر قاصراً على أربع سنوات، وأصبح أغلب المقطعين من الأمراء والإجناء وكبار الموظفين من أصحاب الرواتب الثابتة.

أما عن إيرادات الحكومة فقد تضاعفت خلال سنوات الأزمة ولما انتهت الأزمة كان على النواحي مبالغ طائلة لم تدفع إلى بيت المال ، كذلك

(1) القلائس ، ذيل دمشق ، ص 97- 98 ؛ ابن خليكان ، وفيات ، ص 230 ؛ إياس ، بدائع الزهور ، ج 1 ، ص 73- 75 ؛ المقرئ ، انعاظ ، ج 2 ، ص 128- 130 ؛ الخطط ، ج 1 ، ص 337 ؛ ابن تغرى ، النجوم ، ج 5 ، ص 18- 20 ؛ راشد ، الحالة الاقتصادية ، ص 93- 95 ؛ محمد عبد الله عنان ، مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية ، ط 2 ، مكتبة الخاتجى بالقاهرة ، 1969 ، ص 151 ؛ ماجد ، المستنصر ، ص 157- 159 ؛ فؤاد ، الدولة الفاطمية ، ط 1 ، ص 139- 140.

النكبة التي أصابت الزراعة واستمرت أثارها زمناً طويلاً فكان من الطبيعي أن يؤدي ذلك إلى نقص الضرائب العقارية.

كذلك كان للآزمة أثار سلبية على الأحياء الشمالية للفسطاط (العسكر والقطائع)، فقد خربت القطائع أثناء الشدة العظمى بالرغم من ازدهارها في أوائل عهد المستنصر حسب أقوال الرحالة وكانت القطائع وحدها بها مائة ألف دار فصار نتيجة هذا الخراب لا توجد إلا كيمان فيما بين مصر والقاهرة.

كذلك ترتب على هذه المجاعة أن منعت مصر ما كانت ترسله إلى الحجاز من مؤن وغلل، وكذلك قطعت الخطبة للمستنصر في مكة والمدينة وخطب للخليفة العباسي، كذلك قطعت الخطبة في بغداد والعراق بعد أن أقيمت عشرة أشهر، ثم قطعت في الحجاز لمدة سبع سنوات وهكذا توالى انفصال أجزاء الدولة، وأيضاً دخل النورمان صقلية واستولوا عليها فخرجت صقلية بذلك عن حكم الفاطميين بعد أن ظلت جزءاً من أملاكهم منذ أن قامت دولتهم، ومن أكبر الخسائر التي مرت بها البلاد أثناء الشدة العظمى هي تلك النفائس والذخائر التي خرجت من قصر المستنصر حيث نهب الكثير من قصره على يد الجنود الأتراك وزعيمهم ناصر الدولة حتى عجز الرواة عن إحصاء ما نهب أو بيع من خزائن الكسوات والفرش والأمتعة والطيب والجواهر والسروج.

كذلك من أهم النتائج التي ترتبت على هذه الأزمة هو أن المستنصر عندما عجز على السيطرة على البلاد والقضاء على الاضطرابات، قام بالإرسال إلى وزيره بدر الجمالي من عكا وبمجيئ ذلك الوزير يكون قد بدأ عهد وهو ما عُرف باسم عصر الوزراء العظام.⁽¹⁾ وفي النهاية توفي

(1) ابن خليكان، وفيات، المجلد الخامس، ص 230؛ المقرئ، الخطط، ج 1، ص 337؛ راشد، الحالة الاقتصادية، ط 1، ص 97؛ ماجد، المستنصر،

المستنصر بالله سنة 487هـ / 1094م لتبدأ بعده الدولة الفاطمية طور
التداعي والانهيار .

سقوط الدولة الفاطمية :-

قُدر لمسرح الحروب الصليبية أن يشهد مولد شخصية هي الأبرز
من بين شخصياته التي لعبت دوراً هاماً ومؤثراً في تاريخ هذه الحروب ؛
وهي شخصية صلاح الدين الأيوبي (2)¹. ولا تعد فترة حكم صلاح الدين
مجرد فصل من الفصول التي يضمها تاريخ الحروب الصليبية ، بل هي
بمثابة لحظة من اللحظات النادرة والمثيرة في تاريخ البشرية إذ حلت -
لفترة وجيزة - العزيمة الأخلاقية ووحدة الهدف محل سوء الظن وخيبة
الأمل اللذين ولدتهما معاناة طويلة من جراء طموحات الأمراء الأتانيّة ،
ولولا هذا الأساس لما أمكن لجيوش المسلمين الصمود في ذلك النضال
المضني ضد الحملة الصليبية الثالثة ، ولو شئنا أن نتصور هذا الانجاز
ونفهم مغزاه في إطاره التاريخي ، فلا بد من بذل محاولة نوضح من
خلالها كيف أن صلاح الدين باستخدامه للأدوات المتاحة له في إطار
الظروف السياسية لعصره ؛ قد تخطى كل العقبات التي صادفته في سبيل
إقامة وحدة معنوية ، وأثبت أنها وحدة - وأن كانت لم تصل إلى حد الكمال

ص159 ؛ جمال الشيال ، مصر الإسلامية ، ص244 ؛ فؤاد ، الدولة الفاطمية ،
ص141.

(2) عن شخصية صلاح الدين الأيوبي وبداياته أنظر : عبد المنعم ماجد ، الناصر
صلاح الدين الأيوبي ، القاهرة 1962 ؛ سعيد عاشور ، صلاح الدين الأيوبي ، القاهرة
1965 ؛ إبراهيم طرخان ، صلاح الدين الأيوبي ، القاهرة 1968 ؛

Lyons, M. & Jackson, D., Saladin : the political of the holy war ,
(Cambridge , 1982).

على الإطلاق - إلا أنها قد بلغت من القوة ما يكفى لمواجهة التحدى القادم من الغرب¹.

ويجدر بنا أن نستعرض نشأة صلاح الدين قبل أن نرصد دوره التاريخى، فقد كان أبوه نجم الدين أيوب وعمه أسد الدين شيركوه قد التقيا بعماد الدين زنكى سنة 527هـ/1132م عقب هزيمته فى الحرب التى نشبت بينه وبين الخليفة العباسى المسترشد ، وأراد زنكى عبور نهر دجلة حتى لا يقع فريسة باردة فى يد أعدائه من جنود الخلافة العباسية والسلاجقة ، فساعد نجم الدين الأتابك المهزوم على عبور النهر بسلام ، وكانت هذه الخدمة سببا فى توطد العلاقات بينهما فيما بعد². وفى بلاط نور الدين محمود بلغ الأخوان أسد الدين شيركوه ونجم الدين أيوب ذروة المجد ، فقد تولى شيركوه وظيفة نائب السلطنة فى حلب ، كما صار نجم الدين أيوب حاكما على دمشق ، أما الشاب صلاح الدين فقد رافق عمه فى حلب³. وهكذا كان أيوب والد صلاح الدين وعمه أسد الدين شيركوه من أهم رجال البيت الزنكى ، فقد عملا فى خدمة عماد الدين زنكى ومن بعده ابنه نور الدين فى مواجهة الصليبيين. وكان من الطبيعى أن يشب صلاح الدين على نهج أسرته فى العمل فى خدمة هذا البيت تحت إمرة عمه شيركوه.

والواقع أن ما حدث فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى من أحداث ، جعل النزاع بين الصليبيين والمسلمين ينتقل إلى مصر. إذ تطلع نور الدين لضم مصر إلى أملاكه لغناها بالمال والرجال ، وبعد أن تأكد من

(1) هاملتون جب ، ظهور صلاح الدين 1169 - 1189م ، ت. سعيد عبد المحسن ،

ضمن كتاب تاريخ الحروب الصليبية ، رام الله 2004 ، ص222.

(2) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج1 ، ص11.

(3) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج2 ، ص10 ؛ قاسم عبده قاسم ، على السيد على

الأيوبيون والمماليك ، التاريخ العسكرى والسياسى ، القاهرة (ب.ت)، ص21.

ضعف الخلافة الفاطمية هناك ، وكان هذا المشروع يراود نور الدين بالحاح نظراً لأهمية مصر في مشروعه بتوحيد الجبهة الإسلامية في مواجهة الصليبيين ، ذلك أنه إذا استطاع أن يستولى على مصر استطاع أن يضيق الخناق على الصليبيين ويطردهم من الشام ، بجانب الإصلاح المستمر من جانب الخليفة العباسي بالقضاء على الخلافة الفاطمية الشيعية في مصر¹.

وقد جاءت الرياح بما تشتهيبه سفن نور الدين حين وقع النزاع بين وزيرين مصريين : أحدهما اسمه ضرغام ، والآخر اسمه شاور ، وقام الأول بطرد الأخير من مصر فاتجه بدوره يطلب المعونة من نور الدين عام 558هـ / 1163م في مقابل أن يحكمها باسمه ويكون له ثلث خراجها . واهتبل نور الدين الفرصة وسارع بإرسال جيش إلى مصر بقيادة شيركود واستطاع الأخير إعادة شاور إلى الوزارة وانتظر أن يفي بتعهداته لنور الدين لكن شاور تنكر لوعوده ، بل وطلب شيركود بسحب جيشه والعودة من حيث أتى².

على الجانب الآخر لم يغب عن أذهان الصليبيين مدى خطورة أن تقع مصر في أيدي نور الدين ، وما يعنيه ذلك من وقوعهم بين فكي القوى الإسلامية في مصر والشام ، لذلك لم يبقوا مكتوفي الأيدي أمام ذلك ثم حدث في أوائل عام 557هـ / 1162م أن توج عموري الأول Amauri I ملكاً على مملكة بيت المقدس الصليبية ، مما يعتبر بداية مرحلة جديدة في سياسة الصليبيين تجاه مصر ، ذلك أن عموري اتصف بالشجاعة

(1) عطيه القوصي ، المسلمون والعدوان الصليبي ، القاهرة 2000 ، ص 181؛ السيد البار العريني ، الشرق الأدنى في العصور الوسطى ، الأيوبيون ، بيروت 1967 ، ص 26.

(2) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج 1 ، ص 137 ؛ أبو شامة ، الروضتين ، ج 1 ، ص 418 - 420.

والجراة والدهاء ، وهي صفات أجمع على وصفه بها المؤرخون المعاصرون من المسلمين والمسيحيين سواء. وقد أدرك عموري أن سيطرة نور الدين محمود على حلب ودمشق وحماه وحمص شكلت سدا في وجه الصليبيين ، وحالت دون توسعهم في شمال الشام ، وبذلك صار الطريق الطبيعي الوحيد الذي بقي مفتوحا أمام حركة الصليبيين التوسعية هو طريق مصر¹.

لذلك سارع عموري الأول بعرض المساعدة على ضرغام خلال الصراع الذي نشب بينه وبين شاور قبل تدخّل ر الدين ، كما انتهبل فرصة استنجد شاور به ضد شيركوه فأرسل جيشاً صليبيًا إل مصر على وجه السرعة حاصر شيركوه وجيشه في مدينة بلبيس، لكن الأنباء تطايرت بتحريك نور الدين في بلاد الشام ضد مملكة بيت المقدس في محاولة للتخفيف عن قواته المحاصرة في مصر ، حيث ضرب نور الدين الحصار على مدينة حارم وأسقطها عام 595هـ / 1164م وأرسل راياتها الصليبية إلي شيركوه الذي سارع بنشرها على أسوار المدينة فعرفوا ما حل بأملهم فما كان من عموري إلا أن سارع بطلب الهدنة وتم الاتفاق بين الطرفين على مغادرة البلاد سويًا خصوصًا وأن الزاد والمؤن بدأت في النفاد في المعسكر النوري².

لم تفت هذه الأحداث في طموح نور الدين في ضم مصر مرة أخرى فقام بإرسال شيركوه مرة أخرى إلي مصر عام 562هـ / 1167م ، وجاء شيركوه إلي مصر هذه المرة وفي صحبته ابن أخيه صلاح الدين في

(1) سعيد عاشور ، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام ، القاهرة 1996، ص11.
(2) المقرئى ، الخطط المقرئية ، ج 2 ، القاهرة 1326هـ ، ص147 ؛ عبد المنعم ملجّد ، الدولة الأيوبية في تاريخ مصر الإسلامية ، القاهرة ، 1997 ، ص79.

زيارته الأولى لمصر¹. وأمام هذا الإصرار من جانب نور الدين عاود شاور الاستتجاد بالصلبيين ، فسارع عموري بإرسال جيش جديد إلى مصر ، ومن جديد اصطدم الجيشان النوري والصلبي دون تحقيق نصر حاسم ، وهنا لجأ نور الدين كعادته في الضغط على الجبهة الصليبية في بلاد الشام مما دفع عموري مرة أخرى لطلب الصلح مقابل انسحاب الطرفين من مصر ، وأن كان قد اتفق سرا مع شاور على بقاء حامية صليبية صغيرة في مصر مقابل مبلغ من المال².

ولم تكد الأمور تهدأ حتى عاود عموري تفكيره في غزو مصر ، بعد أن بسرت له الأمر الحامية الصليبية التي تركها بمصر ، وحذرت من تركها عرضة لأطماع نور الدين ورجاله ، لذلك خرج في العام التالي 563هـ / 1168م على رأس جيش جديد لغزو مصر. وفي هذه المرة لم يجد ترحيباً من شاور ، بل أن الأخير توجس خيفة من هذا الهجوم وأصدر أوامره بإحراق القاهرة حتى يفوت الفرصة على الصليبيين في احتلالها بسهولة³. على الجانب الآخر لم يقف نور الدين مكتوف الأيدي أمام هذه المحاولة خاصة بعد استتجاد الخليفة الفاطمي العاضد به وطلبه التدخل ، وسارع نور الدين بإرسال شيركوه في مهمته الثالثة إلى مصر وفي صحبته صلاح الدين⁴.

ولم يستطع عموري الصمود طويلاً أمام جيش شيركوه مما اضطره للانسحاب والعودة خائباً ، وهنا أصبحت مقاليد الأمور في أيدي

(1) ابن الأثير ، التاريخ الباهر ، ص 236 ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج 1 ، ص 148.

(2) أبو شامة ، الروضتين ، ج 1 ، ص 168.

(3) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج 5 ، بيروت 1992 ، ص 350.

(4) ابن الأثير ، التاريخ الباهر ، ص 254.

شيركوه وجيش نور الدين ، وكان أول ما فكر فيه هو التخلص من شاور الذي تنكر لوعوده ولاستعانتة الدائمة بالصلبيين ، وحانت لحظة القصاص من شاور الذي حنث بوعوده كثيراً وانتقلت الأطراف على قتله جزاء وفاقاً له وبارك العاضد هذا العمل وبالفعل تم قتله والتخلص منه ، خلع العاضد الفاطمي علي شيركوه بخلعة الوزارة وفوض إليه أمر الجيوش ولقب بالملك المنصور وكتب له تقليداً بذلك المنصب واستعان شيركوه بابن أخيه صلاح الدين في تصريف شئون البلاد ، علي أن شيركوه لم يلبث أن قضى نحبه ولم تتجاوز مدة وزارته شهرين فمهد الطريق بذلك لصلاح الدين الذي لم يلبث أن تولى الوزارة علي الرغم من معارضة بعض أمراء الجيش النوري وحقدهم عليه لكونه كردياً ليس منهم ، وتذكر المصادر العربية التقليد الذي تولى بمقتضاه صلاح الدين الوزارة وتلقب فيه بالملك الناصر حسبما درج عليه الخلفاء الفاطميين من منح وزرائهم لقب "الملك" وكتب هذا التقليد القاضي الفاضل ، ولم يكن بدعاً أن يتولي أحد السنيين الوزارة للخليفة الفاطمي الشيعي لكون ذلك حدث بالفعل زمن الفاطميين الأوائل الذين وزروا وزراء سنيين من حين لآخر ، وكان عمر صلاح الدين وقتذاك لم يتجاوز الثانية والثلاثين حين ولي الوزارة وقيادة الجيش النوري ونائب نور الدين بمصر¹.

وكانت أول مهمة ملقاة على عاتقه هي مواجهة المشاكل التي برزت نتيجة توليه المنصب في مصر ، والواقع أنه علي الرغم من تعيينه وزيراً بصفة رسمية من قبل الخليفة العاضد إلا أنه كان السلطان ، وكانوا - بوجه عام - ينادونه بهذا اللقب ، كما كانوا ينادون قاضيه الفاضل بالوزير. وكان وجود وزير سني لخليفة فاطمي يشكل وصفاً غريباً ، ولكنه لم يكن جديداً ، إذ كان هناك وزراء سنيون طوال قرن من الزمان تقريباً علي فترات مختلفة في مصر . ولم تكن مناصرة الطائفة السنية تعنى

(1) ابن واصل ، ملرج الكروب ، ج 1 ، ص 160.

بالضرورة اعترافاً سياسياً بالعباسيين ، إلا أن وجود الخليفة العباسي على رأس السلطة السنية ، واستغلال حركة الجهاد الإسلامية في بلاد الشام برأيته ، جعلت صلاح الدين يدرك أنه لا سبيل لتحقيق وحدة إسلامية فعالة مع مصر إلا وفق هذه الشروط . لذلك كان عليه أن يعيد مصر إلى ولائها للعباسيين ، غير أنه كان يتحتم عليه التمهيد لهذا التغيير¹.

ولم يكن صلاح الدين أقل تحمساً للمذهب السني والقضاء على المذهب الشيعي متمثلاً في الخلافة الفاطمية لأنه كان سنياً شافعيّاً مخلصاً . لكن فطنة صلاح الدين وبعد نظره جعلته لا يستجيب سريعاً لرغبة نور الدين والخليفة العباسي ؛ إذ أثر أولاً أن يرى رد فعل كبار رجال الدولة في مصر في هذه الخطوة خوفاً من حدوث ما لا يحمد عقباه في ظل انتشار المذهب الشيعي وارتباط الكثير من رجال الدولة بالخلافة الفاطمية². كما كان صلاح الدين يتوجس خيفة من نوايا نور الدين ، إذ بدا له أن الأخير قد تغير شعوره نحوه ، وبات يحسده على المكائنة التي وصل إليها ، والنفوذ الذي حققه في مصر. لذلك رأى صلاح الدين أن يبقى على الخلافة الفاطمية في صورتها الشكلية ليستطيع أن يستغلها عند الحاجة ، إذا تأزم الموقف بينه وبين نور الدين.

لكن صلاح الدين سرعان ما أدرك أن القضاء على الخلافة الفاطمية صار ضرورة حتمية خاصة في ظل توتر العلاقات مع سيده نور الدين ، لكنه تريث في الأمر وقرر أن تكون هذه الخطوة تدريجية تلافياً لأية نتائج سلبية تنجم عنها . وقد ذهب فكره أن يكون الأمر في اتجاهين متوازيين يحققان له يغيته في النهاية ؛ الاتجاه الأول القضاء على المذهب الشيعي تدريجياً وتشجيع المذهب السني. والاتجاه الثاني توجيه الضربات المتلاحقة للخلافة الفاطمية ممثلة في الخليفة الفاطمي وحاشيته وبقايا

(1) هاملتون جب ، ظهور صلاح الدين ، ص 223.

(2) عبد المنعم ماجد ، للناصر صلاح الدين ، ص 63.

الجيش الفاطمي. وكان نجاح هذان الاتجاهان كفيلاً بالقضاء نهائياً على النفوذ الفاطمي في مصر على النطاقين المذهبي والسياسي¹. وقد بدأ صلاح الدين خطته بمحاربة الدعوة الفاطمية ، وساعده على ذلك أنه كان له الإشراف على القضاء والدعوة معاً ؛ إذ كان من ألقابه كوزير تفويض للخليفة الفاطمي العاضد : كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين ؛ مما أطلق يده في هذا الأمر. فقام بعزل قضاة مصر الشيعة وقطع أرزاقهم وولى بدلاً منهم قضاة على المذهب الشافعي مع أن الأيوبيين أنفسهم كانوا أساساً أشعرية مثل أسيادهم من الزنكيين ؛ حيث أختلط مذهبهم بالفكر الشافعي ، وكانت الأشعرية قد انتشرت بالعراق فشجع صلاح الدين المذهب الشافعي لتقاربه مع الأشعرية ، وبخاصة أن الشافعية كانت مذهب غالبية المصريين قبل مجيء الفاطميين²، وربما أراد أن يخالف الفاطميين الذين كانوا يرعون مذهب مالك دون الشافعي.

كذلك قام بتشريد دعاة المذهب الشيعي ، وألقى مجالس دعوتهم ، وكانت الخلافة الفاطمية قد وضعت نظاماً دقيقاً لتحويل المصريين ، وبخاصة موظفي الدولة ، إلى المذهب الشيعي عن طريق هؤلاء الدعاة فقطع بذلك عليهم الطريق لمواصلة الدعوة . كما قام بإزالة أصول المذهب الشيعي مثل صيغة الآذان الشيعي التي تستبدل عبارة (حي على الفلاح) بعبارة أخرى هي (حي على خير العمل) ، وحذف من العملة النقش الديني الذي يحمل صيغة العقيدة الشيعية (على ولي الله). كما أخذ في التشكيك في نسب الفاطميين ، وهو الأمر الذي سبقته إليه الخلافة العباسية ، وأنهم من نسل اليهود أو المجوس ، وأنهم لا ينتمون لبית النبي. كما منع صلاة الجمع بالجامع الأزهر الذي كان بؤرة تعليم المذهب الشيعي لمدة مائة عام

(1) محمد نصر عبد الرحمن ، العلاقات بين الشرق والغرب ، أضواء على تاريخ

الحروب الصليبية ، القاهرة 2007 ، ص 108.

(2) عبد المنعم ماجد ، الدولة الأيوبية ، ص 84.

وحرمة من موارده المالية بحث خبا دوره بعد أن كان أهم مساجد مصر خلال العصر الفاطمي ، وامتدت هذه السياسة أيضاً إلى جامع الحاكم بأمر الله¹.

وفي نفس الاتجاه أخذ على عاتقه تشجيع المذهب السني وإحياء وجوده من جديد بين المصريين ، ولم يجد صلاح الدين أفضل من التعليم الديني لتحقيق هذا الهدف ، فقرر عام 572هـ / 1176م إنشاء مدرستين لتعليم المذاهب السنية ، واحدة للمذهب الشافعي ، والأخرى للمالكي ، ثم تبع ذلك بإنشاء مدرسة للمذهب الحنفي عام 578هـ / 1182م². ويبدو أن صلاح الدين نجح في تحقيق بغيته ولو بشكل جزئي ، ولا أدل على ذلك مما ذكره المقرئ³ من أن الناس بدأوا يقبلون على المذهبين المالكي والشافعي ، واختفى المذهب الشيعي.

على الجانب الآخر كان صلاح الدين يستعد لتوجيه أولى الضربات الموجعة لجسد الخلافة الفاطمية المريض ، وتحديدًا نحو حاشية القصر الفاطمي التي بلغ نفوذها حدًا بعيداً خلال العصر الفاطمي حتى أن الدولة الفاطمية أحياناً ما كانت تنسب إليهم فتسمى الدولة القصرية. وكان نفوذ الحاشية قد زاد بشكل واضح في عهد آخر الخلفاء الفاطميين العاضد ، حيث صارت تتدخل في شئون السياسة بحيث تمكنت من قتل الوزير طلائع بن رزيك ، وساعدها على ذلك تضخم أعدادها حتى بلغت 18 ألف من مختلف الموظفين من كل نوع ولون ودين يقومون بأعمال القصر⁴.

(1) أبو شامة ، الروضتين ، ج 1 ، ص 201 ؛ عبد المنعم ماجد ، الناصر صلاح الدين ص 66.

(2) ابن شداد ، النوادر السلطانية والنوادر المملوكية والمحاسن اليوسفية ، سيرة صلاح الدين ، ج 2 ، القاهرة 1317هـ ، ص 7.

(3) الخطط المقرئية ، ج 2 ، ص 175.

(1) عبد المنعم ماجد ، الدولة الأيوبية ، ص 85.

وقد اتجه صلاح الدين للتضييق على هذه الفئة ، خاصة وأن البلاط الفاطمي بات مسرحاً لكثير من الفتن والمؤامرات ، ولم يتورع رجاله عن الاستعانة بالصليبيين في سبيل تحقيق مصالحهم الخاصة ، ومن ذلك أن رئيس البلاط الفاطمي ويدعى مؤتمن الخلافة جوهر وكان خصياً نوبياً أسود ، قد استاء من تدخل صلاح الدين في شئون القصر فدبر مؤامرة للخلاص منه ، وسار على خطى شاور وحاول أن يتصل بعموري الأول والصليبيين للحصول على مساعدتهم ، لكن سوء حظه جعل رسالته لعموري تقع في يد صلاح الدين¹.

ولم يدع صلاح الدين هذه الفرصة تضيع سدى فأهتبلها من فوره وقام بقتل جوهر بتهمة الخيانة والتآمر عليه ، وعين بدلاً منه خصياً آخر أبيض اللون من أتباعه ويدعى بهاء الدين قراقوش مشرفاً على القصر الفاطمي ، بحيث أصبح لا يجرى صغيرة ولا كبيرة إلا بأمر صلاح الدين². وبذلك الخطوة سيطر صلاح الدين تماماً على البلاط الفاطمي.

ثم واصل صلاح الدين سياسته في تضييق الخناق على الخلافة الفاطمية فصادر المخصصات المالية للخليفة العاضد. كما منع رسوم الخلافة - وهي حفلاتها الرسمية في الأعياد وغيرها - من ركوب في المواكب ، وجلس عام في القصر الكبير ، وحبس الخليفة وحجبه عن الناس تمهيداً لإزالة مكانته بينهم وعزله. كما ألغى من العملة كلمة المعزية التي تشير إلى الخليفة الفاطمي المعز لدين الله الفاطمي³. وظهر قسوة ما أتبعه صلاح الدين تجاه الخليفة الفاطمي فيما ذكره عمارة اليمنى من أن صلاح الدين فعل بالفاطميين أكثر مما فعله الفرنجة⁴.

(2) أبو شامة ، الروضتين ، ص 178.

(3) عبد المنعم ماجد ، صلاح الدين ، ص 68.

(4) المقرئ ، الخطط المقرئية ، ج 2 ، ص 175 وما بعدها.

(1) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج 1 ، ص 213.

وبعد أن ضيق الخناق على العاضد ، وقضى على نفوذ حاشيته ، لم يتبق أمامه للإجهاز نهائياً على الخلافة الفاطمية سوى القضاء على ما تبقى لها من قوة حربية ممثلة في بقايا الجيش الفاطمي. وكان الجيش الفاطمي في بدايته يتكون من المغاربة البربر ، والمشاركة الترك والديلم ، لكن سرعان ما تغيرت طبيعة الجيش الفاطمي واختفى هذان العنصران ، فلم يعد للفاطميين ثقة بالمغاربة بعد انفصال المغرب عن طاعتهم في عهد المستنصر. أما المشاركة من الترك والديلم فقد استبعدوا من الجيش الفاطمي بعد ظهور السلاجقة الأتراك وقدمهم إلى الشام ومناطقهم للفاطميين. لذلك كان عماد الجيش الفاطمي من السودانيين ومعظمهم من النوبيين الذين كثروا في عهد الخليفة المستنصر ، وبلغ عددهم أيام الخليفة العاضد 50 ألف ، وكان ولائهم الأول للخلافة الفاطمية وكانوا يقيمون في حارات كثيرة بالقاهرة ، حيث اشتهرت منهم طوائف قوية مثل : الفرحية والريحانية والميمونية والحسينية والمنصورية¹.

وقد ظهرت قوة السودانيين في عهد العاضد ، فسيطروا على الجيش والدولة والقصر ، وكانوا إذا ثاروا على وزير قتلوه ، لذلك تصدوا بقوة لصالح الدين بعد أن قتل مؤتمن الخلافة جوهر وهددوه ، فوجه إليهم أخاه توران شاه مع جيش من الأتراك ، وفي البداية كانت الغلبة للسودانيين لكن تدخل صالح الدين في الأمر وإحراق مساكنهم أدى لهزيمتهم وفرارهم إلى الصعيد².

وبعد أن تخلص من شوكة السودانيين اتجه إلى قادة الجيش الفاطمي ، وكان قد استمالهم في البداية بالمال فأحبوه وأطاعوه ، فلما

(2) المقرئ ، الخطط المقرئية ، ج 3 ، ص 2 ؛ عبد المنعم ماجد ، صلاح الدين ، ص 69 ، 70.

(1) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج 1 ، ص 176 ؛ سعيد عاشور ، مصر في العصور الوسطى ، ص 293.

استتببت له الأمور أنقلب عليهم وصادر أقطاعاتهم ومنحها لقاداته ، ثم قبض عليهم في ليلة واحدة وأنزل قادة جيشه في قصورهم ودورهم حتى أن أي رجل منهم إذا أعجبته دار أخرج أهلها منها ونزل فيها.

وخلال تلك الآونة هاجمت مصر حملة صليبية مشتركة مع البيزنطيين عام 565هـ / 1169م ، وقد تحركت الحملة من عسقلان ووصلت الفرما ومنها تحركت صوب دمياط بدعمها أسطول بيزنطي صقلى وعلى الفور تحرك صلاح الدين لمواجهتها فأرسل ابن أخيه تقي الدين عمر لتحصين مدينة دمياط ، وفي الوقت نفسه أرسل إلي نور الدين يطلعه على الأمور ، وقام الأخير بممارسة سياسته المعتادة بالإغارة على بعض الإمارات الصليبية ببلاد الشام ، وأتت هذه السياسة أكلها ، إذ سرعان ما خف الحصار عن المدينة ورحلت تلك الحملة تجر أنيال الخيبة بعد أن لقيت الفشل الذريع¹.

أصبح الشغل الشاغل لنور الدين محمود ليس الضربات التي يلحقها صلاح الدين بالصليبيين بل كان متمثلاً في وجوب إعلان الخلافة العباسية في مصر ، ولم يعد يحتمل مطائلة صلاح الدين فأرسل له إنذاراً نهائياً في صيف عام 566هـ / 1171م يأمره بإحلال اسم الخليفة العباسي المستنصر بدلا من الخليفة الفاطمي العاضد في خطبة الجمعة. وفي هذه المرة قام صلاح الدين بتنفيذ الأمر وقام بإلغاء الخلافة الفاطمية في أول محرم عام 567هـ / 1171م ، وأرجع الخطبة للخليفة العباسي المستنصر بأمر الله ، الذي تولى بعد أبيه المستنجد بالله².

وقد بعث صلاح الدين ببشارة الإلغاء إلي نور الدين محمود ، كما أرسل إلي الخليفة العباسي المستنصر بأمر الله بالبشارة. ومن وقتها أصبح

(2) أبو شامة ، الروضتين ، ج 1 ، ص 181 ؛ ابن الأثير ، التاريخ الباهر ، ص 259
260.

(1) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج 5 ، ص 357.

صلاح الدين يلقب بقسيم أمير المؤمنين ، أى أنه يشارك الخليفة فى لقبه الخلقى ، بحكم أنه أصبح يحكم فى مصر باسمه . كما وصل إلى نور الدين محمود التشريف من الخليفة العباسى وتقلد بالسيفين إشارة إلى تقليده الإقليمين الشام ومصر ، وأصبحت مصر منذئذ تدين بالمذهب السنى على الرغم من وجود بعض الجيوب الشيعية متناثرة فى الصعيد مصر شكلت تهديدات واضحة منذ إعلان قيام الدولة الأيوبية¹.

وقد ترتب على إنهاء صلاح الدين للخلافة الفاطمية رنة فرح كبيرة بين السنيين ، الذين وصفوها بدولة الرفضة ، أى التى رفضت الدين الإسلامى وخرجت عليه. فزينت بغداد ، وغلقت الأسواق ، وأقيمت الاحتفالات ؛ لاستقبال رسول نور الدين ، وأسرع الخليفة العباسى بإرسال الخلع وغيرها لنور الدين ، ومثلها فى العدد والقيمة لصلاح الدين لأنه نائب نور الدين ، وكلها سوداء شعار العباسيين ، بدلاً من البياض شعار الفاطميين².

وفى مصر احتفل صلاح الدين رسمياً بوصول خلعة الخليفة العباسى إليه فلبسها وطاف بها حارات القاهرة ، وفى صلاة الجمعة التالية للإلغاء نصبت على المنابر فى مصر والقاهرة الأعلام السوداء ، ولبس الخطباء ثياباً سوداء أرسل بها من بغداد ، وأجبر على الحضور رجال الدولة وأعيان المصريين وهدد من تأخر منهم بالعقاب. وأصبح يخطب لصلاح الدين على منابر مصر بعد الخليفة العباسى ونور الدين محمود ،

(2) عبد المنعم ماجد ، للدولة الأيوبية ، ص 87.

(3) المقرئى ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج 1 ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ،

القاهرة 1956 ، ص 46 ؛ سعيد عاشور ، مصر فى العصور الوسطى ،

ص 298.

كذلك تم تغيير العملة المصرية فأصبح يكتب على أحد وجهيها اسم المستضى بأمر الله ، والوجه الآخر اسم الملك العادل نور الدين¹.
أما عن موقف المصريين من سقوط الخلافة الفاطمية ، فكما تذكر المصادر أن الأسى والحزن كان المناخ العام الذى ساد الأوساط الشعبية عقب إزالة الخلافة الفاطمية ، ويبدو هذا أمراً طبيعياً ؛ فقد جعل الفاطميون من مصر دولة مستقلة استقلالاً تاماً وليست مجرد ولاية عباسية بحكمها ولاية معينون من قبل الخليفة العباسي. كذلك كانت الخلافة الفاطمية تعتمد فى دواوينها على المصريين الذين تولوا أعلى مناصبها بما فيها الوزارة. وأخيراً فإن أيام الخلافة الفاطمية فى مصر ، كانت أعياداً متواصلة مما لم يعرف له مثيل من قبل ، ليست فقط للمسلمين من أهلها وإنما أيضاً للقبط بحيث أنها فى أعياد القبط كانت تطلق المأكولات والأموال والملابس للموظفين القبط والمسلمين ليكون الابتهاج عاماً ، لذلك اعتبرها المسلمون دولتهم ، حتى أن معظم المؤرخين أجمعوا على تسميتها : دولة المصريين².

الفصل الخامس



بعض مظاهر الحضارة

والنظم

الفصل الخامس

بعض مظاهر النظم والحضارة

النظام الإداري :

كانت الإدارة والسلطة التنفيذية في مصر إبان عهد أحمد بن طولون في يده ، لم يطغ على نفوذه شخص من رجال البلاط أو الجيش أو الإدارة ، وكان ابن طولون يعين من يشاء في الوظائف العامة ، ولكنهم

(1) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج 5 ، ص 357.

(2) عبد المنعم ماجد ، للدولة الأيوبية ، ص 87.

كانوا تحت رحمته ومسئولين أمامه ، فمن أحسن فله الشكر والصواب ،
ومن أساء فعليه الغضب وله شديد العقاب .

1. إدارة الكور :

كان الوجه البحرى في هذا العصر مقسم لثلاث أقسام وهي الحوف
الشرقى وقاعدته مدينة بلبيس ويتكون من 11 كورة ، وبطن الريف
ويتكون من 20 كورة ، والحوف الشرقى ويتكون من 15 كورة وقاعدته
مدينة الإسكندرية ، إذا مجموع الكور في الوجه البحرى 46 كورة ، وكان
في الصعيد 30 كورة ، ليصبح مجموع الكور 76 كورة في مصر دون
توابعها (1) .

والكورة هي الصنع والبقة التي تقع عليها القرى والمحال ،
والتي تقابل في النظام الحاضر المراكز ، وكانت كور مصر منسوبة إلى
مدنها ، لأن لكل كورة مدينة مخصوصة بأمر من الأمور ، نذكر منهم
تنيس التي كان يصنع بها الكتان الدقيق والمقصور ، ودمياط التي
أشتهرت بالقصب البلخى ، والفرما صاحبة البسر الغرماوى والرطب
والتمر ، وهناك أيضاً العريش وكانت مشهورة بالطيور الجارحة ، وفي
الصعيد مدينة بوصير كوريدس ودلاص وإليها ينسب اللجم الدلاصية ،
ومن المدن الشهيرة أيضاً مدينة الفيوم التي كان بها القمح الموصوف
وبها يعقل الخيش ، وغيرهم من الكور والمدن (2) .

وكان على رأس كل كورة من هذه الكور حاكم يسمى (صاحب
الكورة) ، تعهد إليه إمامة الناس عند الصلاة في المساجد الرئيسية في

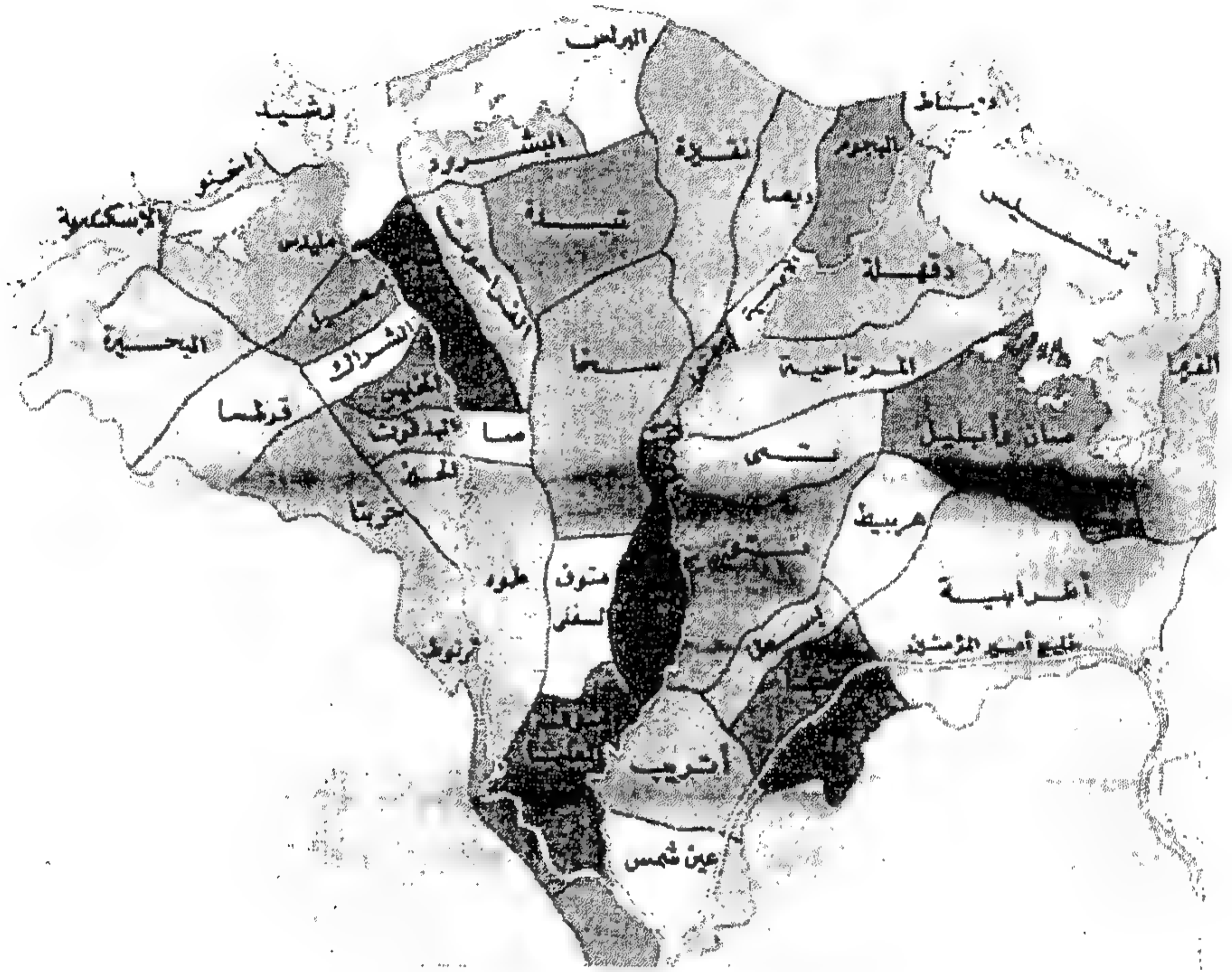
(1) حسين مؤنس ، أطلس تاريخ الإسلام ، القاهرة 1987 ، ص 323.

(2) ابن رسته ، الأعللق للنقيسة ، لندن 1893 ، ص 331 ؛ ابن ظهيرة ، الفضائل

الباهرة في محاسن مصر والقاهرة ، تحقيق : مصطفى السقا ، القاهرة 1969 ، ص

مركز الكورة⁽¹⁾ ، أضيف إلى ذلك أنه كان مسئول عن جمع الضرائب المقررة على الكورة ، أما القرى التي كانت بداخل الكورة فكان يحكمها مشايخ ورؤساء يعرفون باسم مازوت ، كما أطلق عليهم العميد ، وأكبر الظن أن صاحب الكورة كان يعتمد على قوات من الشرطة لإقرار النظام⁽²⁾.

(1) على إبراهيم حسن ، مصر في العصور الوسطى ، الإسكندرية 1947 ، ص 167.
(2) كاشف ، ابن طولون ، ص 168.



کور الدلتا (کور الصغری)

ولا يوجد لدينا دليل أو نص يبين لنا مراتب وعطايا أصحاب الكور، وربما لأن الحكومة كانت تعتمد عليهم في إقرار النظام وجمع الضرائب ، فمن المحتمل أنهم كانوا يحصلون على مراتب ومبالغ معقولة لإدارة كوراتهم ⁽¹⁾ ، ويجب أن نشير إلى أن أحمد بن طولون كان كثيراً ما يقوم بالتفتيش بنفسه على تلك الأقسام الإدارية لاستطلاع ومعرفة أحوال الأمن ، وحث أصحاب الكور على العناية بأقاليمهم ⁽²⁾ .

(1) کاشف : ابن طولون ، ص 169.

(2) علی ابراہیم : مصر ، ص 147.

2. الشرطة :

كان هناك بالدولة الطولونية شرطتان : الفوقانية والسفلاتية ، كان مقرهم العاصمة ، وكانت الشرطة الفوقانية تختص بالنظر في أحوال الطبقة العليا من القواد والعلماء والعظماء ، أما الشرطة السفلاتية فكانت خاصة بإقامة العدل وتوطيد الأمن بين العامة وأواسط الناس ، وكان يرأسهم شخص يسمى (صاحب الشرطة) من مهمة تطبيق القوانين وتنفيذ العقوبات ونشر الأمن في البلاد ومنع الجرائم (1) .

وكان أحمد بن طولون يوصى صاحب الشرطة السفلاتية فيقول له : " أرفق بالرعية ، وأنشر العدل عليهم ، وأقضى حوائجهم ، وأظهر إكرامهم وصيانتهم ، وتفقد مصالحهم ، فبني أسير بالليل في محالهم فكل موضع أمر به ، لا يخلون من قارئ أو متعبد أو داع أو ذاكر لله عز وجل ، فوفر علينا دعاءهم لنا ، وأحرصنا من أن يكون دعاؤهم علينا " .

ويقول لمن يقلده الشرطة الفوقانية : " تشدد عليهم وأرهبهم منك ، ولا تلتن لهم وأغلظ عليهم ، فبني أسير في محالهم فما أمر بموضع فاسمع فيه إلا غناء أو سكران أو معربداً ، قد أخرجته عربدته إلى الوثوب والكفر " (2) .

وكان صاحب الشرطة عند مجئ أحمد بن طولون هو بوليغا الذي سرعان ما صرفه أحمد وعين بدل منه شخص آخر يدعى بوزان ، ثم حل محله موسى بن طولون وبقي بهذا المنصب فترة حتى رحل إلى العراق ، فخلفه موسى بن طونيق ، ولكن أحمد عزله بعد قليل وولى مكانه أخيه موسى مرة أخرى ، ثم عزله وعين بدل منه طظغ ، وكان لظظغ

(1) عبد المقصود عبد الحميد باشا ، موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي ، القاهرة 1996 ، ص 15 ؛ إدوارد بروي ، تاريخ الحضارات العام ، ترجمة : يوسف أسعد داغر ، بيروت 1994 ، ص 209 .
(2) البلوي ، ابن طولون ، ص 205 .

مساعد يسمى طخشي بن يلبرد ، خلفه في هذا المنصب إلى أن ولاه أحمد بن طولون طرسوس ، فخلفه أخيه إبراهيم بن يلبرد على الشرطة ، ثم صرفه أحمد وعين بدلاً منه السرى بن سهل الذي بقى بهذا المنصب حتى سنة 272 هـ (1) .

3. البريد :

بعد أن تخلص ابن طولون من شقير الخادم ، اتخذ لنفسه عامل بريد مهمته الرئيسية دراسة أحوال الأقاليم وتقديم تقرير دورى إليه ، وهذا العامل هو الحسن بن محمد بن أبى المهاجر ، الذى كان يعمل هو وأخوته من قبل عند الحسين الخادم المعروف بعرق الموت ، فلما جاء أحمد إلى مصر طلب منه أن يدلّه على من يستخدمه لهذه الوظيفة ، فأشار إلى بنى المهاجر (2) .

وكانت مهنة صاحب البريد شاقة ومكروهة لأنها تعتمد على التجسس على الناس ، فيقال أن أعرابية دخلت على أحمد بن طولون وسألته أن يعين ابنها فى إحدى الوظائف لتعود عليه بالنفع والرزق ، فأمر ابن المهاجر بالنظر فى عمل لابنها ، فقلده ابن المهاجر بريد ناحية من النواحي براتب مقداره عشرة دنائير شهرياً ، فجاءت الأعرابية مرة أخرى وهى غاضبه ، فلما سألها عن السبب قالت : " وكله بالنميمة يحصبها على المسترسل ، ويهتك بها المستتر ، فقد تحاماه الناس وتناذروه فإذا لم يكن غير هذا تركته ، ولم أتعرض لما فيه مقت الله عز وجل وسب عباده " ، فضحك أحمد بن طولون وأمر ابن المهاجر أن يعطى ابنها العشرة دنائير شهرياً وأن يعفيه من البريد (3) .

(1) كشف ، ابن طولون ، ص 164 - 165 - 166.

(2) الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ، تحقيق : مصطفى السقا ، القاهرة 1381 ، ص 82 - 83.

(3) البلوى ، ابن طولون ، ص 209 - 210.

4. ديوان الإنشاء والمراسلات :

كان أحمد بن طولون هو أول من أسس ديوان الإنشاء في مصر ، فقد اتسعت دائرة أعماله واضطر إلى أن يصطنع عدد كبير من الكتاب لكي يساعدوه في القيام بهذا العبء ⁽¹⁾ ، فكانت مهمة (كاتب الإنشاء والمراسلات) تحرير الكتب التي يرسلها ابن طولون إلى غيره من الملوك والأمراء ، وما يترتب على ذلك من تبادل الرسائل منه وبينهم .

وأول من تولى منصب كاتب الإنشاء والمراسلات هو أبو جعفر محمد بن أحمد ابن مودود المعروف بابن عبدكان ، وفي الحقيقة لا نعرف الكثير عن حياة ابن عبدكان حيث أن كل ما وصلنا عنه هو مدح له ولبلاغته في الكتابة ، فقد كان بليغاً مترسلاً فصيحاً ، وروى أن أهل بغداد كانوا يحسدون أهل مصر على طهطب المحرر وابن عبدكان الكاتب ويقولون بمصر كاتب ومحرر ليس لأمير المؤمنين بمدينة السلام مثلهما ⁽²⁾ .

5. كاتب السر :

لم تكن دار أحمد بن طولون خالية في يوم من الأيام من كاتب خفي موثوق فيه ، يقوم بتسجيل كل ما يجري في حضرته ، فيدون هذا الكاتب محضر الجلسة حين تأتي الوفود أو حين يحظى ذوى السلطة أو بعض المتظلمين بمقابلة أحمد ، وكانت هذه الوظيفة تستدعي السرعة والدقة

(1) القلقشندي ، صبح الأعشى في كتاب الإنشاء ، الجزء الحادي عشر ، تحقيق : عبد القادر نكار ، دمشق 1983 ، ص 28 ؛ محمد كرد علي ، الإسلام والحضارة العربية ، القاهرة 1961 ، ص 277 ؛ حسن الباشا ، الألقاب الإسلامية ، القاهرة 1989 ، ص 16.

(2) محمد كامل حسين ، أدب مصر الإسلامية ، القاهرة 1988.

التامة والنشاط واليقظة ، وفي نهاية كل يوم يعرض على أحمد كل ما دون
لكي يرى ما يحتاج إلى تغيير أو زيادة في أفعاله ونشاطاته الحكومية (1) .
6. الوزارة والحجابة :

لا توجد دلائل تشير إلى وجود نظام الوزارة في عهد أحمد بن
طولون ، ويبدو أن ذلك راجعاً إلى شخصية أحمد نفسها التي لم تكن
لتسمح بوجود شخص ذو سلطان مثل الوزير ، وكان أحمد بن محمد
الواسطي صديق ابن طولون يقوم بالكثير من الأعباء والأعمال وكان له
شأن عظيم عنده ، ورغم ذلك لم يلقب بوزير إلا في مناسبة واحدة ، وهي
عندما سافر ابن طولون إلى الشام واستخلف على مصر ابنه العباس وجعل
له الواسطي ناصحاً ووزيراً (2) .

كما وجد نظام الحجابة في بلاط ابن طولون ، وكان هناك العديد
من الأشخاص يحملون هذا اللقب في آن واحد ، ولكن لم يتول أحد منهم
وظيفة (كبير الحجاب) ، حيث أن وظيفة كبير الحجاب كانت على درجة
كبيرة من الخطورة في هذا العصر مما منع ابن طولون من اتخاذ مثل هذا
الشخص في بلاطه ، وكانت مهمة الحاجب هي تنظيم الدخول والخروج
على ابن طولون ، وكان يعد همزة الوصل بينه وبين الرعية ، ويخيل إلينا
أن وظيفة كبير الحجاب كانت في يد نسيم الخادم وإن لم يلقب رسمياً
بها اللقب (3) .

7. إدارة دار صناعة السفن :

بلغ من اهتمام أحمد بن طولون بشأن الأسطول أن أسند مهمة
الإشراف على عملية بناء السفن وتجهيزها إلى شخص كبير يسمى

(1) البلوي ، ابن طولون ، ص 210.

(2) كاشف ، ابن طولون ، ص 161 ، جمال الدين سرور ، تاريخ الدولة الفاطمية ،
القاهرة 2003 ، ص 39.

(3) علي إبراهيم ، مصر ، ص 299.

(متولى دار الصناعة) ، كان من واجباته أن يقوم باختيار العمال والصناع والنفاطين والنواتية من ذوى الفطنة والذكاء والحق والمهارة الفاتكة ، أضف إلى ذلك مهمته فى النظر فى صناعة المراكب نظراً يستكشف به آلاتها من الخشب والحديد والمشافة والزفت وغيره ، حتى يحكمها ويجيد بناء المراكب وتأليفها وقلطتها وتركيبها ، ويستجيد التقانيف ويجيرها ، وينتقى الصوارى والقلوع ، وينتخبها ويميز النواتية ، ويعتمد من له الحق والدربة منهم والحنكة والتجربة من جميعهم حتى لا يدخل فيهم من لا يصلح دخوله ، ولا يخلط بهم من يكون غيره أحق بالعمل منه ⁽¹⁾ .

وكان مشرف دار صناعة السفن هو كامل بن شجاع بن أسلم الحاجب ، ويبدو أن ابن طولون كان قد سجنه قبل أن يطلق سراحه ويعينه مشرفاً لدار الصناعة ، وكان أحد علماء الهندسة البارزين فى عصره كما كان فنياً فى مهنته .

8. الجاسوسية :

كان لنظام الجاسوسية شأن كبير عند أحمد بن طولون ، سواء أكان خارجياً للتجسس على الموفق عدوه اللدود ، أو داخل البلاد للتجسس على قواده المشكوك فيهم وعلى معارضيه ، وكان لدى أحمد جهاز ضخم من الجواسيس ساعده على رصد محاولات اغتياله ومعارضة حكمه ، فعمل على إحباطها وكبتها فى المهد .

أما عن التجسس الخارجى ، فكان القائمون به من ثقة الطولونيين ، يعيشون على مقربة من خصوم أحمد بن طولون فى العراق وغيره ، ومن أشهر هؤلاء الجواسيس هما طيفور وخادم بن جوارى ، ويبدو أنهما كانا يمثلان ابن طولون عند الحكومة المركزية وكان فى الوقت نفسه

(1) أبو سديرة ، الحرف والصناعات ، ص 227.

يعملان مع أعوانهم على كشف أعداء بني طولون ثم التخلص منهم أو كسبهم أو التأثير عليهم (1) .

وكان أحمد بن طولون ماهراً في كشف الجواسيس الذين يرسلهم الموفق للتجسس عليه ، فيحكى أن أحمد بن طولون عبر من أحد الشوارع وكان بها داراً تبني فوقعت عينيه على أحد عمال البناء فأمر بالقبض عليه ، فتعجب أصحاب أحمد بن طولون من ذلك وقبضوا على العامل ، فلما عاد ابن طولون إلى قصره أمر بإحضار هذا العامل وشده لكى يضرب بالسياط ، لكن العامل ترجاه أن يسمع منه ، فوافق أحمد على رحمته إذا قال له الصديق ، فأعترف العامل أنه جاسوساً للموفق وتكرر بهذه المهنة ليكون بين الناس ويعلم أخباره ، وأن له مساعدين في المدينة ، فعفا عنه لصدقه وقبض على بقية الجواسيس بعد أن قال العامل له عن أماكنهم ، فقتلهم جميعاً ، وبعد أن أنتهى ابن طولون من أمر الجواسيس سأل صديقه موسى بن طونيق عن كيفية معرفته بهذا الجاسوس ، فقال له أحمد أنه رآه على السقالة وهو يرتدى ملابس أرمنية ، فأدرك أنه جاسوس لأن عمال البناء يرتدون الملابس الكتانية (2) .

وروى أيضاً أن أن الموفق أراد أن يشغل قلب أحمد بن طولون بهدف تعريفه بأن أدق أفعاله تكون دائماً على مائدة الخلافة في بغداد ، فقام ابن طولون بدس من سرق نعل الموفق من بيت حظية لا يدخلها إلا ثقاته ثم بعثها إليه وقال له : " من قدر على أخذ هذه النعل من الموضع الذى تعرفه أليس بقادر على أخذ روحك ؟ " .

وأما عن التجسس الداخلى ، فقد كان هناك قوم يكتسبون أرزاقهم من مهمة التجسس بمصر ، وأستخدم أحمد التجسس الداخلى بغرض مراقبة أفعال قواده ، وكشف كبار زعماء المعارضة الحكومية

(1) كاشف ، ابن طولون ، ص 173 - 174 .

(2) البلوى ، ابن طولون ، ص 124 - 125 .

والتخلص منهم ، ونذكر على سبيل المثال ، أن أحمد بن طولون غاب عنه أمر أحد قواده من الأتراك ، فأمر ساعى من الساعة أن يعرف خبره ، فلما عاينه الساعى وجده يركب إلى دار أحمد بن طولون كل يوم ويؤخذ له حوائج مطبخه ، ثم يعود إلى البيت ويبقى به ولا يخرج ، فأمر ابن طولون هذا الساعى بأن يعرف ما يفعل في داره طوال اليوم ، فقام الساعى بشراء دار تلاصق دار هذا التركي ، وأخذ يتجسس عليه فوجده يشرب إلى السكر ، وتجلس معه جارية وليس معها ثالث ، فيقول لهذه الجارية وهو سكران : " إن عزمي أن أضرب أحمد بن طولون في مقتله بخنجر ، ولا أبالي أن أقتل بعده " ، فدون الساعى ذلك وذهب إلى ابن طولون وأعطاه المکتوب ، فلما قرأها ضحك ساعة وتغيظ أخرى ، ثم أحضر هذا التركي ونفاه إلى طرسوس (1) .

والأكثر من هذا أن أحمد بن طولون كان مغرم بالتجسس على الناس ، حتى قيل أنه أمر أحد أتباعه بإحضار شاب يثق فيه يكون زكى الروح صادق اللهجة ، فقام هذا التابع بإحضار شاب يعرفه به هذه الصفات ، فنظر إليه ابن طولون وطلب منه التقدم إليه ثم حدثه بكلام لا يسمعه غيره ، وإذ بأحمد بن طولون يغضب ويأمر بجلد هذا الشاب عشرين جلدة وإدخاله إلى السجن ، فتعجب تابعه من ذلك أشد التعجب ، وبعد فترة أمره أحمد بن طولون أن يذهب إلى عين شمس لكي يلقى هذا الشاب الذي سجنه ، وعندما ذهب هذا التابع وجد الشاب راكباً على خيل جميل ويبدو عليه الثراء ، فتعجب وسأله عن الأمر ، فقص له الشاب أنه عندما حدثه أحمد بن طولون بصوت منخفض ، طلب منه أن يتجسس على من بالسجن ، وأنه سيظهر للحاضرين غضبه عليه ، ويأمرهم بإدخاله

(1) المقرئى ، المقفى الكبير ، الجزء الأول ، تحقيق : محمد اليعلاوى ، بيروت

1995 ، ص 441 - 445.

السجن ، فوافق على ذلك ودخل السجن ، وبعد أن عرف جميع أخبار المسجونين وما يدور بينهم ، أخرج ابن طولون وأعطاه ألفى دينار وعشرة آلاف درهم ، والكثير من المتاع والملابس (1) .

9. القضاء :

كان بكار بن قتيبة هو قاضى مصر عند قدوم أحمد بن طولون ، وكان من العلماء والمحدثين ، وكان من أبناء الطبقة الرابعة فى الحديث ، وكان يحكم بين الناس بمذهب أبى حنيفة رضى الله عنه ، وكان إذا فرغ من الحكم خلا بنفسه وعرض عليها جميع ما كان يحكم به وبكى ويقول منتحياً : " يا بكار قدم إليك رجلان ، حكمت بينهما فما جوابك غداً إذا وقفت بين يدى الله سبحانه وتعالى ؟ " (2) .

وكان الخليفة المتوكل هو الذى عينه قاضى القضاة فى مصر ، وظل فيه حتى قدوم أحمد بن طولون ، وكان بكار شديد الحزم فى قضاءه ، فيذكر أن رجل مات وعليه مال لابن طولون وله أطفال ، فطلب عامل الخراج من أحمد بن طولون أن يأمر القاضى ببيع داره لتسديد ما عليه ، فأرسل ابن طولون إلى بكار فى ذلك ، فقال : حتى يثبت عليه الدين ، فأثبتوه وسألوه البيع ، فقال : حتى يثبت عندى أنه ملكه ، فأثبتوه ثم سألوه البيع ، فقال : حتى يحلف من له الدين ، فحلف ابن طولون ، فقال بكار : أما الآن فقد أمرت بالبيع (3) .

وكان بكار حاضراً فى مجلس أحمد بن طولون إحدى المرات ، فتخاصم رجلان فى المجلس فقال له ابن طولون أحكم بينهما ، فنظر فى القضية وطلب من الرجلين حلفان اليمين ، فحلف أحدهما ، فلما فرغ قال

(1) البلوى ، ابن طولون ، ص 115 - 116 - 117 .

(2) سامح كريم ، أعلام فى التاريخ الإسلامى فى مصر ، القاهرة 1995 ، ص 187 .

(3) ابن حجر العسقلانى ، رف الإصر عن قضاة مصر ، تحقيق : حامد عبد الحميد ،

القاهرة 1957 ، ص 146 .

له الخصم ، استحلفه أيها القاضي برأس الأمير ، فقال له بكار : يا هذا قد حلف بالله الذي هو أعظم من الأمير . فقال : بل استحلفه برأس الأمير ، فقال له بكار ، تحلف برأسه ؟ قال : لا فقال له بكار : يا عدو الله ، تحلف بالله خالق السموات والأرض ، وتمتنع أن تحلف برأس مخلوق مثلك ، فاعجب به أحمد بن طولون من تلك اللحظة وقربه إليه (1) .

ولكن لم تستمر المودة بين الرجلين ، فعندما نشبت الحرب بين ابن طولون والموفق طلحة أخى المعتمد ، عقد ابن طولون مجمعا في دمشق حضره كبار القضاة والفقهاء ، فصرح أحمد بخلع الموفق من ولاية العهد وأمر بلعنه ، ففعل كل الحاضرين عدا بكار الذي امتنع ، فألح عليه ابن طولون ، فأصر في الامتناع حتى أغضبه ، فقام أحمد بن طولون بإلقائه في السجن ، وكان من قبل يمهده كل سنة بألف دينار ، فلما غضب عليه ، قال له أين جوائزي ، فقال له موجوده على حالها ، وأرشده إلى مكانها ، فلما وجدها ابن طولون في منزله وجدها بخواتيمها لم ينقص منها شيئا . وبذلك أصبح كرسى القضاء خاليا في مصر ولمدة ثماني سنوات (2) ، إلا أن ابن حجر العسقلاني قال : " لما قبض أحمد بن طولون يد بكار عن الحكم وسجنه ، أمره أن يسلم القضاء لمحمد بن شاذان الجوهري كالخليفة له ففعل " (3) ، مما يدل على وجود قاضي بدو مسجن بكار بن قتيبة ، ويبدو أنه لم يكن بنفس قوة بكار مما جعل بعض الباحثين يعتقدون أن وظيفة القاضي كانت خالية .

كان أحمد بن طولون يجلس للنظر في المظالم يومين في الأسبوع ، حتى استغنى الناس عن الشرطة والقضاء ، لدرجة أن القاضي بكار قبل

(1) ابن حجر العسقلاني ، رفع الإصر ، ص 151.

(2) كارل بروكلمان ، الإمبراطورية الإسلامية وتحللها ، ترجمة : نبيه أمين فارس ،

بيروت 1961 ، ص 64.

(3) رفع الإصر ، ص 154.

أن يسجن ، كان يجلس أحيانا ليقتضى بين الناس فلا يأتيه أحد فينص في مجلسه ، وبعد أن سجنه أحمد كان يحضر بكار من السجن ليقتضى المظالم، ثم يعاد به إلى السجن (1) .

ولما طال حبس بكار طلب أصحاب الحديث إلى أحمد بن طولون أن يأذن لهم في السماع منه ، فأذن لهم ، فكان يحدثهم من نافذة في السجن ، ثم نقله ابن طولون بعد ذلك إلى دار عند درب المصلقي فأقام فيها حتى مات (2) .

10. السجون :

رغم أن أحمد بن طولون كان ملكاً عادلاً بين الناس ، إلا أنه لم يكن يعرف الرحمة مع من يعصوه أو يخرجون على طاعته أو يعارضون حكمه ، فكانت بداخله عاطفتان جياشتات ، أولهما حب للشعب لا يصدق ، وثانيهما غضب لا يعقل ، فلما لم يكن يستطيع إطعام أحدهما يطلق العنان للآخرى ، فمن يطرعه يجطه كنجم في السماء ، ومن يعصاه يرميه في المطبق للبقية الباقية من عمره .

وفي الواقع هذا هو حال جميع حكام مصر منذ أن أوجدها الله على وجه الأرض ، لا ترى سوى الطغاة الجبابرة الذين لا يسمحون لأحد أن يعارضهم حتى ولو بالكلام ، وقد احصى من قتل صبراً أو مات في سجن أحمد بن طولون فبلغوا 18 ألفاً (3) .

(1) هويدا عبد العظيم رمضان ، المجتمع في مصر الإسلامية ، الجزء الأول ، القاهرة 1994 ، ص 329 ؛ نبيلة حسن محمد ، تاريخ الحضارة الإسلامية ، الإسكندرية 2003 ، ص 82 .

(2) ابن حجر الصقلاني ، رفع الإصر ، ص 154 .

(3) الذهبي ، نزهة الفضلاء تهنيت سير أعلام النبلاء ، تحقيق : محمد حسين عقيل موسى ، جدة 1999 ، ص 944 .

ولم يكن جميع من يسجن في عهده يسجن لأسباب سياسية ، وإنما اختلفت أسباب حبسهم ، كما يجب أن نذكر أن رغم كبر عدد المسجونين في عهده ، إلا أنه اختلفت طريقة سجنهم ، فهناك نوع من الحبس يؤمر فيه المسجون بأن يلزم داره فلا يخرج منها ، كما كان هناك المطبق الذي ينقل إليه أصحاب الجرائم عقب صدور الحكم عليهم (1) .

وكان أحمد بن طولون يراعى أحوال المحبوسين بل ويتجسس عليهم كما سبق وأن ذكرنا ، وكان يقول لمدير السجون سرّاً : " إذا تبينت من رجل براءة ساحته ، فسهل عليه واستأمرني ، فإني استعمل التشدد للضرورة إليه " ، ومن أشهر مسجونين أحمد بن طولون هو بكار بن قتيبة الذي سبق ذكر أمره ، وأيضاً أبو أيوب أحمد بن محمد بن شجاع الذي ولاه أمور الخراج بعد ابن المدير ، فنكبه وأصطفى أمواله سنة 266هـ (2) .

أما عن مدير السجون في عهد ابن طولون فكان أبو مصلح موسى ، ولكنه لم يكن مثلاً للنزاهة بل كان شخصاً مرتشياً ، فيذكر أن جماعة من المسجونين رشوه بمائة دينار نظير أن يطلق سراح واحداً منهم ويحل آخر محله ، كما أنه أطلق سراح مسجون آخر ثلاثة أيام بدون علم ابن طولون ، لكي يبحث عن شخص يسعى عند ابن طولون للإفراج عنه (3) .

الجيش :-

علي أية حال يعتبر الجيش هو عدة الإخشيد الأكبر في دخول مصر والتمكين لنفسه فيها بالقضاء علي سلطان المعارضين لإمارته ، كما أمسي

(1) هويدا ، المجتمع ، ج 1 ، ص 346.

(2) هويدا ، المجتمع ، ج 1 ، ص 347.

(3) كاشف ، ابن طولون ، ص 175.

في نفس الوقت عدته في صد غزوات أعدائه كابن رائق وسيف الدولة الحمداني والفاطميّين .

علي أنه من الصعوبة بمكان رصد كل ما يتعلق بالجيش الإخشيدي نظراً لشحة المصادر المعاصرة لتلك الفترة ؛ فالحديث عن نظام الجيش وعدده ورواتب قواده وعتاده وأسلحته وما إلى ذلك جد عسير فسي ظل ندرة النصوص التي تنتمي لتلك الفترة ، وما وجد من النصوص ألقى الضوء إلى حد كبير عن طبيعة الجيش في مصر في العصر الإخشيدي .

فالثابت أن الجيش المصري في حال قدوم الإخشيد إلى مصر كان منقسماً إلى طائفتين : أهل الشرق أو المشاركة وعلي رأسهم قائد يسمى حبكويه ؛ والمغاربة وعلي رأسهم حبشي بن أحمد ، وكانت المنازعات دائرة بين الطرفين علي قدم وساق¹ ، والمرجح أن أساس تلك المنازعات تعدد الأجناس والطوائف التي كان يتألف منها الجيش وقتذاك .

أضف إلي ما سبق وجود عناصر أخرى متباينة داخل صفوف الجيش في مصر في العصر الإخشيدي فقد وجدت عناصر من الترك والسودانيين والمغاربة ومماليك من أجناس شتى ، ويقال أن عدد الجيش الإخشيدي بلغ أربعمائة ألف مقاتل في مصر والشام² ، بيد أننا لا نستطيع أن نسلم بذلك العدد لأسباب عديدة نظراً لمبالغة المؤرخين المسلمين في تقدير تلك الأرقام لتعظيم قوة الجيش ؛ وإن كنا في الوقت ذاته لا نستطيع أن نغفل قوة الجيش الإخشيدي في ذلك الوقت ؛ وخير شاهد علي ذلك أنه

(¹) سيدة الكاشف ، مصر في عصر الإخشيديين ، القاهرة 1970 ، ص 257 .

(²) ابن تغري بردي ، النجوم ، جـ 3 ، ص 252 ؛ مشرفة ، نظم الحكم ، ص 170 ؛

سيدة الكاشف ، مصر ، ص 257 ؛ أيمن فؤاد ، الدولة الفاطمية في مصر ، القاهرة

2000 ، ص 662 .

حينما استدعى الخليفة العباسي المتقي الإخشيد إلى مدينتي الرقة والرافقة رأي أهل المدينتين من عظم عسكره وحسن عدته ما لم يشاهدوا مثله¹ وحالما استبد كافر بالأمر ولم يبق لأبناء الإخشيد من الحكم سوى الاسم فقط؛ ضم إلى جيشه عدداً كبيراً من السودانيين، ويبدو جلياً أن استعانتة بهذا العنصر ليكونوا عوناً وعدة له؛ لاسيما وأن فرق الجيش بدأت في الانقسام على نفسها فبدأنا نسمع عن طوائف الإخشيدية والكافورية داخل صفوف الجيش آنذاك².

وبناء عليه بات حفظ النظام بين الجند في العصر الإخشيدي أمراً صعباً للغاية في ظل كثرة العناصر التي يتألف منها الجيش، بيد أن قوة بأس الإخشيد وشدة حزمه وبعد نظره وما تهيأ له من صفات القيادة جعلته يتصدي لتلك المشكلة عن طريق الحنكة والخبرة العسكرية؛ لذا عمد إلى سياسة إغداق الرواتب والمنح والعطايا على القواد والجند والتي كان لها وقعاً طيباً في كسب رضاء الجيش وبث الطاعة والإخلاص بين صفوفه، فضلاً عن أن الحروب المتصلة والأخطار التي تعرضت لها الدولة وحدت أهداف الجيش في ضرورة التغلب على الأخطار المحدقة بتخوم الدولة، ولن يتأتى هذا إلا بنظام يعينهم في هذا السبيل³.

بيد أن حالة الوفاق والود لم تكن لتستمر طويلاً رغم خبرة الإخشيد من قبل، وكافور من بعد، إذ سرعان ما يطفو على السطح فريق من الحاقدين على استئثار بالزعامة فيعملون على تأليب وانقسام الجيش إلى فرق؛ ومن هنا ظهرت فرقة موالية لأبناء الإخشيد وأخرى مناصرة لكافور؛ واستمر كافور في سياسته القائمة على بذل الأموال لقواد جيشه وجنوده

(¹) سيدة الكاشف، مصر، ص 257.

(²) المقرئزي، الخطط، جـ 1، ص 94؛ مشرفة، نظم الحكم، ص 170؛ سيدة

الكاشف، مصر، ص 245، 246؛ أيمن فؤاد، الدولة الفاطمية، ص 662.

(³) سيدة الكاشف، مصر، ص 258.

حتى قيل أن القواد كانوا يجتمعون في داره فيخلع عليهم ويمنحهم الهبات الكثيرة ؛ بل روي أنه أمر لأحد القواد من أنصار أولاد الإخشيد بأربعة عشر ألف دينار في يوم واحد فظل هذا القائد عبداً له حتى مات ¹ .

أما بعد وفاة كافور فقد دبت الفوضى إلى صفوف الجيش وثار كثير من الجند على رؤسائهم وطلبوا بأرزاقهم ؛ وكان هذا كله من الأسباب التي أدت إلى انهيار الدولة الإخشيدية ونجاح الغزو الفاطمي ؛ وذلك أن تدبير أمور الجند بعد وفاة كافور أصبح لسمول الإخشيدي بيد أنه لم يكن موفقاً في قيادته خاصة بعد أن تعود الجند أن يشتري الأمراء طاعتهم بالمال والعطايا ؛ لذا ليس بغريب أنه عندما طلبوا من الوزير أبي الفضل جعفر بن الفرات من الأموال ما لم يستطع دفعه ؛ نهبوا داره ودور نفر من أتباعه وكتب فريق منهم إلى الخليفة الفاطمي يزبنون له فتح مصر بعد أن تحول ولائهم كلية إلى الأموال والعطايا ² ، لذا ليس بغريب أنه بمجرد أن دانت مصر لجوهر الصقلي قام بإلقاء القبض على ثلاثة عشر من رؤساء الكافورية والإخشيدية بعد أن بلغه تأمرهم ضد النظام الجديد ، كما أن الفاطميين لم يعملوا على دمج بقية فرق الإخشيدية والكافورية كعناصر نظامية في الجيش الفاطمي مثلما فعلوا في شمال أفريقيا عندما أدمجوا بقايا الجيش الأغلب في جيشهم ³ .

أيضاً من النصوص الواردة عن الجيش في مصر في العصر الإخشيدي هناك ما يفيد بعرض للجيش في أيام الأعياد وبعض المناسبات الأخرى أسوة بما كان يفعله ابن طولون من قبل ؛ وفيه كان قواد الجيش

(¹) المقرئزي ، الخطط ، جـ 2 ، ص 27 ؛ سيدة الكاشف ، مصر ، ص 258 .

(²) ابن تغري بردي ، النجوم ، جـ 4 ، ص 26 ؛ سيدة الكاشف ، مصر ، ص 259 .

(³) أيمن فؤاد ، الدولة الفاطمية ، ص 662 .

يشاركون مع أعيان البلاد في التشاور بشأن تولية الأمراء وإعلان الولاء لهم¹.

والثابت أن محمد بن طغج الإخشيد وكافور كاتا بخرجان أحياناً علي رأس الجيش في المعارك الحربية المختلفة، غير أن الإخشيد أناب عنه بعض القواد في قيادة الجيش المتوجه صوب بلاد الشام، ونادراً ما كان يرسل بعض أخوته علي رأس الجيش في المعارك الحربية².

وجرت العادة في حال انتهاء المعارك الحربية التي يكون الجيش الإخشيدي طرفاً فيها أن يقوم الجنود بإرسال الأسري إلي حاضرة الدولة ومعهم رؤوس الجند القتلى للدلالة علي ما أحرزوه من النصر والظفر ولتطمئن النفوس، وذلك أن ورود أي أخبار غير مطمئنة من ميدان القتال كان من شأنه أن يثير الذعر بين الناس حتى أن أولي الأمر يضطرون إلي الطواف في العاصمة لتهدئة الخواطر ومنع السكان من مغادرة المدينة³.

أما الفاطميون فقد أحاطوا أنفسهم بهالة من التقديس والاحترام⁴، فكان الخليفة يجمع في يده جميع السلطات⁵، ويشرف علي جوائب النشاط المختلفة في دولته⁶ من خلال وزرائه، فقد اعتمد الفاطميون كثيراً علي الوزراء الذين بدأ اتخاذهم في خلافة العزيز بالله

(¹) ابن تغري بردي، النجوم، ج-3، ص327؛ سيدة الكاشف، مصر، ص259.

(²) الكندي، الولاة والقضاة، ص291، 292؛ سيدة الكاشف، مصر، ص259.

(³) سيدة الكاشف، مصر في عصر الإخشيديين، ص260.

(⁴) الشيرازي، سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة، تحقيق: محمد كامل حسين، دار الكتاب المصري 1949، ص85-86، سرور، الدولة، ص140.

(⁵) المقرئزي، إيعاظ الحنفا، ج-2، ص62، 86، 102؛ الخطط المقرئزية، ج-1،

ص426؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج-4، ص180؛ حسن إبراهيم، طه شرف،

المعز لدين الله، القاهرة 1963، ص135؛ ماجد، نظم الفاطميين، ج-1، ص95.

(⁶) ابن القلاسي، نيل تاريخ دمشق، ص93، 94، 101، 107؛ المقرئزي،

إيعاظ، ج-2، ص7، 20.

سنة (368هـ/978م)¹، وحرصوا علي اختيارهم من المختصين في تدبير الأموال وكانوا يمنحونهم صلاحيات واسعة في تعيين الولاة والعمال والقضاة في جميع ولايات الدولة²، وكثيراً ما كانوا يختارون وزراءهم من بين حكام الولايات إذا توفرت لديهم الكفاءة اللازمة³، واطمأن الخلفاء إلي ولائهم للدولة الفاطمية .

فوجد العزيز بالله عهد لوزيره يعقوب بن كلس تدبير أمور مصر والشام والحرمين وبلاد المغرب وما يتصل بإدارتها في مختلف المجالات؛ بل ودون اسمه علي الطراز⁴، كما تمتع اليازوري في خلافة المستنصر بالله بسلطات واسعة⁵ .

ولجأ بعض الخلفاء إلي مراقبة عمالهم بأنفسهم، فالحاكم بأمر الله كان يراقب كل شيء بنفسه، وجعل بابه مفتوحاً للجميع، وسمح بأن يلتجئ إليه أي شخص، ولم يسمح لرجال دولته أن يكونوا حاجزاً بينه وبين الرعية⁶ .

وعلي غرار النظم الإدارية الموجودة بالقاهرة وجد ببلاد الشام وفي المدن الخاضعة لسيطرة الفاطميين جهاز إداري عالي الكفاءة خاضع

(¹) السيوطي بحسن المحاضرة ، ج-2، ص 129؛ عطية مصطفى مشرفة ، نظم الحكم بمصر، ص 98 .

(²) المقرئزي، الخطط ، ج-1، ص 44؛ سرور، الدولة ، ص 143 .

(³) ماجد ، نظم ، ج-1 ، ص 92، 93؛ سرور ، الدولة ، ص 141 .

(⁴) ابن منجب الصيرفي، الإشارة إلي من نال الوزارة، تحقيق: عبد الله مخلص، القاهرة

1924، ص 19-23؛ ابن القلائسي، نيل تاريخ دمشق ، ص 29؛ ابن الجوزي ،

المنتظم ، ج-7 ، ص 155-156؛ الذهبي ، تاريخ الإسلام (وفيات 351-380هـ)،

ص 668-670؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج-11 ، ص 308؛ ابن تغري بردي ،

النجوم ، ج-4 ، ص 158؛ محمد حمدي المناوي ، الوزارة والوزراء ، ص 241 .

(⁵) ابن القلائسي ، نيل تاريخ دمشق ، ص 137؛ المقرئزي ، إتعاظ ، ج-2 ، ص 236 .

(⁶) ابن القلائسي ، نيل تاريخ ، ص 74-75؛ المقرئزي ، إتعاظ ، ج-2 ، ص 3-7 .

لوالى دمشق الذي يعتبر أكبر موظفي الدولة الفاطمية ببلاد الشام، إضافة إلى الدواوين التي تشكل عصب الجهاز الإداري من قبيل : ديوان الرسائل وديوان الجيش وديوان النظر وديوان الشرطة وديوان البريد... إلخ من تلك الدواوين والتي سنتحدث تفصيلاً عن إحداها وهو ديوان الجيش نظراً لأهميته القصوي إبان ذلك العصر .

وسنحاول في تلك الصفحات المعدودات أن نتعرض بالدراسة للجيش الفاطمي في مصر إبان تلك الفترة، مسلطين الضوء على عناصره وأسلحته وألويته وأساليبه القتالية وخواشيه المصاحبة له ¹ .

فالثابت أن الدولة الفاطمية اهتمت بالجيش اهتماماً كبيراً لتحقيق أهدافها التوسعية، والدفاع عنها ضد أعدائها، فاعتمد خلفاؤها الأوائل منذ بداية أمرهم على قبائل بربرية من المغرب خصوصاً قبيلة كتامة وبعض القبائل الأخرى الموالية لهم ² وقد أعد هذا الجيش بغاية فائقة من ناحية العدة والعتاد حتى أن المفاوضين المصريين الذين تشاوروا مع جوهر الصقلي الذي قاد تلك الجيوش لفتح مصر سنة 358هـ/968م، وكتب لهم الأمان وصفوا حجم جيشه بأنه مثل جمع صرفات كثرة وحدة " حتى قيل أنه لم يظأ الأرض بعد جيش الإسكندر أكثر عدداً من جيوش المعز" ³ .

ثم دخلت في الجيش جماعات من عناصر مختلفة إضافة إلى البربر، فاستخدم العزيز بالله الأتراك والسديلم، ثم أكثر من الأتراك

(¹) هذا التقسيم سارت عليه المؤلفات التي تناولت نظم الدولة الإسلامية في العصور الوسطى بصفة عامة، والتي تحدثت عن الجيش بصفة خاصة من قبيل : أحمد صيد الرازي في كتابه " الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى " ، دار الفكر العربي القاهرة 1990 .

(²) المقرئ، الخطط، ج2، ص8 ؛ سرور، الدولة الفاطمية، ص147 ؛ حسن إبراهيم، المعز لدين الله ص 176 ؛ علي حسن الخربوطلي، العزيز بالله، ص 92 .

(³) القلقشندي، صبح الأعيان، ج3، ص492-493 ؛ ماجد، نظم، ج1، ص191 .

واستخدمهم في بعض المناصب القيادية وجعلهم خاصته وبطانتة بعد المعارك التي خاضها لإنهاء حكم أفتكين لدمشق سنة (364-368هـ/974-978م)¹، ثم أسقط ابن كلس المغاربة واستخدم المشاركة في سنة 370هـ/980م من الترك والإخشيدية، ثم عاد نفوذ كتامة لما ولي "ابن عمار" الكتامي "الوساطة" فلما ولي "برجوان" الصقلبي أغري الخليفة الحاكم بأمر الله فقتل منهم خلقاً كثيراً² قبل أن يستقدم الحاكم جماعات جديدة من السودان في الجيش الفاطمي؛ فكانوا يشكلون فرق المشاة (الرجالة) وسلاحهم السيوف والدروع بينما شكل الأتراك فرق الفرسان واستخدموا جميع آلات الحرب التي كان يستخدمها الفرسان؛ ناهيك عن بعض العناصر الأخرى التي دخلت إلى الجيش في أيام الخليفة الظاهر مثل: الغز والمصامدة-قبيلة من البربر بالمغرب- والتي كانت جميعها تشكل قنبلة موقوتة فحينما وجد الخليط من الجند؛ وجد التحاسد والتنافس بينهم، وقامت الفتن والثورات، ووجد من الخلفاء من يقدم عنصراً على آخر ويقربه إليه؛ فنسمع أحياناً عن قيام الحرب بين فرق العساكر كما حدث بين الريحانية والجوشية أيام الخليفة الحافظ؛ كما كانت تحدث تماماً بين المغاربة والأتراك أو بين الأتراك والعبيد عندما يزداد في أرزاق طائفة وتنقص من أرزاق أخرى³.

(¹) ابن منجب الصيرفي، قانون ديوان الرسائل، نشر: بهجت علي، القاهرة 1905، المقدمة ص 32؛ ابن الطوير غزوة المقلتين، ص 123؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج 4، ص 252، 268؛ حسين سليمان، الدولة الإسلامية، ص 235، 268؛ عطية مشرفة، نظم الحكم، ص 144.

(²) مشرفة، نظم الحكم، ص 171.

(³) ناصر خسرو، سفر نامه، ص 109؛ مشرفة، نظم الحكم، ص 172.

كما استخدمت جماعات أخرى في خلافة المستنصر بالله¹ فأشرك الأرمين الذين أحضرهم بدر الجمالي أثناء ولايته علي بلاد الشام سنة (455هـ/1062م) حيث استنجد بهم المستنصر عندما تجددت الفتن بين الأتراك والسودان في مصر² ، وكل طائفة من الطوائف السالفة لها قائد يراقبهم ويقوم بترتيبهم في مواقعهم .

وكانت طوائف الجند عديدة ،تنسب كل منها إلي الخلفاء أو الوزراء ،فمن طوائف الخلفاء الأمرية والحافظية والعاضية³ ،ومن طوائف الوزراء الوزيرية وترجع في تكوينها إلي الخليفة العزيز الذي سمح لوزيره يعقوب بن كلس بتكوين حرس خاص به ينتسب إليه،وقد ازدادت طوائف جند الوزراء -خاصة في عهد وزراء السيف- لاعتمادهم عليها في بسط نفوذهم ،ونذكر منها "الجيوشية" نسبة إلي أمير الجيوش بدر الجمالي⁴ ،والأفضلية نسبة إلي ابنه الأفضل ،والبرقية -هم جماعة من أهل برقة- وتنسب إلي الوزير طلائع بن رزيك الذي استخدم فرقة منهم¹ .

(¹) ابن ميسر ،المنتقى من أخبار مصر بتحقيق :أيمن فؤاد سيد، القاهرة1981، النويري، نهاية الأرب ،ج-26، القاهرة 1985،ص49 ؛ ابن تغري بردي،النجوم ،ج-5،ص19 ،سرور، الدولة الفاطمية،ص147 ،عطية ،نظم الحكم ، ص144 .

(²) سرور، الدولة الفاطمية ، ص147 .

(³) طائفة مكونة من السودان ترجع أصولهم فيما يبدو إلي العقد الرابع من القرن الخامس الهجري ،حيث كان هناك خصي يعرف بعزيز الدولة ربحان كان له نفوذ في البلاط الفاطمي انتسبوا إليه وكانوا يقيمون بحارة بهاء الدين بالقرب من باب الفتوح وجامع الحاكم انظر :أيمن فؤاد ، الدولة الفاطمية ، ص691 .

(⁴) توجد إشارات خاطئة في بعض المصادر إلي أن الجيوشية كانت طائفة من المشاة السودانيين ،لكن يبدو أن أصولهم ترجع إلي الحملة التي شنها بدر الجمالي ضد طوائف السودان في صعيد مصر ،فقد قطع هذه الحملة هجوم السلاجقة علي حدود مصر الشرقية ،ويبدو أن بدر الجمالي توصل إلي نوع من التسوية مع السودان بقرار

كما نسب بعضهم أيضاً إلى قادة الفرق المغربية الذين كانوا في خدمة الخلفاء، مثل: "الياتسية" نسبة إلى ياتس وزير الحافظ، أو ياتس الخادم الذي كان من خدام العزيز والحاكم، "والعطوفية" نسبة إلى عطوف الذي كان في خدمة ست الملك²؛ وخير شاهد على ذلك هو وجود بعض الحارات داخل القاهرة والتي سكنتها بعضاً من تلك الطوائف مثل: حارة المحمودية وحارة الجودرية وحارة المرتاحية وحارة الفرحية وحارة صبيان الطوارق وحارة العدوية وحارة قائد القواد³.

وغير المغاربة والمشاركة وجدت طوائف أخرى في الجيش الفاطمي تحمل طابع الدولة؛ فقد شرع الخلفاء الفاطميون منذ مجيئهم مصر - في تكوين طوائف من العسكر تكون في قبضة أيديهم وفي غاية الإخلاص لهم؛ ولتكوين هذا الجيش الخاص شرط المعز علي ولاية الأعمال البحث عن يظهرون مهارة حربية قبل أوانها من بين أولاد الناس، وأفرد لهم المعز "حجر" في قصره يعلمون فيها الفنون الحربية، وسموا بسبب سكتهم في هذه الحجر "بصبيان الحجر" أو "غلماں الحجر"⁴.

وكان هؤلاء المجندون يخضعون لنظام دقيق فجعل لكل مائة قائد يسمى "رمام" وقسموا إلى قسمين "الحجرية الكبار" و "الحجرية والصغار" ولعل هذا التمييز راجع إلى سن المجندين؛ أو إلى التفوق والشجاعة في

ما يحاربون معه السلافة وقد ميزوا أنفسهم في هذه الحرب وأصبحوا يعرفون "بالجوشية" نسبة إليه انظر: أيمن فؤاد، الدولة الفاطمية، ص 691.

(¹) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 3، ص 478؛ سرور، الدولة الفاطمية، ص 147-148.

(²) ماجد، نظم، ج 1، ص 199.

(³) ناصر خسرو، سفر نامه، ص 114-115؛ ابن عبد الظاهر الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية للقاهرة، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، بيروت 1996، ص 21-67.

(⁴) ماجد، نظم، ج 1، ص 197.

التدريب على الحرب ؛ وكان علي هؤلاء المجندين أن يتعلموا امتطاء صهوة الجواد بمهارة ، ولذلك أعد لهم اصطبل يرسم دوابهم يعرف " باصطبل الحجرية " ؛ أي أن تلك العناصر كان يجب أن تكون مجهزة للحرب لتخرج عند أول إشارة ¹ .

ناهيك عن وجود فرقة من الجنود الفاطميين عرفوا "بالمركزية" أو "بالمقطعين" ؛ استخدمتهم الدولة الفاطمية للمحافظة على الثغور والمراكز الحدودية في الفرما وتنيس والقلم وأسوان ² ، وكانت تلك الحاميات على درجة عالية من التسليح لمواجهة أي أخطار خارجية ؛ وقد تولى ديوان الجيش مهمة الإنفاق على تلك الفئة حيث خصص لتلك الطائفة راتباً شهرياً لقضاء حوائجهم المعيشية ؛ ففي سنة 509هـ / 1115م تكفل بإعاشتهم والى الشرقية لمواجهة خطر بلدوين ملك الفرنج الذي وصل إلى الفرما في تلك السنة ³ .

هذا ودأب الفاطميون على ترك أحد نوابهم بتلك المراكز ؛ كانت مهمته إثبات صلاحية هؤلاء الأجناد المستخدمين أمام مجلس الحرب واستمرار خدمتهم وذلك في سجل مفرد يثبت في آخره عدد المستمرين منهم يعتمدونه متولي الحرب ويرفع بعد ذلك إلى متولي ديوان الرواتب لصرف استحقاقه ⁴ .

والجدير بالذكر أن الخلفاء الفاطميين شرعوا في تأسيس ثكنات لتلك الحشود الضخمة التي تألف منها الجيش الفاطمي داخل العاصمة الجديدة القاهرة التي شيدت علي أيديهم ؛ وهي عبارة عن منشآت ملكية مماثلة لقطاع أحمد بن طولون تضم حارات "أحياء" لسكن فرق الجند ؛ وكل

(¹) ماجد ، نظم ، جـ 1 ، ص 198 .

(²) أيمن فؤاد ، الدولة الفاطمية ، ص 691 .

(³) أيمن فؤاد ، الدولة الفاطمية ، ص 723 .

(⁴) أيمن فؤاد ، الدولة الفاطمية ، ص 723 .

حارة تسكنها جماعة من جنس واحد وتسمى به ، وتتكون من مصكرات
العسكر وأسرههم ، ومن دكاكين وأسواق لحاجتهم المعيشية ؛ وكان الغرض
من إسكانهم في أماكن معينة ؛ منعهم من مضايقة سكان البلاد بالنزول في
دارهم¹ .

والثابت لدينا أن التكنات كانت تضم في أول الأمر حارات كتامة
والروم والروم الجوانية وزويلة والباطلية والبرقية وهي العناصر التي
صحبت جيش جوهر والتي قدمت بعد ذلك مع المعز في سنة
362هـ/973م ، واعتباراً من خلافة العزيز بالله أضيفت حارتي الأتراك
والديلم ، ولم تكن للسودان أية حارة خاصة بهم فلم يبدأ ظهورهم كجزء
هام في القوات الفاطمية المترجلة إلا اعتباراً من خلافة الحاكم ثم تضاعفت
أعدادهم في عهد المستنصر بالله ، الذي كانت أمه سوداء² ، وظلت تلك
الفرقة تشكل جزءاً عظيماً في الجيش حتى أواخر عهد الدولة إلى أن حلت
بدلاً منها عناصر أخرى أتت مع وزراء السيوف ؛ وعلي الأخص أسد الدين
شيركوه وصلاح الدين من قبيل: الأكراد والروم والفرنجة والمصريون الذين
أصبحوا بالضرورة يشكلون عناصر هامة في الجيش بعد أن أضحت بلادهم
مهدة من قبل الصليبيين ؛ لذا يظهر من خلال المصادر أن الجيش الفاطمي
كان يتكون معظمه من جنود وأمراء من المصريين ؛ حيث وجد خلفاء ذلك
العصر فيهم منبعاً لا ينضب من الرجال³ .

وكان الجيش الفاطمي يتألف من عدة أقسام أهمها
الفرسان (الأتراك) والمشاة (السودان)⁴ ، ولجأ الفاطميون إلى إتباع تقسيم

(¹) ماجد ، نظم ، جـ 1 ، ص 202 .

(²) أيمن فؤاد ، الدولة الفاطمية ، ص 663 .

(³) ماجد ، نظم ، جـ 1 ، ص 201 .

(⁴) ابن منجب ، قاتون ديوان الرسائل ، المقدمة ص 32 ؛ ماجد ، نظم ، جـ 1 ص 193 .

عشري في توزيع المسؤوليات بين الجند¹، فجعلوا لكل عشرة أفراد عريفاً، ولكل عشرة عرفاء نقيب، ولكل عشرة نقيباً قائد، وعلى كل عشرة قواد أمير، وأطلق علي القائد الأعلى للجيش اسم (الإسفهسلار) وتسمي وظيفته بالإسفهسلارية²، ووصفته المصادر بأنه زمام كل زمام وإليه أمر الأجناد والتحدث فيهم³، ويأتي ترتيبه بعد صاحب الباب "مباشرة وتقف في خدمته الحجاب علي اختلاف طبقاتهم، أما في الشام فكان قائد الجيش يسمي أمير جيوش الشام⁴، ولقب أحدهم وهو أنوشتكين الذبري أمير الأمراء⁵.

ومن نافلة القول أن الخليفة الفاطمي كان يمثل القائد الأعلى للجيش الفاطمي في القرن الفاطمي الأول؛ فقد خرج العزيز بالله علي رأس الجيش الفاطمي لمواجهة أفتكين التركي سنة 368هـ/979م الذي كان قد استولي علي سوريا، كما قاد الخليفة المستنصر بالله الجيش لمواجهة تغلب الأتراك علي الدولة خلال الثورة التي كادت تعصف بقلب الخلافة الفاطمية⁶.

كذلك كان وزير السيف بسبب سلطته العامة له قيادة الجيش، كما كان الخليفة -أحياناً- يعهد بالقيادة إلي موظف ليس لوظيفته أي مظهر

(¹) القلقشندي، صبح، جـ3، ص 551؛ مشرفة، نظم الحكم، ص 145.

(²) ابن القلاسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 34؛ القلقشندي، صبح، جـ3، ص 551؛ ماجد، نظم، جـ1، ص 193؛ مشرفة، نظم الحكم، ص 173؛ أحمد عبد الرزاق، الحضارة الإسلامية، جـ1، ص 192.

(³) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص 123؛ القلقشندي، صبح، جـ3، ص 478، 1479؛ أيمن فؤاد، الدولة، ص 689.

(⁴) ابن القلاسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 116، 118؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، جـ12، ص 59؛ المقرئ، المقلي الكبير، جـ2، ص 303.

(⁵) المقرئ، إتعاظ الحنفا، جـ2، ص 160.

(⁶) ماجد، نظم، جـ1، ص 208؛ أيمن فؤاد، الدولة الفاطمية، ص 690.

حربي؛ كما حدث في إرسال الحملة الحربية إلى العراق بقيادة المؤيد داني
الدعاة¹.

وغالباً ما كان الأمراء والجنود يتميزون عن بعضهم البعض
بعلامات في المواكب الرسمية والأعياد بحسب مراتبهم؛ فالأمراء الكبار
وهم الذين يخلع عليهم بأطواق الذهب في أعناقهم، ويقود كل منهم ألف
جندي، ويلقي هؤلاء فريق من الأمراء يعرفون بأصحاب القضب؛ يحملون
في أيديهم قضب الفضة "أي رماح الفضة"، ويقود كل منهم مائة جندي
²؛ وهناك أدوان الأمراء الذين لم يؤهلوا لحمل القضب "الرماح"، ولكنهم ولا
ريب كانوا يحملون سلاحاً من نوع أقل قيمة³.

هذا ووصف الرحالة الفارسي ناصر خسرو ترتيب الجند الفاطميين
في عهد الخليفة المستنصر بالله؛ فذكر أن الجند كانوا يسيرون في صفوف
منتظمة فصيلاً تلو فصيلاً؛ فيسير في المقدمة البربر، يليهم المغاربة
، ويسير خلف هؤلاء وأولئك الأتراك والفرس ويطلق عليهم اسم المشرقيين
، ويتبعهم الحجازيون والسودان وكان يطلق عليهم عبيد الشراة؛ أي
الأسري الذين كانوا يشترون بالمال⁴.

أساليب القتال:-

أما تعبئة الجيوش وطرق القتال فقد نالوا فيها حظاً عظيماً؛ فبعد
أن كانت الطريقة القديمة الكر والفر بلا انتظام؛ أصبحوا يقاتلون صفوفاً

(¹) ماجد ، نظم ، ج-1 ، ص 208 .

(²) القلقشندي ، صبح ، ج-3 ، ص 476 ؛ سرور ، الدولة الفاطمية ، ص 148 ؛ حسن
إبراهيم ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص 301 ؛ أحمد عبد الرازق ، الحضارة الإسلامية ،
ج-1 ، ص 193 .

(³) القلقشندي ، صبح ، ج-3 ، ص 476 .

(⁴) ناصر ، خسرو ، سفر نامه ، ص 109-110 ؛ حسن إبراهيم ، تاريخ الدولة ، ص
301 ؛ محمود الحويزي ، مصر في العصور الوسطى ، ص 164 .

كالحائط الممتد؛ تسير بهذا الشكل لمقاتلة عدوهم متضامنين ليس لأحد منهم أن يتقدم عن الصف أو يتأخر عنه كما يفعلون في الصلاة وفق قوله تعالى "إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص"¹. كما كانوا يقسمون الجيش إلى خمسة أقسام "مقدمة" وتكون أمامه لتبدأ المناوشات وتتعرف الطرق وترتاد المواضع وهي غالباً من الفرسان، "وقلب" وهو وسط الجيش وفيه يتخذ القائد العام مركزه غالباً حتى يراه جميع الجند لتنفيذ جميع أوامره؛ أو في المقدمة ليثير حماسة الجند ويلقي الفرع في نفوس أعدائه، أو في عرش له علي ربوة يشرف منها علي جيشه².

أما الكتيبة الثالثة فتوضع "يمنة" وتسمى "الميمنة"، كما توضع الرابعة علي يسارها وتسمى "الميسرة"؛ ويطلق عليهما المجنبتان أو الجناحان، وتوضع الكتيبة الخامسة في الخلف وتسمى "ساقة الجيش"³. وكان لكل فرقة من هذه الفرق الخمس أمير يأتمر بأمر القائد؛ يقال له "صاحب الميمنة" أو الميسرة وهكذا، ولهذا يسمى الجيش خميساً لقسمته إلي خمسة أقسام، ثم تفتنوا في طرق تعبئة الجيوش وكانوا دائماً شديدي المحافظة علي خطوط رجعتهم⁴.

وكان والي المدينة يتولي قيادة الجيش الفاطمي في سائر المدن الخاضعة للحكم الفاطمي؛ فكان جعفر بن فلاح الكتامي قائداً للجيش الذي

(¹) مشرفة، نظم الحكم، ص 172؛ أحمد عبد الرزاق، الحضارة الإسلامية، ج 1، ص 194.

(²) مشرفة، نظم الحكم، ص 173.

(³) مشرفة، نظم الحكم، ص 173.

(⁴) مشرفة، نظم الحكم، ص 173.

تولي فتح مدينة دمشق بالشام وهو أول أمير لها من قبل الفاطميين¹، وأبو محمود إبراهيم بن جعفر بن فلاح قائداً علي رأس القوات العسكرية التي خرجت من مصر متوجهة صوب دمشق سنة 363هـ/973م²، وكذا نفس الأمر مع القائد منجوتكين من قبل الخليفة العزيز سنة 381هـ/991م³، والقائد أنوشتكين الذيربي من قبل الظاهر لإعزاز دين الله سنة 415هـ/973م⁴.

هذا وجرت العادة أن يرسل الخليفة الفاطمي فرقاً من الجيش الفاطمي المرابط بمصر لمصاحبة ولاية الدولة في سائر البلاد الواقعة تحت سيطرة النفوذ الفاطمي مع مراعاة وجود قسمين من تلك الجيوش؛ أحدها هو الجيش الثابت المرافق للولاية في حال تعيينهم علي بلد ما⁵، وعدد ها الجيش محدود يتراوح ما بين (3-5 آلاف) جندي، ويكون من بينهم عدد غير قليل من الفرسان كان يختلف حسب أهمية الوالي ومنزلته عند

(¹) بن الأثير ، الكامل في التاريخ ، جـ2، بيروت 1978، ص32؛ ابن كثير ، البداية ، جـ11 ، ص276؛ الدواداري ، الدرّة المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية، تحقيق: صلاح الدين المنجد، القاهرة 1961، ص128؛ المقرئزي ، إتعاظ الحنفا ، ص125 .

(²) ابن الفلانسى ، نيل تاريخ دمشق ، ص20 .

(³) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، جـ12 ، ص59 .

(⁴) ابن الفلانسى ، نيل تاريخ دمشق ، ص118؛ المقرئزي ، إتعاظ الحنفا، جـ2، ص160؛ المقرئزي ، جـ2، ص303 .

(⁵) ابن الفلانسى ، نيل تاريخ دمشق ، ص68 ، 94؛ المقرئزي ، إتعاظ ، جـ2، ص8 ، 43 ، 83 .

الخليفة الفاطمي ، أو حسب أهمية الموقف الذي سيقابله في البلد المتوجه إليها¹ ويصل أحياناً إلى ألفي فارس.

أما القسم الثاني من تلك الجيوش فهو الجيش غير الثابت وهو الذي يستعان به لمواجهة المشاكل والأزمات الطارئة ويتكون - إضافة إلى الحامية العسكرية - من جيوش الولايات التابعة للدولة الفاطمية ، وربما يستعان بعدد آخر من القاهرة تبعاً لتطورات الأحداث السياسية².

والثابت لدينا أن الفاطميين اهتموا بتوفير أسباب العيش المناسب لجنودهم ، فقاموا برعاية أسرهم أثناء غيابهم ، وكانت الدولة تمنح الجنود إقطاعات من الأرض مختلفة المساحة لقاء خدماتهم العسكرية وحسب درجاتهم ومراتبهم³ ، فقد أقطع الخليفة العزيز بالله ووزيره يعقوب بن كلس للجنود الفاطميين في مصر وبلاد الشام أراض لاستغلالها والانتفاع بها في حياتهم⁴ ، وفي حال إخراج الجيش الفاطمي من مصر للقيام بأحد المهام العسكرية في جهة ما كان يقدم لكل جندي عشرين ديناراً ليتجهز بها وينفق على نفسه خلال رحلته ، كما كانت تقدم لهم الأرزاق والكسوة في الصيف والشتاء .

هذا ودأب بعض خلفاء الدولة الفاطمية على إثارة حماس جنودهم بشتي الطرق ؛ فكان المعز لدين الله يلجأ إلى إثارة حماس جنوده عن طريق

(¹) أبو شجاع ، ذيل تجارب الأمم ، القاهرة 1916 ، ص 226 ؛ ابن الفلاس ، ذيل تاريخ دمشق ، ص 77 ، 119 ؛ المقرئزي ، المقفلي ، ج 1 ، ص 127 ؛ ج 2 ، ص 303 ؛ عارف تامر ، المستنصر بالله ، دمشق 1980 ، ص 129 .

(²) ابن الفلاس ، ذيل تاريخ دمشق ، ص 9 ، 31 ، 41 ، 68 ، 118 ؛ ابن ميسر ، المنتقى من أخبار مصر ، ص 166 ؛ المقرئزي ، إتحاف الحنفا ، ج 2 ، ص 249 ، 269 ؛ ج 2 ، ص 161 ، 176 ، 178 .

(³) المقرئزي ، الخطط ، ج 1 ، ص 85 ؛ ماجد ، نظم الفاطميين ، ج 1 ، ص 114 ، 192-193 .

(⁴) المقرئزي ، الخطط ، ج 2 ، ص 6 ؛ مشرفة ، نظم الحكم ، ص 158 .

إغرائهم بالمال والمناصب أو بتخويلهم من الله سبحانه وتعالى¹ ، وكان العزيز بالله ينفق من الأموال لإعداد الجيوش وتدريبها وتسليحها ومنحها الأعطيات والأرزاق والمكافآت ، فأنفق على الجيش الفاطمي المتوجه إلى بلاد الشام في إحدى المهام العسكرية سنة 381هـ/991م ما ينيف على المليون دينار² .

ومن الأمور الهامة التي كان يقوم بها الخلفاء الفاطميون استعراض الجيش في العاصمة أو ضواحيها ؛ وكان ميدان بين القصرين الواقع بين القصر الفاطمي الكبير والقصر الفاطمي الصغير الغربي يستخدم لهذا الغرض ، وكان يتسع لعشرة آلاف جندي بين فارس ورجل³ ، وتروي المصادر أن العزيز عرض عساكره في سنة 384هـ/978م في خارج القاهرة عند مكان يسمى "سطح الجب" ، فنصبت له خيمة فخمة وضرب لابنه المنصور خيمة أخرى ، ولم تزل العساكر تسير بين يديه من ضحوة النهار إلى صلاة المغرب⁴ .

كما حرص الخلفاء الفاطميون على توديع الجيوش المتجهة لمحاربة الأعداء خاصة ما كان مرسلًا منها إلى بلاد الشام وفلسطين التي كان أهلها في ثورة متواصلة ضد سلطة الفاطميين الشيعة ، ويعود هذا التقليد إلى الخليفة الفاطمي المعز لدين الله الذي حرص بنفسه ومعه ولي عهده وكبار رجال دولته لوداع جيش جوهر الذي خرج من رقادة لفتح مصر ، واستمر هذا التقليد بعد فتح مصر فإذا ما خرج الجيش جلس الخليفة بمنظرة باب الفتوح لعرض العساكر وتوديعهم ، وفي هذه المنظرة كان

(¹) حسن إبراهيم ، طه شرف ، المعز لدين الله ، ص 177 ، الخربوطلي ، العزيز بالله ، ص 93 .

(²) ابن ميسر ، المنتقى من أخبار مصر ، ص 170 .

(³) أيمن فؤاد ، الدولة الفاطمية ، ص 695 .

(⁴) ماجد ، نظم ، ج 1 ، ص 209 .

يؤذن لقائد الجيش بالمثل بين يدي الخليفة فيخلع عليهم خلعة مزركشة بالذهب¹؛ أما الصناديق التي تحوي معدات الجيش من أموال وأسلحة ومؤن وغير ذلك، فكانت العادة أن يقوم صاحب بيت المال بتسليم القائد قوائم تشتمل علي محتويات هذه الصناديق، وكانت نوافذ المنظرة تفتح، فإذا رأى الجندي وجه الخليفة خروا له مقبلين الأرض، ثم يومئ الخليفة للجيش فتسير ويركب إلى منظرة المقس².

وبالرغم من عدم توافر معلومات كافية عن أعداد الجنود الفاطميين إلا أن هناك ما يشير إلى حجم القوات الفاطمية التي كانت تتوجه من القاهرة إلى بعض الولايات الشامية بين الحين والآخر، ففي سنة 363هـ/973م بلغ عدد الجيش الذي قاده أبو محمود إبراهيم بن جعفر إلى دمشق ما يقارب 20 ألف جندي³.

وفي خلال حربه ضد أفتكين التركي والي دمشق سنة (365-367هـ/975-977م) جمع جوهر الصقلي جيشاً بلغ تعداداه ما ينيف علي العشرين ألفاً من الجنود⁴، وبلغ عدد الجيش الفاطمي المتوجه من القاهرة لدمشق سنة 381هـ/991م حوالي ثلاثة عشر ألف جندي⁵، حيث كانت تلك الجيوش تخرج للقيام بمهام عسكرية ثم تغزو عائدة إلى مقر العاصمة بالقاهرة عقب انتهاء المهمة مع مراعاة الإبقاء علي حامية عسكرية بالبلدان التابعة للخلافة الفاطمية لحمايتها ومساعدة رجال الشرطة في إقرار الأمن والنظام.

(¹) المقرئزي، الخطط، ج-1، ص 481.

(²) حسن إبراهيم، تاريخ الدولة، ص 302.

(³) ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ص 166.

(⁴) المقرئزي، المقلي، ج-3، ص 109.

(⁵) ابن الفلاس، نيل تاريخ دمشق، ص 69.

هذا في الوقت الذي ذكر فيه أحد المؤرخين المحدثين¹ أن طائفتي الأتراك والسودان داخل الجيش الفاطمي بلغ تعدادهما حوالي خمسين ألف جندي، والمغاربة بلغ الفرسان منهم حوالي أربعون ألفاً، والمشاة ست وثلاثين ألفاً؛ وقدر المقرئزي رواتب طائفة الأتراك وحدها في الجيش الفاطمي بثمان وعشرين ألف دينار شهرياً؛ زادت تدريجياً حتى وصلت أربعين ألف دينار شهرياً في عهد المستنصر بالله الفاطمي؛ ولا شك أنه إذا كانت تلك رواتب طائفة واحدة من الجيش فأغلب الظن أن رواتب الجند تجاوزت المليون دينار سنوياً، عدا ما كانت تنفقه الدولة على الطعام والملبس والسلاح وغيره.

ومن نافلة القول أن عدد الجيش الفاطمي بدأ في أوائل الدولة بأعداد حاشدة بلغت ما يقارب مائة ألف رجل قيل عنه -كما ذكر مسبقاً- أكبر جيش عرفته مصر منذ الإسكندر الأكبر؛ أخذت في التزايد تدريجياً -خاصة في عهد المستنصر- ثم أخذ في التضاؤل نسبياً في نهايتها؛ وخير شاهد على ذلك أن عدة العسكر في عرض ديوان الجيش في أيام الوزير رزيق بن الصالح طلائع سنة 557هـ/1162م بلغت أربعين ألف فارس ونيفاً وثلاثين ألف راجل من السودان؛ بل أنه خلال الصراع الدائر بين شاور وضرغام سنة 559هـ/1164م كان بمصر عشرة آلاف فارس².

ويبدو واضحاً أن الفرقة السودانية كانت ما تزال تكون معظم مشاة الجيش الفاطمي، وكانوا يسكنون في حارة مخصصة لهم خارج باب زويلة على يمنة الخارج منه تجاه بركة الفيل تعرف بـ"الحارة المنصورية"، وقد قام هؤلاء السودان -الذين بلغ عددهم خمسين ألفاً- عندما تولي صلاح الدين الوزارة سنة 564هـ/1168م بمكتبة الفرنج يحرضونهم على محاربة صلاح الدين، وقد وقع كتابهم هذا في يده الذي قتل رئيسهم مؤتمن

(¹) حسن إبراهيم، تاريخ الدولة، ص 563.

(²) أيمن فؤاد، الدولة الفاطمية، ص 693.

الخلافة في ذي القعدة من نفس العام ثم هاجمهم في الحارة المنصورية وأحرقها عليهم وخربها وتتبع فلولهم في الصعيد حتى قضى عليهم تماماً وأصبح أمر السودان كأن لم يكن¹.

والخلاصة أن الجيش المصري وقع علي عاتق التصدي للأخطار الخارجية التي باتت تهدد التخوم المصرية في عهد الدولتين الإخشيدية والفاطمية؛ كما كان لزاماً عليه مواجهة حركات التمرد والعصيان من قبل نواب تلك الدولتين في بلاد الشام، ناهيك عن حركات الانقسام داخل الجيش نفسه والتي كانت تحتاج لقائد حازم من قبيل: الإخشيد وكافور من قبل؛ ثم الخلفاء الفاطميين من بعد.

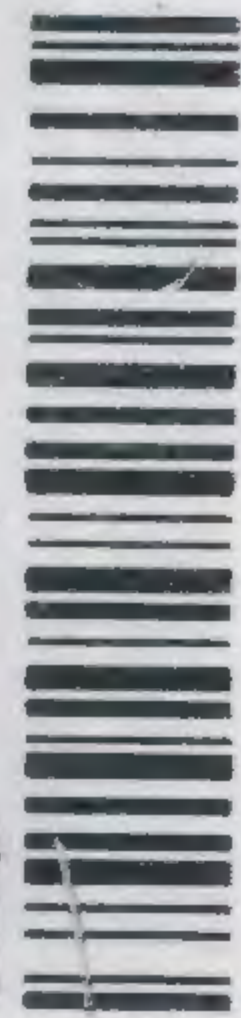
ولا يخفي علينا مدى اهتمام الإخشيديين والفاطميين بالجيش المصري وعناصره وحواشيه وأساليبه القتالية وعدده وعتاده وأسلحته والطقوس المصاحبة لخروجه في وقت الحرب؛ تلك العناية التي ساعدت الفاطميين بصفة خاصة علي بقاء دولتهم زهاء قرنين من الزمان؛ تصدت خلالها للأخطار الخارجية والداخلية علي حد سواء؛ ويكفي أنه بمجرد انهيار عصبية الجيش والصراع بين طوائفه وعناصره؛ بات ذلك المسمار الأول في نعش الدولة الفاطمية؛ التي ما لبثت أن سقطت علي يد الأيوبيين الذين طعموا جيشهم بدماء جديدة؛ شكل الأكراد والمصريون النصيب الأكبر فيه؛ لمواجهة خطر الحملات الصليبية التي داهمت مصر وبلاد الشام إبان تلك الفترة.

(¹) أيمن فؤاد، الدولة الفاطمية، ص 693.

فهرس المحتويات

مقدمة	(3-4)
الفصل الأول	(5 -24)
الفصل الثاني	(25 -77)
الفصل الثالث	(78 -133)
الفصل الرابع	(133 -177)
الفصل الخامس	(177 -211)
الفهرس	(212)--

Bibliotheca Alexandrina



0655022

